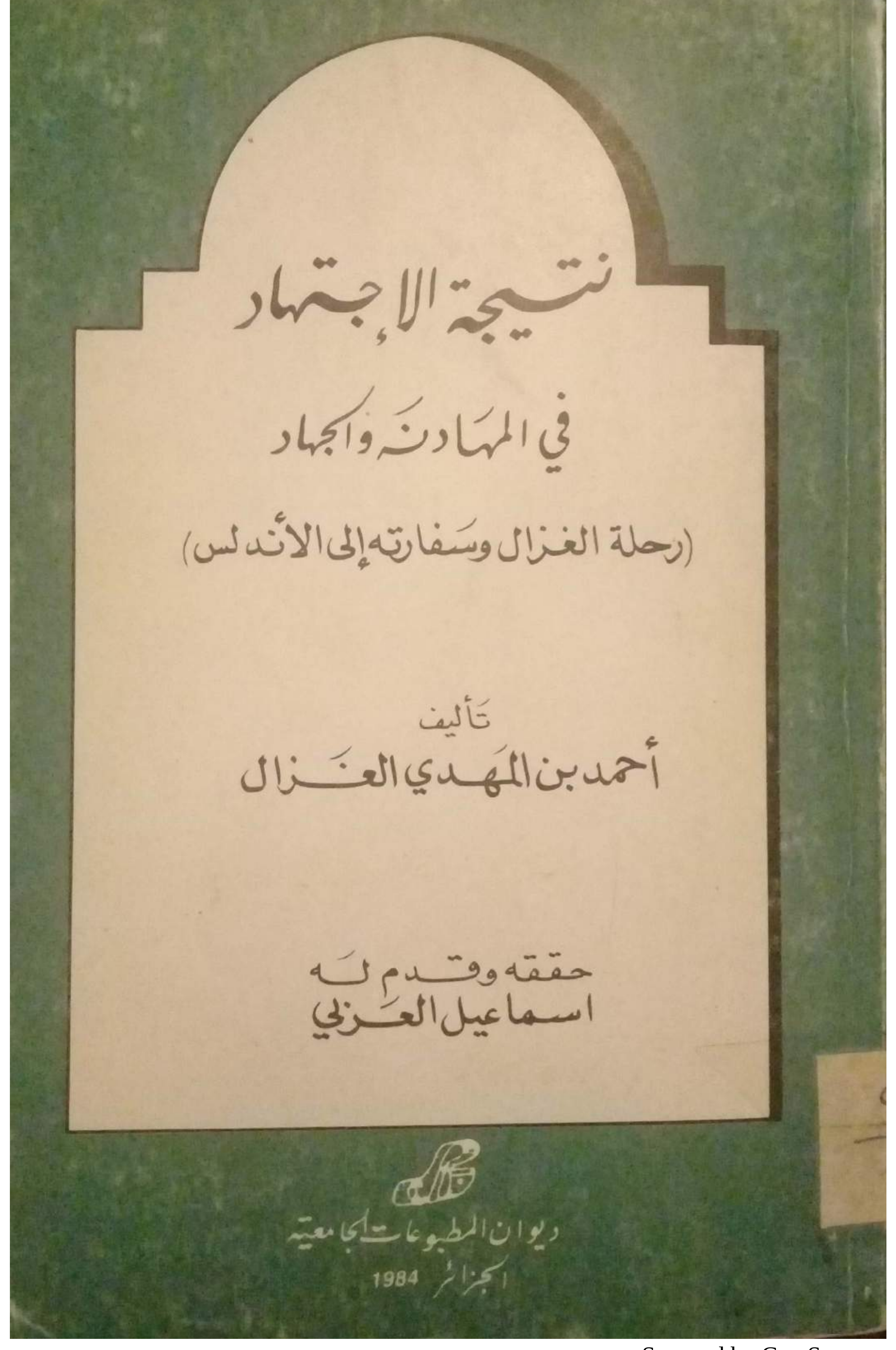


نتيجة الاجتهاد

في المهادنة والجهاد

(رحلة الغزال وسفارته إلى الأندلس)

تأليف

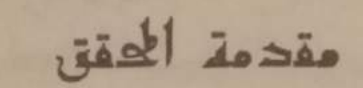
أحمد بن المهدي الغزال

حققه وقدم له

اسماعيل العربي

ديوان المطبوعات الجامعية

الجزائر 1984


مقدمة المحقق

سفارة الغزال

كان المولى محمد بن عبدالله خليفة على مراكش في عهد والده ، كما كان من بين كبار قواده العسكريين . وبعدما قضى على ثورة الشاوية ونشر الأمن في المناطق الغربية المجاورة للقصر وطنجه ، بويع سلطاناً على المغرب الأقصى ، عقب وفاة والده ، في سنة ١١٧١ هـ . (١٧٥٧ م) [1]

كان محمد بن عبدالله مولعاً بشئون البحر والغزو والسيطرة ، وبنى أسطولاً حربياً معتبراً للقرصنة قيل أنه يتكون من عشرين قطعة كبيرة ومن عدد كبير من السفن الصغيرة [2] بحيث أنه اختط مدينة الصويره لتكون قاعدة لهذا النشاط ، إلى جانب مدينة العرايش ، وذلك على الرغم من مدة عمل هذا الأسطول التي لا تتجاوز شهرين في السنة .

ولم تزل قراصنة السلطان عبدالله تغـزو الشواطىء الأروبية وتعيث فساداً فيها . فتسبي وتأسر وتغنم حتى ضاقت الدول الأروبية ذرعاً بهذا النشاط [3] .

وكذلك اضطرت بعض الدول الأوربية إلى عقد معاهدات ودية وتجارية معه . وفي مقدمة هذه الدول ، الدانمارك (١٧٥٧) التي تنازل

---

(١) راجع : Terase (H) , Le Maroc (IV / 291 et suv.) ,

(٢) نفس المصدر .

(٣) كتاب الاستقصا للسلاوي (٤ / ٩١) .

لها عن تجارة صافي ، والسويد في سنة ١٧٦٣ ، وإنجلترا في سنة ١٧٦٥ ، والبندقية في سنة ١٧٦٧ م .

لكن دولاً أخرى وفي مقدمتها فرنسا ، فضلت طريق الإنتقام والرد على القوة بالقوة ، فإن الفرنسيين شنوا هجوماً جدياً عنيفاً على مدينة سلا التي قصفوها بالمدافع في أواخر سنة ١١٧٨ هـ (١٧٥٤ م) (١)

وبعدما ردوا على أعقابهم ، أعادوا الكرة في السنة التالية فنزلوا بالمدينة وأحدثوا بمنشئاتها ومنازلها وبمراكب السلطان أضراراً جسيمة ، قبل أن يحيط المغاربة بجموعهم ويلحقوا بهم هزيمة منكرة .

وفي مرحلة تالية عقدت فرنسا معاهدة مع سلطان المغرب وتبادل الطرفان السفراء .

وأما إسبانيا ، فقد ظلت في حالة حرب مع المغرب ، وكان كلا البلدين يحتفظ بعدد كبير من أسرى البلد الآخر . وقد كانت وضعية الأسرى المغاربة وعدد كبير من الأسرى المسلمين الذين كانت السلطات الإسبانية تسيء معاملتهم هي السبب الذي حمل السلطان عبدالله على إرسال سفارة برئاسة محمد بن المهدي الغزال إلى مدريد .

وكان جماعة من الأسرى المسلمين في إسبانيا كتبوا رسالة إلى السلطان محمد بن عبدالله يشكون فيها مما ينالهم من التعسف والإهانة ومما يكلفون به من الأعمال الشاقة في شق الطرق وغير ذلك مع قلة العناية بأكلهم ولباسهم .

ولما وصلت هذه الرسالة إلى السلطان تأثر لحال هؤلاء التعساء واهتم بمصيرهم ، فأمر بالكتابة إلى كارلوس الثالث ملك إسبانيا ليبلغه اهتمامه

---

(١) نفس المصدر (٤ / ٩٩) .

بأمر الأسرى عموماً ، وحفظة القرآن والعجزة منهم خصوصاً. وقد طلب إليه ان يميز في المعاملة هذه الفئة الأخيرة ، كما يفعل هو بتمييز القساوسة ورجال الدين من الأسرى الإسبان الذين يوجدون في يده .

وكذلك قام السلطان محمد بن عبدالله بإطلاق سراح عدد من الأسرى الإسبان بدون فدية .

واثر ذلك ارسل إليه كارلوس الثالث بعثة من القساوسة تحمل رسالة شكر وهدايا إلى السلطان . وقد طلب إليه ملك إسبانيا ان يبعث إليه بأحد رجال دولته للإجتماع به ولزيارة المدن الإسبانية والتعرف على احوالها[1] .

وقد اختار السلطان رئيساً لبعثته الديبلوماسية خاله ابا يعلى عمارة بن موسى ، ومعث معه أبا عبدالله ، محمد بن ناصر من قواد الجيش ومعهما ابا العباس الغزّال كاتبه ، بصفته كاتباً للبعثة .

ولما وصل الوفد إلى بعض الطريق ، كتب الغزّال إلى أحد وزراء السلطان يطلب إليه ، ان يعرف السلطان بقلقه ، لأن كلا الشخصين المكلفين بالسفارة لا يعرف شيئاً عن قوانين النصارى وعاداتهم ، وانه هو يخشى ان يكون ذلك عائقاً في طريق نجاح السفارة .

ولما قام الوزير بنقل هذه الملاحظات إلى السلطان ، اعاد النظر في تشكيل الوفد ، فوضع على رأسه احمد بن الغزال ، وخلع عليه رتبة سفير ، او كما يسمى بالتركية حينئذ ، باشادور [2] .

بدأ الغزال رحلته من مكناسة الزيتون ، وكانت تعليمات الوفد تقضي بأن يقيد مشاهداته في إسبانيا ويصف المدن التي يراها .

---

(١) نفس المصدر (٤ / ١٠١) .

(٢) نفس المصدر .

ولما وصل إلى طنجة اراد العبور منها مباشرة إلى إسبانيا ، ولكن حاكم سبته الإسباني التجأ إلى حيلة اضطر معها الوفد المغربي إلى الإبحار من هذه المدينة التي وصل إليها في ١٥ ذي الحجة ، ١١٧٩ هـ (مايو ١٧٦٦ م)[1]

وبعد إقامة استغرقت ستة ايام في سبته ، اتيح للغزال خلالها زيارة معالم المدينة وتسجيل وصفها ، ابحر الوفد في اتجاه الجزيرة الخضراء[2] عبر مضيق جبل طارق .

ومن الجزيرة الخضراء واصل سفره لزيارة المدن الإسبانية على الترتيب التالي : طريف – مدينة صيدونة – لابريجة – اشبيلية – قرمونة مدينة الفوينسطي فاسيخا – قرطبة – مدريد – لاكرانخه – شيغوبية – الاسكوريال – مرسية – قرطجنة – قادس . ومن المدينة الأخيرة أبحر الوفد عائداً إلى المغرب في رفقة سفير كارلوس الثالث ونزل بتطوان ، ومنها سار إلى القصر فالعريش فسلا ، وذلك بعد غياب دام ثمانية اشهر .

والمعلومات المتوفرة لدينا عن الغزال معلومات قليلة ، لا تتجاوز ما ذكره السلاوي ومحمد بن جعفر الكتاني في سلوة الأنفاس[3] من انه فقيه اديب وانه آخر ادباء وقته ، وإنه كان قد عمل فترة من الزمن كاتباً للوزير والمؤرخ الزياني وكان على صلة وثيقة به ، قبل ان يدخل في خدمة السلطان عبدالله ويعمل كاتباً له .

---

(١) راجع مقدمة المؤلف للرحلة .

(٢) يسميها الغزال ، الجزيرات .

(٣) محمد بن جعفر الكتاني ، سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس ، طبع فاس ، ١٣١٦ ، (١ / ٣٣١ – ٣٣٢) .

واحمد بن الغزال ولد، فيما يبدو ، في مكناس وتربى في هـذه المدينة [1] ،في منزل غير بعيد من القصر الملكي ،حيث كان ابوه يشغل قبله منصب كاتب السلطان في عهد المولى إسماعيل . والأسرة تنحدر من أصل أندلسي ، وقد كان اجداد احمد بن الغزال يقيمون في مدينة مالقة ، قبل ان يهاجروا إلى المغرب في وقت لا نعرفه .

ونحن لا نعرف تآليف اخرى للغزال ، ولو ان محمد الكتاني يقول إن له تآليف في الأدب [2] .

ومهما يكن من أمر ، فان سفارة أحمد الغزال ، نجحت نجاحاً كبيراً ، لا بالإستقبال الحماسي الذي لقيه الوفد المغربي حيثما حل فقط ، ولكنها أيضاً أسفرت عن نتيجة إيجابية حيث أن الملك الإسباني أطلق سراح الأسرى المغاربة وعمل على تحسين حالة بقية الأسرى المسلمين الذين وقعوا في يده .

وزيادة على ذلك فقد أدت إلى تقارب بين البلدين توجته معاهدة عقدت بين السلطان عبدالله والملك كارلوس الثالث في سنة ١١٨١ هـ . (٢٦ مايو ، ١٧٦٧م) ،وقد كان تحرير نصوص المعاهدة على يد أحمد ابن الغزال .

بل إن نجاح مهمة تجاوز آثاره العلاقات بين البلدين لتشمل العلاقات الجزائرية الإسبانية أيضاً .

ففي سنة ١١٨٢ هـ (١٧٦٨ م) ، كتب كارلوس الثالث إلى السلطان ليخبره أنه لم يبق لديه أحد من الأسرى المغاربة ، ولكنه في مقابل ذلك .

---

(١) راجع :

Lévi - Provençal, les Histoires des chorfa, ed. Larose, 1922, p. 328

راجع كذلك . Brock. GAL. , II/465

(٢) المصدر المذكور (ص ٣٣٢) .

يوجد في إسبانيا عدد كبير من الأسرى الجزائريين . ونظراً لوجود عدد من الأسرى الإسبان في الجزائر ، فهو يرجوه أن يتوسط لدى السلطات الجزائرية من أجل قيام البلدين بتبادل الأسرى «الرائس بالرّايس والبيلوط بالبيلوط ، والباكنجى بالباكنجى ، والبحري بالبحري ، والجندي بالجندي ، ومن فضلت عنده فضلة تكون التسوية على أساس البحري بخمسمائة ريال والرئيس بألف ريال إلخ . »[1] وقد قبل السلطان عبدالله فكرة القيام بالوساطة .

ولكنه لما كتب إلى داي الجزائر ليبلغه رغبة ملك إسبانيا في مبادلة الأسرى ، امتنع الداي عن ذلك .

على أن السلطان كرر مسعاه مرة أخرى وثالثة ، وانتهى الأمر بقبول السلطات الجزائرية للعرض الإسباني[2] وطلبت إلى السلطان عبدالله أن يبعث إلى الجزائر بأحد رجال دولته للتفاوض والوساطة لهذه الغاية وليكون واسطة ، فيما بعد ، لتسليم الأسرى الإسبان ولتسلم الأسرى الجزائريين .

وأثر ذلك، كتب السلطان إلى كارلوس الثالث يخبره بنجاح مسعاه ويطلب إليه أن يوجه من عنده من الأسرى الجزائريين في مركب خاص إلى الجزائر وينتظر هناك مقدم « الباشادور » الذي يبعث به السلطان ليكون واسطة في عملية المبادلة .

---

(١) الاستقصا (٤ / ١٠٧)

(٢) وصل المسعى المغربي إلى الداي محمد حسن بن عثمان عقب توليه الحكم بقليل (٢ فبراير سنة ١٧٦٣) وقد كان السبب في تردد الداي يرجع إلى النصائح التي كان يسديها اليه بعض ممثلي دول اوروبا الشمالية الذين كانوا يتخوفون من أن تكون هذه الخطوة الأولى في طريق عقد معاهدة بين الجزائر واسبانيا ، ويؤدي الأمر إلى خراب تجارة بلادهم . راجع :
A. Gargous, Re. A. V., 1861. p. 456 - 466 .

وكذلك سافر أحمد الغزال في مهمة جديدة إلى الجزائر على رأس بعثة تتكون من نفس الضابطين اللذين رافقاه إلى إسبانيا [1] .

ولدى وصوله إلى الجزائر ، أرسى المركب الإسباني الذي يقل الأسرى الجزائريين بظاهر المرسى ، وقد وجد الغزال في انتظاره ، وأنزل من المركب ١٦٠٠ أسيراً جزائرياً ، وأخرجت السلطات الجزائرية عدداً مماثلاً من الأسرى الإسبان وبقيت عند الجزائريين فضلة من الأسرى ، فداها الإسبان بالمال ، فعاد المركب إلى اسبانيا ، وعادت سفارة أحمد ابن الغزال إلى مكناس ، مكللة بالتوفيق مرة أخرى .

وهذا النجاح سمح لأحمد بن الغزال بتدعيم مركزه في قصر السلطان بحيث أصبح من كبار رجال المخزن ومن مستشاري الملك المقربين .

وفي أواخر سنة ١١٨٤ هـ (١٧٧١ م) ، غزا السلطان مدينة مليلة التي كانت خاضعة للإسبان ، فأحاطت جيوشه بها ونصب عليها المدافع والمهاريس ، وشرع في قصفها في أول يوم في المحرم سنة ١١٨٥ هـ . واستمر على محاصرة المدينة أياماً [2] ، وظل على ذلك ، حتى كتب إليه الملك كارلوس يذكره بمعاهدة الهدنة والصلح المعقودة بين الدولتين ويقول له :

« هذا خط كاتبك الغزال الذي كان واسطة بيني وبينك في عقد الصلح لا يزال تحت يدي » .

فأجابه السلطان محمد بن عبدالله قائلاً « إنما عقدت معك المهادنة في

---

(١) نفس المصدر ، وكذلك Histoire des chorfa, p. 328 .

(٢) راجع بشأن هذا الحصار ، الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب للزياني ، تحقيق Hodas ، طبع باريس ١٨٦٦ (ص٧٩) . وكذلك Terras (H) المصدر المذكور (٤/ ٢٩٥) .

البحر . فأما المدن التي في إيالتنا، فلا مهادنة فيها. ولو كانت فيها مهادنة لخرجتم إلينا ولدخلنا إليكم . فكيف ادّعاء المهادنة مع هذه المداهنة ؟ »

وإثر ذلك ، بعث إليه ملك إسبانيا بنص المعاهدة ، وإذا بالنص يشتمل على كلمتي « البر والبحر » .

وإزاء هذا الوضوح ،لم يسع السلطان ابن عبدالله إلا أن يفك الحصار عن مليلة ويفرج عنها، تاركاً هناك في الميدان جميع مدافعه وآلات حربه وذخيرته وعرباته ، مشترطاً... على ملك إسبانيا أن يتولى نقلها له على متن السفن الإسبانية ويسلمها إلى الثغور التي جلبت منها ، تجنباً لمتاعب نقلها بطريق البر !

وقد وافق ملك إسبانيا على هذا الإقتراح بكل رحابة صدر ، ونقلت سفنه بعض المعدات المغربية إلى ميناء تيطوان ، والبعض الآخر إلى الصويرة .

وهذا الفشل العسكري والديبلوماسي أثار سخط السلطان محمد بن عبدالله وصب جام غضبه على أحمد بن المهدي الغزال الذي اتخذ منه كبش الفدا وعزله من منصبه في الكتابة .

اما سوء التفاهم فمنشؤه أن الغزّال كتب في صدر المعاهدة ما نصه : « إن المعاهدة بيننا بحراً لا براً » .

فلما وقع صك المعاهدة في أيدي الإسبان ، عمدوا إلى التزييف ، فمحوا اللاّم الألف وجعلوا مكانها واواً، فصار النص : «بحراً وبراً»

والمحاولات التي بذلها ابن الغزال للشرح ، على الرغم من إثباته للتزوير ، لم تقنع السلطان الذي أنكر عليه اختصاره القول واختزاله بحيث انطوى النص على إمكانية للتزوير ، الأمر الذي سهل على النصارى مهمتهم

في التحريف ، بينما كان في إمكانه أن يأتي بعبارة طويلة ، كأن يقول : « إن المهادنة بيننا وبينكم في البحر وأما في البر فلا مهادنة » أو ما يشبه ذلك .

وعقب ذلك إنتقل أحمد بن الغزال الى مدينة فاس حيث أقام مغموراً وقد أصيب بالعمى ، وتوفي في سنة ١١٩١ هـ (١٧٧٧ م) ، ودفن في زاوية الشيخ عبد القادر الفاسي [1] .

قيمة الرحلة

عقب عودته من سفارته إلى إسبانيا، عكف أحمد بن الغزال على تحرير رحلته التي سجل ملاحظات حية خلالها، وقد سار على نفس الطريقة التي انتهجها سفير آخر سبقه إلى إسبانيا، وهو الوزير الغساني[1] .

والرحلة التي بين أيدينا تسلط الأضواء ، بما تحتوي عليه من الملاحظات والإلتفاتات الحية ، على جانب مهم من الحياة الإجتماعية في أسبانيا ـ حياة القصور والطبقة الإرستوقراطية في إسبانيا ، في النصف الثاني من القرن الثامن عشر . والقارىء الذي يغض النظر عن الناحية العلمية فيها ، سيجد فيها دائماً شعوراً إنسانياً فياضاً وأسلوباً أدبياً متيناً وميلاً من صاحبه إلى اقتناص الشوارد وتسجيل الغرائب . والرحالة السفير لا ينسى خلال حفلات الإستقبال وقيود المراسم وازدحام الجميلات الإسبانيات حوله في فضول ، مهمته الأساسية ، وهي تحرير الأسرى المسلمين ، ولكن هذا

---

(١) راجع عن أيام الغزال الأخيرة ، الزياني ، المصدر المذكور (ص ٧٩) ؛ سلوة الأنفاس (ص ٣٣٢) .

(٢) راجع اغناطيوس كراتشكو فسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، طبع جامعة الدول العربية ١٩٥٧ (٢/٧٣٤) .

لا يمنعه من أن يتذوق مظاهر البذخ والملذات البريئة التي تقدمها إليه إسبانيا الملكية . والرحلة من هذه الناحية لوحة فنية رسمتها يد شرقية .

صحيح أنه لا يتحدث عن الخمر ولا يصف الأطعمة التي تقدم اليه وإلى رفقائه ، ولكن الرجل لا ينسى أن يعد المقاعد ويحصي الشموع (٦٨٠٠ شمعة) التي أضيئت في حفلة الاستقبال التي أقامها تكريماً له ابن حاكم إشبيلية . وبعدما تحدثنا باستفاضة عن أعيان المدينة والمراكيس (ج. مركيز) والفرسان (الضباط) الذين حضروا الحفلة ، يمضي ابن الغزال فيقول :

« والموضع الذي نحن فيه يتردد الينا النساء فيجلسن بين أيدينا ، بنـــا هنيئات ، ثم يذهبن ويأتي غيرهن ، فتحصل من هذا استيعابنا بالنظر لنسوة المدينة وبناتهن ، كما لم يفت أحداً منهـــن رؤيتنـــا » ... . « وما شعرنا الا والنسوة يتزاحمن على المحل الذي نحن به ، والكل يطلب رؤيتنا ... إلى أن تفاقم للحجاج فيما بينهن ! » .

ولكن هذا التذوق والانفتاح من سفير يمثل أمير المؤمنين ، لا يدهشنا الا جزئياً ، إذا تذكرنا أن الرجل أديب وفي مقتبـــل العمر . ولكن الشيء الذي يدهشنا ، هو قلة اكتراث أحمد بن الغزال بما شاهده من مظاهـــر التقدم التقني الذي أحرزته اسبانيا ، ولاسيما في مجال صنع الاسلحـــة الحربية . فقد نظمت له السلطات الملكية زيارة لمصنع حربي ، وبدلا من الانطباع الذي أرادت أن تتركه في نفسه هذه الزيارة بالقوة والعلم والتنظيم المحكم، لم توفق الا الى خلق شعور بعدم الاكتراث وقلة الاهتمام. وهل هناك أدل على استخفافه بمظاهر القوة العسكرية من زيارة ابن الغزال للكلية الحربية؟ ففي نهاية هذه الزيارة التي لم يستلفت نظره فيها سوى الجوانب التافهة، أعرب عن رجائه لمدير الطلبة بان يمنح الطلبة اجازة. . . لمدة ثلاثة أيام انعاماً عليهم «ورحمة بهم واستراحة مما هم فيه من السجن!».

ولما دعي لمشاهدة حفلة لمصارعة الثيران ، ذلك الموضوع الذي كان ولا يزال مثاراً للشعور ومصدراً للوحي الأدبي ، لم يرَ الغزال في هذه اللعبة سوى جانب تعذيب الحيوان و « تعذيب الحيوان لا يجوز للانسان » .

على أن عناية ابن الغزال بوصف المساجد والقصور الاسلامية التي زارها ، وما ينطوي عليه هذا الوصف من الدقة وقراءته للنقوش الخطية الفنية ، تدل على أكثر من شعور التقوى والتعلق بآثار المسلمين . انها دليل على قوة الملاحظة والصبر ، وهي من الخصائص التي تميز العلماء .

ولكن ابن الغزال مع الأسف ، تنقصه المعلومات التاريخية بصورة غير معتادة بالنسبة إلى شخص في مركزه السياسي وفي مستواه الثقافي . فهو يزور قصراً أو قلعة أو مسجداً،وبدلاً من أن يذكر لنا إسم الملك الذي بناه أو أقام فيه أو الأسرة التي شيد في عهدها أو تاريخ بنائه ، فهو يقتصر على القول بأنه « من عمل المسلمين رحمهم الله ! » .

وهذا الإهمال الكلي للتاريخ كان مقصوداً من رحالتنا وقد نبهنا منذ البداية إلى أن المهم ، هو المشاهدة الحية وليس التاريخ الميت .

ونحن احتراماً لرغبة الكاتب الذي أراد أن يكتسي عمله طابع « شئون الساعة » ، قد امتنعنا عن إثقاله بالتعليقات التاريخية والجغرافية التي من شأنها أن تغير طابعه [1] .

والجانب الآخر الذي قد يصدم ذوق القارىء المعاصر ، هو كثرة

---

(١) كتب الغزال في مقدمة رحلته يقول في معرض الحديث عن المخطط الذي وضعه لهذه الرحلة : « يستعمل في تقييد ما يشاهده بنيانه وأقلامه ، يستوعب من أخبار البلاد الاصبنيولية ، بعضه وجله ويقتصر على ما شاهده في الإقامة والرحلة ، ولم يتعرض لما هو من طريق المؤرخين من حشو مؤلفاتهم بتكرار أخبار المتقدمين يعتمدون في ذلك على النقل ، ويأتون لما هو مستحيل وما لا يجوزه العقل » .

العبارات التي تتجاوز المدح إلى التملق والتي يوجهها إلى السلطان . ونحن على الرغم من معرفتنا بأن الرحلة كتبت بناء على توجيه السلطان وأن عبارات التملق شائعة في أقلام الشعراء والكتاب في تلك العصور وقبلها ، فلا يسعنا إلا الإبتسام حين نقرأ أن « الجنس الاصبنيولي على قلب رجل واحد ... وكله محبة سيدنا ، أيده الله ، قلباً وقالباً » ! .

وخلاصة القول أن هذا الرجل الذي خرج من القصور الشرقية وبثقافته العربية الإسلامية ، قد وجد نفسه فجأة في قلب الغرب ، وقد صدمته العادات والتقاليد الأوربية في اختلاط الجنسين وارتفاع الوقار في حلبات الرقص ؛ ولكنه مع ذلك ، حاول أن يتحكم في شعوره وعمل على نقل مشاهداته إلينا حية وبكل موضوعية ، مع تعليقات قصيرة تعبر عن دهشته واستغرابه .

والصورة العامة التي نخرج بها بعد قراءة وصف الغزال . هي صورة بلد ثري لا يزال ذهب أمريكا يمثل قاعدة لثروته ، بلد مليء بالقصور والدور الفخمة التي تزينها التحف الثمينة والآثار الفنية العظيمة وتحيط بها حدائق وبساتين مخططة بهندسة محكمة ، ويتقدم بخطى سريعة في طريق التقنية الحديثة ، ولا سيما ما يتصل من ذلك بصناعة الأسلحة والشئون البحرية .

اعادة التحقيق ودواعيه

يمكننا أن نستنتج من كثرة النسخ الموجودة في المكتبات العامة وفي أيدي الأفراد في المغرب الأقصى ، أن كتاب « نتيجة الإجتهاد في المهادنة والجهاد » قد عرف كثيراً من الشهرة والإنتشار في غضون القرنين اللذين مضيا منذ تأليفه ، وهذا شيء لا غرابة فيه . إذا اعتبرنا شخصية المؤلف وأسلوبه الأدبي وكون الكتاب وضع بناء على توجيه السلطان . وخصوصاً

بسبب موضوعه (تحرير الأسرى) الذي كان يشغل أذهان الناس كثيراً في المغرب وفي أوربا معاً .

ومن هنا ، فلا غرو أن تتجه إليه أنظار الباحثين منذ وقت مبكر فإن المستعرب ، جورجوس ، قد لفت الأنظار إلى نتيجة الإجتهاد منه سنة ١٨٦١ . بل إنه صنع أكثر من ذلك ، وترجم منه نحو صفحتين من المقدمة كما عرض الوصف الذي أورده الغزال في رحلته لمسجد قرطبة كما نقل النقوش الخطية التي جمعها المؤلف وذكرها بنصها العربي ، وكل ذلك في مقال في المجلة الأفريقية أشرنا إليه في تعليق سابق ، لا يتجاوز عشر صفحات .

وفي سنة ١٩١٨ ، نشر بودان (Bodin) ملخصاً للكتاب يقع في اربعين صفحة باللغة الفرنسية تحت عنوان : Une Rédemption des captifs musulmans en espagneau XVIIIe S. [١] .

على أن هذا الملخص يشكو من كثير من التشويه والتحريف وذلك إلى جانب الروح المسيحية الإستعمارية التي تسوده .

وفي سنة ١٩٤٩ ، قام شخص يدعى الفريد البستاني ، وهو مسيحي لبناني كان يعمل في تطوان حينما كانت المنطقة الخلفية خاضعة للإسبان ، بنشر هذا الكتاب .

وعلى الرغم من النسخ الكثيرة الموجودة في المكتبات المغربية وفي حوزة الأفراد في المغرب من هذا الكتاب ، فإن الناشر قد التجأ إلى نسخة المكتبة الوطنية بمدريد واعتمدها وحدها للنشر .

---

(١) راجع : Archieves Berbéres, Vol. 3, paris, 1918. p. 145 - 185 .

وما يذكره الناشر في الصفحة الأولى من النسخة المطبوعة من أنه « استخلصه من مخطوطات عدة » قد تثبتنا نحن من عدم صحته بعد مقارنة النص المطبوع بنسخة مدريد .

بل إن الناشر سيصحح نفسه بنفسه جزئياً في صفحة ١٥ حين يقول « استخرجنا نصوصه من عدة مخطوطات عثرنا عليها (لم يقل أين عثر عليها) غير أن أكثرها كان مشوهاً ممسوخاً . إذا استثنينا من هذا الحكم مخطوطة مكتبة مدريد الأهلية . فهي أسلم من التحريف والتصحيف وعليها كان جل اعتمادنا في النشر » [1] .

ونحن قد اطلعنا على ست نسخ من الكتاب في الخزانة العامة بالرباط كلها كاملة (فيما عدا واحدة) وسليمة . بل ان بعضها يتسم خطها بجمال فائق . وذلك بالإضافة إلى عدد آخر من النسخ المحفوظة في المكتبة الملكية وفي مكتبة جامع القرويين . وكلها في حالة سليمة وبعضها حديثة النسخ .

على أن الناشر يزيل كل ما قد يعلق في نفوسنا من الشك في أنه اطلع على نسخ أخرى غير نسخة مدريد . حين يقول في الصفحة الأخيرة من النص المطبوع :

« هكذا تنتهي مخطوطة مكتبة مدريد الأهلية » [2] . والسؤال الذي يطرح نفسه ، هو : لماذا لم يستعن الناشر بنسخ موجودة في المغرب ، أو لماذا لم يعمل لتحقيق نصه على نسخة مغربية . بدلاً من أن يلتجىء إلى نسخة مدريد المبتورة؟

---

(١) النص المطبوع ، تطوان ، ١٩٤١ (ص ١٥) .

(٢) النص المطبوع (ص ٩٥) .

نجد جواباً غير مباشر عن هذا السؤال في الصورة التي تملأ الصفحة كلها للجنرال فرنكو الذي أهدى إليه الكتاب أيضاً (وكأنه من تأليفه) باللغة الإسبانية — والعربية في عبارات من التبجيل والتقديس تبدأ بقوله : « أهدي هذه الذخيرة الأدبية التي تنجلي بين سطورها مظاهر عظمة أسلافك الكرام » . أسلاف الدكتاتور الذي كان مستعمراً للمغرب والذي قضى على الحرية في إسبانيا وحكمها بيد من حديد . نيفا وأربعين سنة .

ولكن هذه . على خطورتها فهي شكلية على كل حال . وأما النص نفسه . فقد مسخه الناشر بصورة مخزنة . فإلى جانب الأغلاط النحوية والصرفية التي اشتمل عليها النص المطبوع والتي هي غير موجودة في النسخة الخطية (وهو كثيراً ما يضع حركات على الكلمات غلطاً) نجد كلمات وأسطراً كاملة سقطت في النص المطبوع بل انّ الناشر كثيراً ما يهمل صفحات بأكملها (وبعض الصفحات المحذوفة ليست من النوع الذي يرضى مضمونها الجنرال فرنكو) .

ونحن قد أشرنا في الهامش إلى الأجزاء التي أهمل إيرادها الناشر استكمالاً للأمانة . ويمكننا أن نقدر مجموع المحذوف بسهولة . على الأقل . بنحو العشر .

وأما الكلمات والجمل التي وردت محرفة في المخطوطة : فقد اكتفى الناشر بإيرادها كما هي . ولم نلحظ في المقارنة التي أجريناها بين النسخة الخطية والنص المطبوع أية محاولة من الناشر للتصويب أو التصحيح .

بقي هناك سبب آخر من الأسباب التي حملتني على تحقيق نتيجة الإجتهاد ونشره من جديد . وهو أن النص المطبوع . لسوء الحظ أو لحسن الحظ . قد نفد حتى في سوق المكتبات التي تهتم بالكتب النادرة في المغرب الأقصى ، بحيث أني تكلفت كثيراً من العناء ودفعت مبلغاً

خيالياً من أجل الحصول على نسخة منه في فاس ، بعد أن فشلت جهودي في الدار البيضاء وفي الرباط . وهذه من الحالات القليلة التي يكون فيها النص المطبوع أندر من المخطوطات .

النسخ التي اعتمدتها للتحقيق

اعتمدت لتحقيق نتيجة الإجتهاد على ست نسخ مختلفة ولا تعتبر واحدة منها أصلاً . وهذه النسخ كلها سليمة وفي حالة جيدة ، وكلها بخط مغربي واضح إلا في حالات قليلة . وبعضها ممتازة الخط . وفيما يلي تفصيل الحديث عن كل نسخة مشارًا إليها بالحرف الرمزي الذي يحال إليها عند تصحيح النص . وهي مرتبة حسب قيمة كل منها . وذلك فيما عدا « ع » التي تقتضي قواعد التحقيق اعتبارها بمثابة الأصل على الرغم من تحفظي بشأن قيمتها :

ع ــ أعطيت لها هذا الحرف الرمزي لأنها آتية من المكتبة العبدلية التي أصبحت جزءاً من المكتبة الوطنية في تونس . وهذه النسخة التي تحمل رقم ١٦١٦٣ . عرفها المستشرق بروكلمان وذكرها في كتابه عن الآداب العربية (الذيل ٢ / ٧١٢) . والنسخة في حالة جيدة على الرغم من قدمها . وتقع في ٩٧ ورقة . في كل ورقة ٢٥ سطراً (سم ٢١ / ١٧) فيها كثير من السهو الذي يستدركه الناسخ ويضع الكلمات التي نسيها في النص على الهامش . وقد اعتبرتها بمثابة الأصل،الأصل على الرغم من شيوع الأغلاط فيها . لأنها أقدم النسخ التي أتيح لي الإطلاع عليها ، حيث أنه انتهى من نسخها في الثاني والعشرين من شهر رمضان . سنة ١٢٥٦ هجرية . وقد تم نسخها على يد حسن بن سليمان ، بتوجيه من أحمد باشا ، باي تونس وحبسها في خزائن كتبه .

أ ـ النسخة محفوظة في المكتبة الوطنية التونسية تحت رقم١٥٦٧ ، ضمن مجموعة

وتبدأ من الورقة ١٤٧ ، وتنتهي بنهاية الرحلة عند الورقة ٢١٧ . وفي الصفحة ٢٣ سطراً (سم ٢٧ / ٢١) وهي بخط مغربي جميل ، قليلة الأغلاط . وأفضل من جميع النواحي من « ع » . وقد تم نسخها على يد الحاج أحمد بن مسعود ، بتاريخ ٢٥ جمادي الأولى ، سنة ١٢٧٥ هجرية . وفي آخر هذه النسخة . كما في كثير من النسخ التي اعتمدتها أو اطلعت عليها نحو ١٤ بيتاً من الشعر قيلت في مدح الكتاب وصاحبه والنسخة تقع في أربعة كراريس مجلدة .

ب ـ تقع هذه النسخة المحفوظة في المكتبة الوطنية التونسية ضمن مجموعة رقم ١٧٣٨ تبدأ الرحلة من ورقة ١٤٧ وتنتهي بنهاية المجموعة عند الورقة ٢١٧ . وفي الصفحة ٢٢ سطراً (سم ٢١ / ١٧) . وهي مكتوبة بخط مغربي دقيق ، بقلم الحاج الباهي العنابي . والأغلاط فيها قليلة وعلى هامشها مكتوب بيد أوربية حديثة كلمات تعرّف صاحبها على المدن التي يذكرها الغزال ويورد مقابلها بالإسبانية .

ح ـ رمزنا لها بهذا الحرف لأنها من مكتبة المرحوم حسن حسني عبد الوهاب . وهي محفوظة في المكتبة الوطنية بتونس تحت رقم ١٦١٩ . وهي بخط مغربي حسن وتقع في ١٧٨ صفحة . وفي كل صفحة ٢٣ سطراً (سم ٢١ / ١٦) . وهي أقل أغلاطاً من « ع » .

ج ـ نسخة غير كاملة تحمل رقم ١٩٥٢ في ملحق فانيان لقائمة المخطوطات المحفوظة في المكتبة الوطنية بالجزائر . تقع في ٩٤ ورقة . وفي الصفحة ١٦ سطر (مم ٢٨٧ / ١٩٧) . وتكملها النسخة رقم ١٩٥٣ من نفس القائمة ، وهي بقلم نفس الناسخ وتقع في ١٠٨ ورقة ، وفي الورقة ١٦ سطراً (مم ٢٨٧ / ١٩٧) .

م ـ نسخة المكتبة الوطنية بمدريد . تحمل في القائمة رقم ٥١١٦ وتحتوي

على ٢٠٥ ورقة ، وفي الورقة ١٤ سطراً (سم ١٨ / ١٣) . وهي مكتوبة بخط مغربي ، وأصلها من وهران . ولا تحمل تاريخ النسخ ولم يذكر فيها إسم الناسخ ، ولو أن الأخير ذكر في ختامها أنه نسخها للسيد مصطفى بن الباي . وهذه النسخة هي التي اعتمدها صاحب النص المطبوع .

هذا وفي الخزانة العامة بالرباط كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، ست نسخ ، واحدة منها غير كاملة ، وأما الخمس الأخر فتحمل الأرقام التالية :

D 981 (١١٣ ورقة)

D 1297 (١٢٦ ورقة)

D 691 (١٣٢ ورقة)

D 1316 (ضمن مجموعة من الورقة ٧٢ إلى الورقة ٩٥٩)

D 107 (٢٣٨ صفحة)

وقد قدمت طلباً للسماح لي بتصوير هذه النسخ أثناء إقامتي في الرباط في سنة ١٩٧٥ ، ولكنني لم أنجح في الحصول على الترخيص . ولما عدت إلى الجزائر ، قدمت طلباً آخر عن طريق المكتبة الوطنية بالجزائر . ولكن هذا الطلب لم يكن مصيره أحسن من الأول .

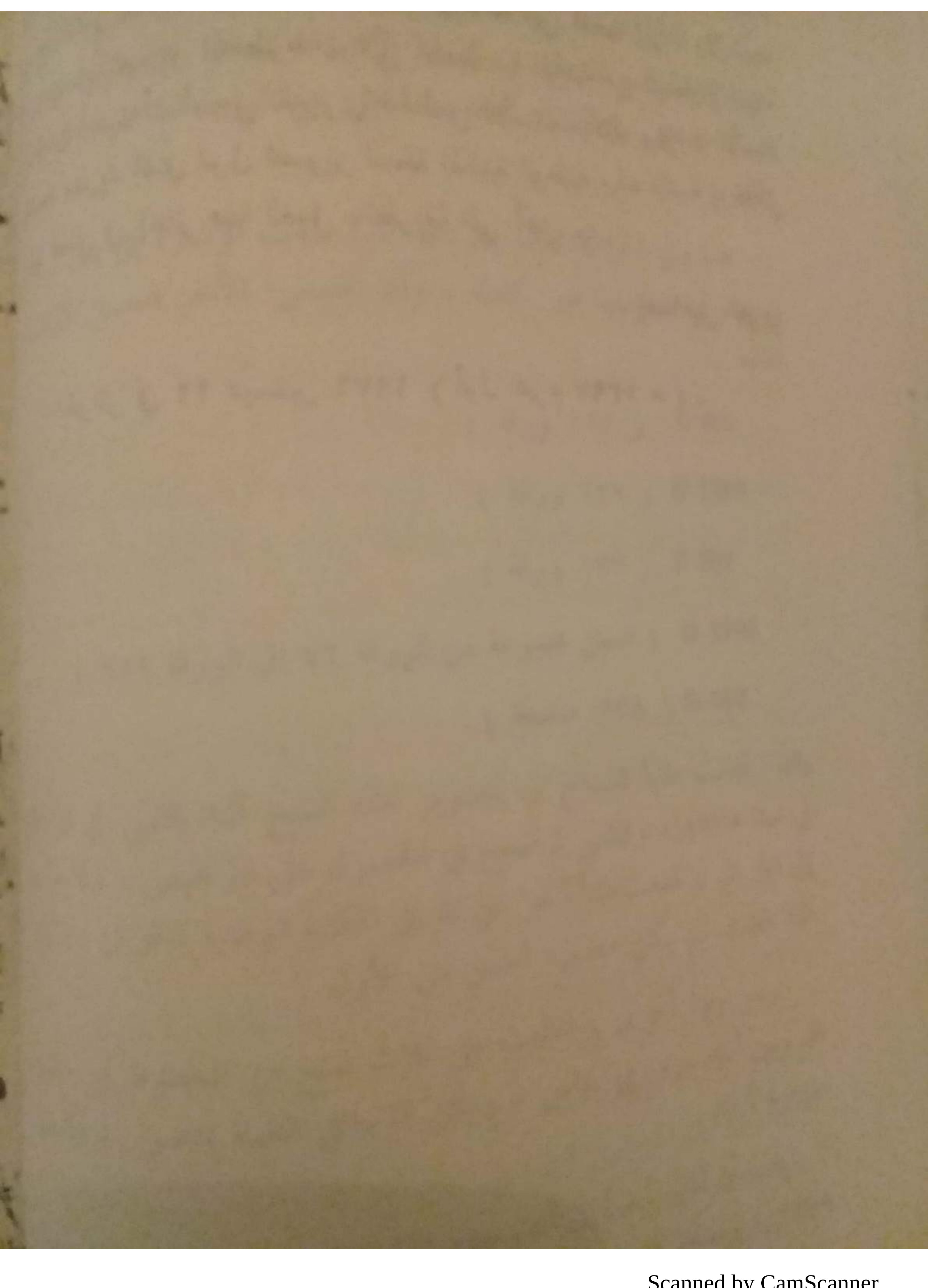
ومن جهة أخرى ، اطلعت على ثلاث نسخ من المخطوط في مكتبة القرويين أثناء مروري بفاس . ولكن الوسائل التقنية للتصوير لم تكن متوفرة آنئذ .

ويجب أن أشير أيضاً إلى أنه توجد في المكتبة الوطنية بباريس نسخة تحمل رقم ٢٢٧٩ ، ونسخة أخرى في مكتبة المتحف البريطاني تحمل رقم ٣٨٧ .

وفي ختام هذه الفقرة . أود أن أسجل شكري العميق للأستاذ محمود بو عياد مدير المكتبة الوطنية بالجزائر للتسهيلات التي قدمها إلي ، ولا سيما فيما يتصل بتصوير المخطوطات التي تحتفظ بها المكتبة من نتيجة الإجتهاد وكذلك أحب أن أسجل تقديري الخالص للأستاذ ميكال يبلزا ، الأستاذ بجامعة مدريد الذي تولى تصوير نسخة المكتبة الوطنية بهذه المدينة ، فلكل منهما فضل في إنجاز هذا العمل بالطريقة التي أنجز بها .

إسماعيل العربي

الجزائر في ٢٢ ديسمبر ١٩٧٦ (أول محرم ١٣٩٧ هـ) .

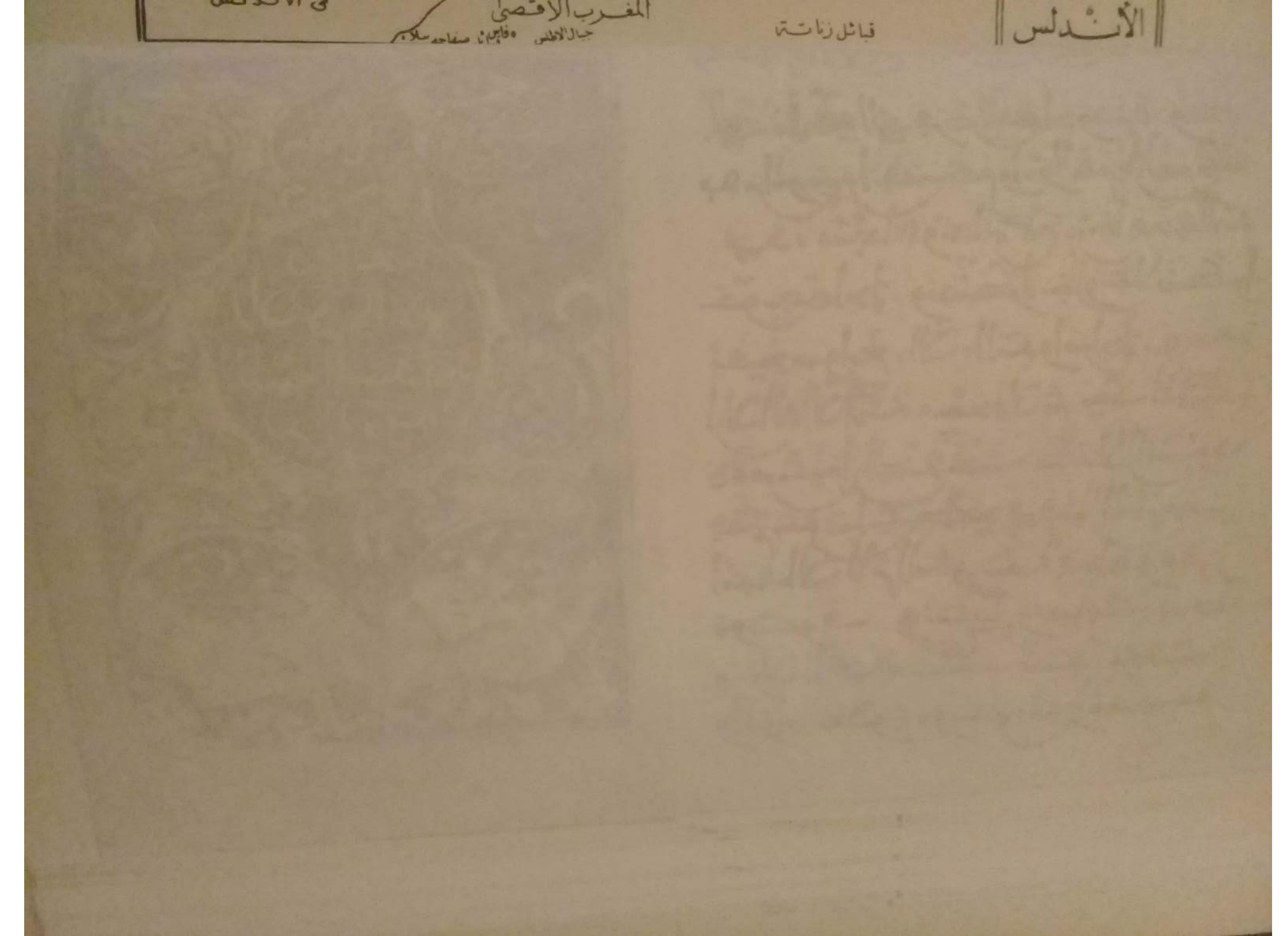


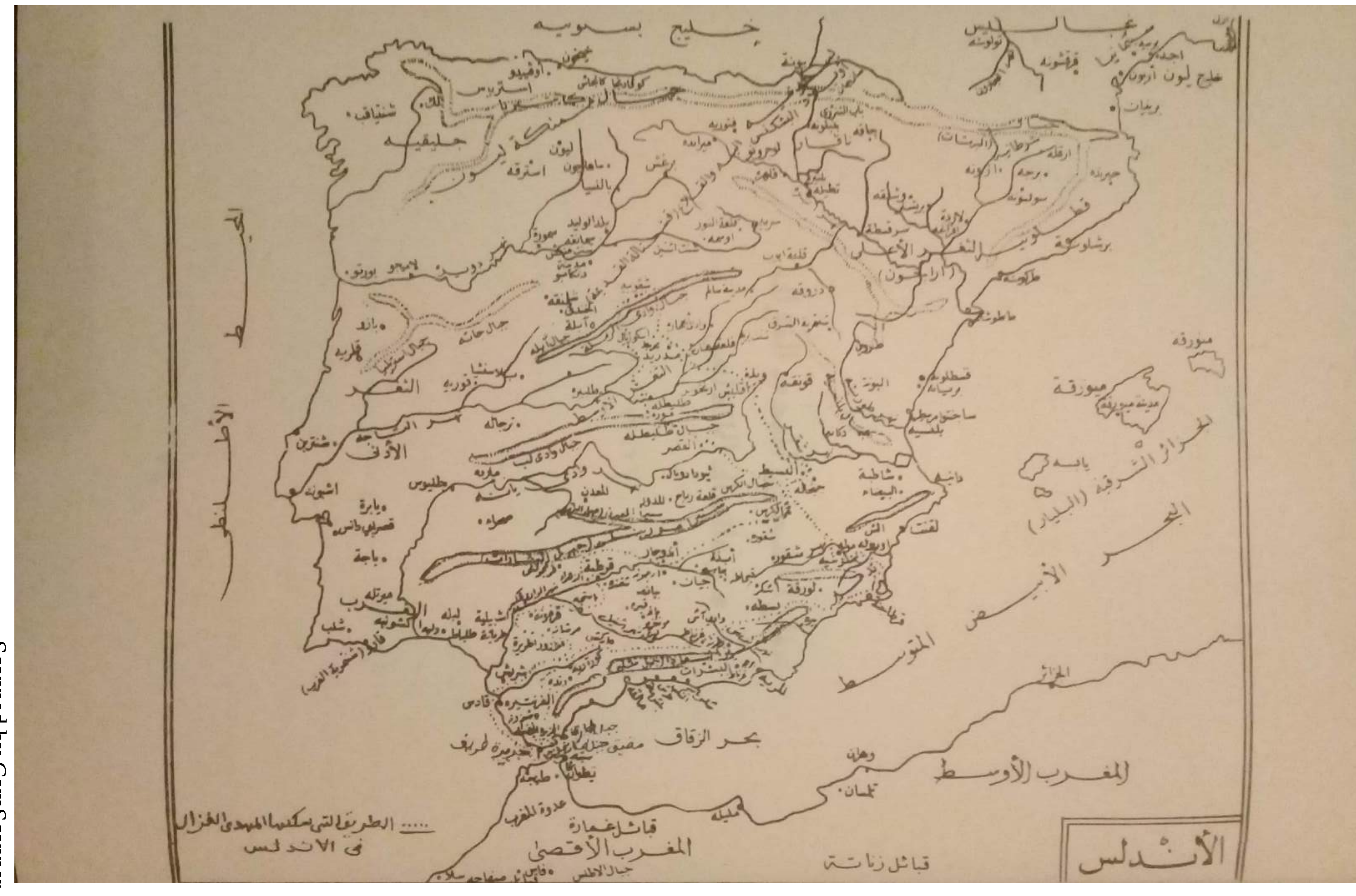


بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه و

الحمد لله الذي فرض الجهاد وسنه. واشترى
به من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة
منه سبحانه وتعالى حكمة من بها هدى الله
حق جهاده. ونشكره جل وعلا شكرا
يفيد سوابغ الآلاء السنية وامداده. ونشهد
أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة
من علم أن الجنة تحت ظلال السيوف
فشمر عن ساعد الجد في قتال المشركين
امتثالا لأمر الله ورغبة فيما هو مفروض
موصوف. ونصلي ونسلم على سيدنا
ومولانا محمد صاحب السيف والقضيب
واللواء المعقود. وعلى آله وأصحابه

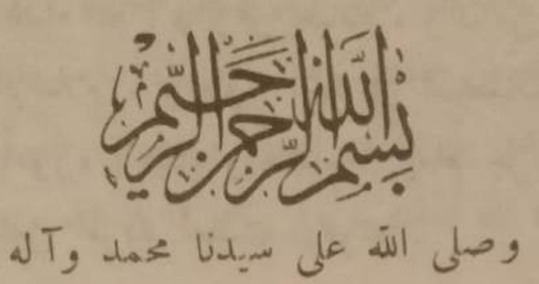

الأندلس
قبائل زناتة
المغرب الأقصى



الأندلس
خليج بسويه
البحر المحيط الأطلنطي
البحر الأبيض المتوسط
الجزائر الشرقية (البليار)
ميورقة
منورقة
يابسة
بحر الزقاق
المغرب الأوسط
المغرب الأقصى
قبائل غمارة
قبائل زناتة
جليقية
الثغر الأعلى
الثغر الأوسط
قرطبة
أشبونة
شنترين
قادس
طليطلة
جبال الأطلس
تلمسان
وهران
عدوة المغرب
سرقسطة
برشلونة
طركونة
دانية
طنجة
...... الطريق التي سلكها المهدي الغزال في الأندلس

سفارة احمد بن المهدي الغزال وزيارته الى الاندلس

١١٧٩ - ١١٨٠ هـ . (١٧٦٦ - ١٧٦٧ م .)



وصلى الله على سيدنا محمد وآله

نتيجة الإجتهاد في المهادنة والجهاد لمؤلفها ، أديب الدولة الهاشمية وكاتب أوامرها المطاعة المحمية ، الفقيه السيد أبي العباس أحمد بن المهدي الغزّال ، الفاسي الدار ، الأندلسي النسبة الحميري النجار ، رحمه الله .

الحمد لله الذي فرض الجهاد وسنّه واشترى به من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، نحمده سبحانه وتعالى حمد من جاهد في الله حق جهاده ، ونشكره جلّ وعلى شكراً يقيد سوابغ آلاء الله وامداده [1] ونشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة من علم أن الجنة تحت ظلال السيوف ، فشمر عن ساعد الجد في قتال المشركين ، امتثالا لأمر الله ورغبة فيما هو مقرر موصوف ونصلي ونسلم على سيدنا محمد ، صاحب السيف والقضيب واللواء المعقود ، وعلى آله وأصحابه الباذلين نفوسهم في نصرة الدين وإقامة الحدود .

(١) « في » م . و « ع » مراده .

أما بعد ، فإن روح الجهاد ونفسه ، ومعناه المعتبر وحسه وجود الخلفاء والأئمة للقيام بشئونه وما يتعلق بأموره المهمة ، مع ما يجب عليهم من الإهتمام بمباشرة الأمة ، فيتأملون أموره بذهن ثاقب ، ويستعملون الفكر فيما يعود بالنفع [1] على المؤمنين في الحال والعواقب ، يتعرضون لنفحات الله بجهاد أعداء الله ، والرفق بعباده ، وأن من اختص بهذه المنفعة العظيمة من ملوك الإسلام ، وجاوز الحد في استعمال البعض والكل في الجهاد وما يتعلق بأموره باعتناء واهتمام : إمام جزعت مدن الكفر لسطوته وفزعت سفن المردة لعظمته وقوته .

فهو الامام الذي تزينت بأوصافه الحميدة من المؤلفات والفصول والتراجم ، وشهاب مناقبه الجايلة لمن يسترق من بعض البعض منها ثاقب وراجم . فاستقل بالفضل والعظمة ، واستطال بحلمه وعلمه على ملوك العرب والأعاجم :

مولانا المنصور بالله المجاهد في سبيل الله ، أبو عبدالله ، السلطان الأعظم ، مولانا محمد بن مولانا عبدالله ، خلد الله نصره ، وأعز أمره وأبر مجده وفخره ، وأدام في المعالي ذكره ، لم يزل ، نصره الله مستغرقاً أوقاته في طاعة مولاه ، مستعيناً بالله على ما خوله وأولاه من النظر في أمور عباد الله ، والسعي في جهاد أعداء الله ، فكان رحيماً بالمؤمنين رؤوفاً باراً بالضعفاء والمساكين ، فظاً غليظاً على أعداء الله الكافرين جد ، أيده الله ، في تهيىء المواكب للجهاد ، واجتهد وشحنها بالعدد والعدد ، وخص عساكره المؤيدة بالله على حضور النية على القتال لتكون كلمة الله هي العليا ، لا لأجل أن ينال ويقال ، ولا شك أن الذكرى من الموفق نافعة ، والموعظة من منور السريرة في القلوب واقعة ، فشمروا

---

(١) في « ع » و « ب » بالمنقبة .

عن ساعد الجد بالأمر المطاع ، وجاهدوا في سبيل الله واجتهدوا وعلى ما وعد الله به من النصر اعتمدوا ، فصدقهم الله وعده ، ونصر حزبه وعبده ، وقد ضيقوا بالعدو الكافر ، البر والبحر ، حتى صاروا قذىً في عيون المشركين ، وشجىً لهم في النحر ، وحصل منهم العدد الكثير في الأشراك وغنموا بعد أن كاد يستوعبهم الملاك ، ولم يجدو بداً من طلب المهادنة ، عن خضوع وإذعان ، ومذلة واستصغار وهوان ، وجعل العدو يتردد في المسألة ويلح في طلب المسالمة [1] فلم ينصت سيدنا ، أيده الله لذلك ، ولم يبال بما هنالك ، وحتم على منعهم لما طلبوا بقوله :

« فرض علينا الجهاد بالكتاب والسنة ، وقرر أحكامه الشارع ، صلى الله عليه وسلم وسنه ، فإنا لا نؤمن أعداء الله ولا نسلمهم إلا إذا قالوا لا إله إلا الله . فإن لم يقولوها يقاتلوا قتالاً ذريعاً ، بنص الكتاب المكنون ، أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » ، فعارضته في ذلك أمور ، أيده الله ، اقتضتها المصلحة الإسلامية في الحال ، وأكدتها المنفعة العامة في المثال . فلم يسعه ، أدامه الله ، بعد أن تأمل وتدبر ، إلا الإجابة للمهادنة بما هو في نفوسهم أدهى وأمرّ من تحملهم الشروط ، الشاذة المثبتة للكافر مذلته وخزيه ، ولا شك أنها تقوم فيهم مقام الجزية فأذعنوا لما أمروا به وتحملوه وارتضوه لأنفسهم وقبلوه ، وانعقدت المعاهدة بين عدة من الأجناس على أحكم قواعد وأوثق أساس . الكل على الوجه الشرعي ، والحكم المرعي ، مما يعود نفعه على الإسلام وينتج المصلحة التامة في العاجل والآجل ، والخاص والعام ، أعظمها فكاك الأسارى من المسلمين وإنقاذهم من العذاب ، وجلب ما يستعان به على الجهاد ،

---

(١) يختلف رسم الكلمة في جميع النسخ بين : المسألة والمسئلة والمسلة . وهذا التصحيح يقتضيه السياق .

من بارود ومدافع وآلة السفن من بلادهم . ولا خفاء أن في ذلك قهراً لهم وفيه مذلة لهم وإغلاب ؛ إلا الجنس الفرنصيص ، فقد طلب المهادنة فسنع وطرد . وسعى جهده في التقرب فخيب وأبعد، وتتابعت على جنسه مهانة السبي والأسر ، وخفقت على المجاهدين في أخذه ألوية الفتح والنصر . وحيث حصل على اليأس مما طلب . وتحقق من الهلاك والعطب هيأ عدة مراكب على الخذلان مقصورة ، وقصد بها الثغور الإسلامية المؤيدة المنصورة . رمى بمرسى سلا من الأنفاط [1] والبونبه [2] ما ظن أن يحصل به على طائل ، فأجيب بضعف ذلك ، فلم يلبث إلا وأجفانه هاربة تقفو أواخرها الأوائل . وفر هارباً مهزوماً ساقط الألوية . مذلولاً مذموماً . فعالج ما انصدع من أجفانه وأعاد الكرة يطلب حتفه بيده ويسعى في مذلته وهوانه . ووثب على مرسى ثغر العرايش ، إذ علم بوجهة الكل من عسكره لقبض الزكاة والأعشار ، ولم يدر أن في القليل ما وعد الله تعالى به عباده من النصر الوافر والإكثار ، واقتحمها بالنبب والمدافع ، وشحن القوارب العديدة بالشلظاظ [3] والفسيان [4] مما يزيد على الثمانمائة . ظناً أن ليس لهم بها مقابل ولا مدافع ، وعبر المرسى بقواربه المشحونة بعساكره قاصداً حرق مركب كان أخذ لهم قبلُ داخل الوادي . فخلّى المسلمون سبيلهم حيلة . حتى توغلوا في الموضع الذي لا يمكنهم الخروج منه . وركب لقطعهم من حضر من الحواضر والبوادي وقطعوهم قطعة لا يسعهم منها فراراً ولم يقبل المسلمون منهم إلاّ ولا ذمة في ورد ولا إصدار، واستعملوا فيهم السيف فقتل وغرق وأسر منهم عدد

---

(١) نوع من قدر ضخم من النحاس يغلى فيها النفط ويرمى على الأعداء .

(٢) قنبلة ، ج قنابل .

(٣) إستعمل الكلمة الإسبانية Soldados ، أي الجنود .

(٤) إستعمل الكلمة الإسبانية Oficiales ، أي الضباط .

كبير ، فهم بين غريق وقتيل وأسير ، وبقيت بيد المسلمين من أجفانهم عدة مشحونة بالأنفاط والعدة ووقعت فيهم غزوة شهرتها كافية عن التصريح بها ،وأخبارها في برّ العجم والعرب غنية عن تصنيفها .وقد كساهم الله ثوب المذلة والهوان وملأ قلوبهم رعباً ، وعمهم الجذع والخذلان ، وضاقت عليهم نفوسهم الخبيثة ، حتى صار الكل منهم يبث أخبار أخذه في الأجناس ويشرح حديثه ، فيشتمون بهم ويهزءون ، ويتهكمون عليهم ولا بحديثهم يعبئون ، فلم يسعهم إلا الإذعان وطلب الأمن والأمان ، بحيث تؤمن مراكبهم مدة سنة ،ليبلغ الكل منهم في المدة المذكورة . مأمنه وتحملوا أشياء هي على غلبهم أقوى دليل ، شاهدة على ما هم فيه من الهوان والمذلة والوبال والعويل ، فأجابهم لما طلبوه عن محض الفضل ، مولانا المؤيد المنصور ، فأمنوا بأمانه للأجل المذكور .

وشرع سيدنا ، أيده الله في عمارة الثغور وتشييد ما هدّه منها تتابع الأزمنة والدهور وحصنها بالعدد الكبير من المدافع والعَدد والعُدد حتى صارت ممنوعة من العدو ومحفوظة من عين حاسد إذا حسد .

ومن بركة مولانا الإمام وفضله وعظمته وعدله إلقاء الجزع من سفنه في قلوب المشركين وبقاء الجزع من قراصينه الجهادية في أحشاء أعداء الله الكافرين يحذر منها بعضهم بعضاً ويتنكبونها في البحر وطرقه طولاً وعرضاً . على أن سفن سيدنا الجهادية مقصور جهادها على شهرين في السنة ، لاتصال المراسي بالأودية بصفة يتعذر الخروج منها قبل فتح الطمس بالأزمنة الشتوية . فهناك تقرصن وتعود لمرساها إلى القابل ، وقد استعمل الحكماء وأهل الهندسة جهدهم في تنظيف المراسي من الرمل المانع لخروج المراكب ، فلم يحصلوا على طائل، وصار العدو الكافر يترك البحر في الشهرين المعلومين ويسافر بقية السنة لينال في ذهابه وإيابه ما منه .

ومراد سيدنا بالجهاد والتضييق بالعدو ومحاربته بالعشي والغدو بحيث لا يجد فسحة في الأمان على نفسه ، ولا يسعه إلا الإيمان أو الحلول في رمسه

فجعل . أعزه الله ، يستعمل الفكر ويمعن النظر فيما يوصله لهذا الأمر المعتبر ، إلى أن أداه اجتهاده وأعانه إمداده لما فيه مراده ، أرشدته بصيرته المنورة ، وأفادته سعادته السابقة قبل أن خلقه الله وصوره لتشييد ثغر زاد في الإسلام وحمى به إقليم رعيته . من خلف وأمام . أسسه ، أعزه الله بإزاء مرسى الصويرة التي لم يكن مثلها فيما سبق ، ولا أبصر نظيرها في بر العجم والعرب . حدق ، لها بابان شرقية وغربية ، تسافر منها القراصين متى شاءت من غير أن تفتقر لطيب هواء ولا لهدية . وحصّن [1] أيده الله الجزيرتين الدائرتين بالمرسى كبرى وصغرى ، بالعدد الكثير من المدافع وشيد برجاً على صخرة داخل البحر إحكامه لصنوف الهندسة جامع فالقاصد للمرسى لا يدخلها إلا تحت رمي المدافع . من البروج والجزيرة فإذا جاوز المدافع وحصل المرسى لا يمكنه الخروج منها إلا بدليل له بها معرفة وبصيرة ، فهي محصنة محفوظة ، وبعين الرعاية ملحوظة .

وقد شاع خبرها في سائر الآفاق ، وأجمع الكل على تفضيلها وتقديمها على ما سواها بالإستحقاق ، وبإبداعها ، وإنشائها تتابع الجهاد وتوالى ، وفتحت أبوابه بإذن من الله تعالى . فلله الحمد الأعظم ، على ما تفضل به وأنعم وقد بنى بهذا الثغر المبارك العدد الكبير من التجار دورها حتى ضاق عليهم ، مع وسعه ، وأسقط سيدنا ، أيده الله ، على من يتردد إليه ، أو يأويه بقصد التجارة ، ما رتبت السياسة (و) ما يجب عليه من الوظيف في فرده وجمعه ، فانقادت إليه التجارة من جميع الأجناس حيث تحقق لكل منهم بالحصول على ربحه ونفعه ، فهو في غاية العمارة ضامن لموافيه بالبركة والربح والتجارة .

ولما ثبت لدى أجناس الروم والهند ، فما دونه ، أن المراد بهذا الثغر السعيد ، التضييق بالكفرة وغزو القريب منهم والبعيد وقع في نفس

---

(١) كذا في « م » . وفي بقية النسخ : شحن .

طاغية الإسبنيول من ذلك ما وقع حيث رأى ما آل إليهأمر الافرنصيص الذي تكسر وانصدع ، ولم يزل يطالب المهادنة على بعد بلاده ، ووفور أجناده ، ومع ذلك لم يجد شيئاً ، وقد صار للمسلمين غنيمة وفيئاً ففكر وقال : لا مرية إننا أولى بمصالحة المسلمين من الغير ، والمهادنة بيننا وبينهم ضامنة لكل خير ، فأسر ذلك في نفسه ، وجعل يفكر في يومه وأمسه ، كيف يقرع الباب ، وهل إذا خطب يجاب . وقد ضاق من ذلك صدراً وبقي يقدم رجلاً في إعلام قومه . بذلك ويؤخر أخرى .

ومكث يفكر في أمره ، حافظاً لسره ، فاتفق له أن وردت عدة كتب من أسارى المسلمين ، منها ما هو لطاق العامة ، ومنها لبعض الطلبة وعلماء الدين ، الكل من البلاد الإصبنيولية ، وأصله للحضرة العلية فقرئت على مسامع سيدنا الشريفة ، وتمكنت ضراعتهم من سيادة سيدنا الجليلة المنيفة .

فلم يلبث أعزه الله ، إلا وقد أمر لهم بصلة حسنة ، حسبما هي عادته الجميلة معهم في كل سنة ، وكتب في الحال إلى طاغية الصبنيول :

« أما بعد ، فأقول إننا في ديننا لا يسعنا إهمال الأسارى وإبقاؤهم في قيد الأسر ، ولا حجة للتغافل عنهم ممن ولاه الله تعالى التصرف والأمن وفيما نظن ، أن دينكم لا يسوغ لكم ترك أسراكم في الأسر ، مع الإمكان والإستطاعة ، ويوجد ما يفتدون به من أسارى المسلمين واتساع البضاعة ، فما للتغافل من الجهتين وجه والحرب سجال في المبادرة (1) والنزال . ولا مسألة أعظم من هذا تعتبر . هذا كله من إغفالكم عن البحث في أسارى المسلمين ، حتى يتبين لكم العالم بعلمه ، والجاهل بجهله ، ثم تجعلون لأهل العلم حرمة ومكانة وعزة وصيانة ، بحيث تجعل لهم علامة يتميزون بها عن الغير ، حتى لا يقع أحد فيهم بشتم ولا بهضم

(1) كذا في جميع النسخ . وفي « م » . المبارزة .

حرمة في مقامهم ، والسير مثلما نفعل نحن بأسراكم من القرسطلة (١)
إن قدّر الله بأسرهم ، لا نكلفهم بخدمة . ولا نخفر لهم ذمة . فعلى ما لا
تحترمون الرؤساء من الأسرى ولا تعبئون بحامل كتاب الله على أنه أفضل
منهم بدرجات عندالله . ونطلق أسراكم لا نحملهم ما لا يطيقون . ولا
نلزمهم ما عليه لا يقدرون . نترك مريضهم لمرضه . ونسمع ضراعتهم
وننصت لما يقولون . فتأمل في ذلك بنفسك . واعمل بمقتضاه وأمر به
أبناء جنسك » .

فلما وصله الكتاب ، واستوعب ما تضمنه من الخطاب . تيقن أن ما
أُملي عليه وأمر به حق وصواب . فلم يمكنه . بعد أن تأمل وأمعن إلا
أن امتثل وأذعن ،وبعث للحضرة العلية من حضر لديه من أسارى المسلمين
على الفور ، ونادى في قومه بالبحث عمن بقي من أسارى الإيالة المولوية
في المدن والقرى والنجد والغور ، وأجاب بما فيه تلطف واستعطاف .
وإقرار بتقصيره في شأن الأسارى واعتراف . وطلب الدخول في حرمة
سيدنا ، أيده الله ، مثل من تقدم من الأجناس .وألزم نفسه الطاعة بالخدمة
في الحركة والانفاس وبث ذلك في قومه ، وقرر لهم ما لم يصلوا إلى فهمه
فأنسوا بذلك وانشرحت له صدورهم ، وقد اشتاقوا لها بعد الصلح قبل
أن يتم فيه أمر أميرهم ، وصار يحدث عن أمر المهادنة بعضهم بعضاً إلى
أن شاع ذلك بالبلاد الاصبنيولية طولاً وعرضاً .

ولما وصل الاسارى للحضرة العلية بالله ، وبأيديهم كتاب الطاغية
مضمنة أنه على الخدمة والطاعة لما يأمر به مولانا المنصور بالله . وأن من
حضر لديه من أسارى المسلمين يبعث به في الحال ، ويستلحق بهم من بقي

---

(١) يستعمل الكلمة الإسبانية Frailes ، رجال الدين .

من إخوانهم من غير إمهال ، وأن محبته ثابتة على أوثق أساس ، وأنه أحق بالخدمة عمن تقدمه من الأجناس ، فأجابه سيدنا ، أيده الله جواباً مقدراً عن سؤال ، دافعاً للهواجس النفسية في الحال :

« أما ما تقتضيه المروءة والهمة والرؤية العلية ، فهو مقابلة الخير بمثله ، وإن كان وقوعه ليس هو من أهله. وهذا طاغية الاصبنيول ذكرناه بشأن الأسرى ، فتذكر ، ووعظناه فاتعظ واستبصر ، وظهرت منه علامات الإيجاب لهذا الأمر المعتبر ، وفعل أمراً غير معهود من جنسه ، من الإخلاص في الخدمة بقلبه وقالبه في معناه وحسه ، وقد وجب تأثيره [1] على من تقدمه من الأجناس المصالحين ، وتأكد تمييزه عن جميعهم بمباشرة جائزة غير ممنوعة في الدين » .

فأمر ، أعزه الله بسراح جميع الأسارى من جنس الاصبنيول في الحين ، وقدم للطاغية إثنين من الفريالية كانا في قيد الإسر منذ سنين وبعث له بعدّة من الأسود مواصلة نشأت عن محض الكرم والجود وأصحبهم كتابه الشريف معرفاً بتسريح أسراهم أتم تعريف ، وأمر ببعث المراكب لحمل أسراهم إليه صحبة من يعينه للإتيان بهم وإبلاغهم لديه .

ووعده ، أعزه الله ، بسراح جنس من غير جنسه ، لتكون له بذلك مزية بين الأجناس في يومه وأمسه ، وقصده بذلك ، أيده الله ، إظهار المنة على الطاغية ، والتنبيه على أن المسلم عنده ، أعزه الله ، واحد في ذاته ونفسه ، سواء كان من أيالته المباركة ، أو من أيالة الغير إذ المساواة بين المسلمين في ديننا واجبة ، ومراعاتهم أكيدة ، في دفع الشر عنهم ، بحسب الإمكان ، وجلب ما فيه منفعة لهم وخير ، وقد اكتفى أدامه الله بالإشارة للطاغية عن التصريح ، على أن الإشارة هنا في غاية التوضيح ،

---

(١) إيثاره .

وبعث بالنرايلية والاسود والكتاب للطاغية على يد حاكم سبتة ، أعادها الله إلى دار الإسلام . وكان الطاغية وقومه في غاية التشوق لما يرد من جواب مولانا الإمام ، فكان ورود الجواب من سيدنا على الطاغية أعظم عيد سر به من جنسه القريب والبعيد ، وثبت قول سيدنا أعزه الله عليهم بالمهادنة عن محض الفضل والكرم ، واتصل بهم ما وعد به سيدنا ، أعزه الله، من تسريح جنس غير جنسه ، إذ ولده المولى عليهم من قبله والحاكم . فعظمت عليهم منة سيدنا العظيمة ، وملكت رقابهم إجابته ، نصره الله للمهادنة الناشئة عن مواهبه الجليلة الجسيمة ، فشمر الطاغية عن ساعد الجد وهيأ هدية بلغ فيها غاية الجهد ، وعين لحملها كبير النرايلية [1] وأحد القسيان وأصحبهم كتابه — طالباً قبول هديته والإعتراف بما تفضل به سيدنا عن جود وامتنان ووردت مراكبهم لحمل أساراهم ، فركبوها وحملوا معهم الفرقة الموعود بسراحها ، فاستصحبوها .

ومن جملة ما طلب من سيدنا المنصور بالله أن يتفضل عليه ببعث أحد خدام حضرته العلية ليطأ بالنعل أرضه ويستوعب من إقليمه جله وبعضه، لأن وفود البعض من خدام سيدنا على بلاده ، ومرورهم بالمدن والقرى والفلوات بين رعيته وأجناده ، يعلم منه ويتحقق قبول سيدنا على هذا الجنس ، ولم يبق لأحد في المهادنة شك ولا لبس ، فطرق سيدنا المنصور بالله لحيظة وقال :

---

(١) ترأس هذه البعثة الأب برتولومي خيرون (Bartolomé Giron) التي وجهها كارلوس الثالث إلى المغرب سعياً لعقد معاهدة صلح ولإطلاق سراح الأسرى الذين يحتفظ بهم الطرفان . وقد استقبلها السلطان عبدالله في ٢ فبراير ١٧٦٦ . وقد رد سلطان المغرب على هذا المسعى بسفارة وضع على رأسها المؤلف أحمد الغزال ، وأبحرت من طنجة إلى سبتة . التي وصلتها في ٢٥ مايو ١٧٦٦ م (منتصف ذي الحجة ١١٧٩ هـ) . ومن هناك تابعت سيرها إلى اسبانيا . وقد استمرت رحلة الغزال حتى ١٦ من شهر أغسطس ١٧٦٦ م) (١٠ ربيع الأول سنة ١١٨٠ هـ) حين عادت إلى المغرب بعد ما قابلت كارلوس الثالث .

« إن ما طلبه الطاغية من بعث أحد خدامنا لبلاده هومنا على بال غير أن القصد منا مخالف لما قصد ، مباين لما ارتقب ورصد ، وإنما اهتمامنا بذلك أوجبته الرحمة والشفقة بأسارى المسلمين وأكدته الشفقة على من هنالك من عباد الله المؤمنين ، وفيه تصريح لما أشرنا به للطاغية من أن المسلم عندنا واحد ، سواء كان من أيالتنا ، أو من إيالة الأباعد ، وأن يتفقد من عينه لذلك أحوال الأسارى ويختبر أمورهم ويستوعب حديثهم وأخبارهم ويواصلهم بما أنعمنا به عليهم ويؤنس وحشتهم بالنظر إليهم والحلول لديهم وأن يذكر جميعهم ويعظ جليلهم ووضيعهم ويلقنهم أن الحياة مطية الممات ، والحياة الحقيقية هي من بعد الفوات ، ولا نعمة بعد الإسلام وإنما الحياة أضغاث أحلام ! حتى يستيقظوا من سنة الغفلات ويتداركوا بموعظته إياهم ما مضى بما هو آت من المواظبة على ذكر الله تعالى وأداء الصلوات وأن يحسنوا ظنهم بالله ولا ييأسوا من روح الله ، فإن انتظار الفرج عبادة والرضا بقضاء الله يعقبه العفو والحصول على الحسنى والزيادة وأن يحصي كل واحد بإسمه ولقبه وإسم رئيسه ومركبه ، ويميز من هو حامل لكتاب الله من غيره ، وينزل كل واحد على قدر قدره ، ويواعد الأسارى منا بخير ، وإننا ، إن شاء الله ، لا نتركهم في ضيق ولا ندعهم في ضنك ولا خير . والأشياء موقوفة إلى أجلها ، ولكل أجل كتاب ويحضهم على الصبر ، فإنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » .

فأجاب ، أيده الله ، الطاغية لما طلب ، وبلغه من قصده الأمل والارب ، وعين لمواصلته عدة من الإبل والعتاق من الخيل ، حيث حدث سفراؤه بماله في ذلك من المحبة والميل ، وقدم لهذا الأمر المعتبر والغرض المحتم بالعقل والنظر ، أحد كتابه ، وخديم اعتابه ، وملازم أبوابه ، والمحافظ على أوامره في ذهابه وإيابه ، راوية هذه الأخبار المرسومة ومقيدها على الأمر المولوي ، غير معتبر ما يتعلق بها من

الأمور المقررة المعلومة: غزّال أمداحه والمضاهي لنجباء مداحه لخلوص محبته وصدقة في خدمته .

ولما حان وقت التشييع ووصل إبان التوديع ، لقنه ، أيده الله ، ما يكون عمله فيما وجه إليه وأمره بفعله وحضه عليه ، منه ما تقدم ذكره من حديث الأسارى ، حرفاً حرفاً ، وتقريره لديهم لفظاً ومعنى ، نعتاً ووصفاً ، ومنه ما هو مناسب للملاقاة بالطاغية ومخاطبته بما يسوغ شرعاً وتقتضيه الطريقة الإسلامية قولاً وفعلاً ، جلباً ودفعاً . والإعتناء بأمور الأسارى ، هو المقدم والأكيد والأنفع ،وما عداه ، إنما هو بحسب التبع .

وقد أمر نصره الله بإحضار سفراء الطاغية ، وسألهم : هل بقي لطاغيتهم من مطلبه باقية ؟ فأجابوا بأن سيدنا ، أيده الله ، وفاهم بأكثر مما طلبوه ، ، وامتن عليهم بما لم يقدروا على إداء بعض البعض منه أو يقربوه ، ودفع لهم من غير جنسهم من الأسارى الضاعنين في السن عدة ، وأمرهم ، أيده الله ، بالرفق بهم في طريقهم إلى أن يصلوا لطاغيتهم ويثبت أمرهم عنده ، وأن سيدنا ، أبقاه الله ، سرحهم مراعاة لهرمهم وعدم الإنتفاع بهم ، ولا فائدة في بقائهم في قيد الأسر بعد التعطيل إلا مجرد عذابهم . ومن الواجب أن يسرح من أسارى المسلمين من بلغ مبلغهم في الهرم والكبر ولم تبق فيه فائدة تعتبر ، والمجازاة منه والمكافأة ، الرفق بأسارى المسلمين ، وأن يراعيهم أتم المراعاة ، وبعث بالجميع ، أيده الله ، مع خديمه المذكور وأمره بمباشرتهم والرفق بهم في السير إلى أن يصلوا برهم في حبور وبسط وسرور ، وتشيع الخديم مع سيده وسنده وفي أحشائه من مرارة التوديع ما لم يقدر على جلده ، وبان عنه ودموعه تنذرف ، وفكرته عن مشاهدة سيده لا تميل ولا تنحرف ، وصدق اوداعه الشرفاء والطلبة والحكام ، والكل داع له

بتعجيل الأوبة في عز وإكرام ، والحصول على كامل القصد ومنتهى المرام .

وقد سافرنا في الحال ، مصاحبين السلامة في نعم وافرة وخير وكرامة ، قاصدين من مكناسة الزيتون ، ثغر طنجة ، بالأمر المطاع مستعملين الخطا على ما أُمرنا به من الرفق في المسير بالقوم من غير إزعاج ولا إسراع . فما عبرنا من سفرنا نحو ليلة ويوم ، إلا وهاجس لحرق فكري ، حال بين الجفن والنوم ،وزهدي في حديث من أسايره من القوم ذكرني ما أمرت به من الجانب المولوي ، أسماه الله ، من أن أقيد في هذه الوجهة الميمونة ما سمعتُ ورأيت ووعيت ودريت ، وأحدث عما أشاهده من المدن والقرى ، وأصف جميع ما أبصرته في الإقامة والمسرة فجعل الحديم ذلك بين عينيه ، وأقامه مقام الواجب ، ولم يزل يتشوق لما أمامه ، ليستعمل في تقييد ما يشاهده بنانه وأقلامه ، يستوعب من خير البلاد الاصبنيولية بعضه وجله ، ويقتصر على ما شاهده في الإقامة والرحلة ولم يتعرض لما هو من طريق المؤرخين من حشو مؤلفاتهم بتكرار أخبار المتقدمين ، يعتمدون في ذلك على التمل ، ويأتون بما هو مستحيل وما لا يجوزه العقل ، ولا فائدة بالإتيان بما هو مقرر معلوم من الأخبار ،ومحصونه الإعادة للأشياء بلفظها والتكرار وقد جاء بما شاهده بالعيان على قدر الإستطاعة والإمكان .

واستفتح ما جمعه بما يجب أن يتلى ويذكر ، ويتضح به الإعلام وينشر من السبب الموجب لهذه الرحلة الحسنة المستحسنة من راويها حديثه ونقله ، إذ الأصل فيها ما نشأ عن الجهاد ، ومدارها على توابعه في الجمع والإفراد ، فجعل براعة استهلاله لما هو الأصل في نفس الأمر وقدم السبب على المسبب في المقدمة ، حسبما يستحس ذلك بشر ويسلمه زيد وعمرو . وأي مقدمة أبرك وأسعد ، وأسمى وأصعد ، مما اشتملت

علـى ذكر الجهاد وفضله ، وإنابـة مولانـا المؤيد بالله واهتمامـه بأهله . فهو الباذل مجهوده للجهاد فيما يعود عليه بخير . والكافل للأسير والمسرح بالأمان في المقام والسير . وأما ما بعده من الأخبار ، فهو جملة ما يتحدث به عن الأقاليم والأمصار ، غير أنه لم يكن عن نقل ، وإنما هو مشاهد بالأبصار ، وليسأل مقيده من مطالعه القبول والرضى ، والنظر إليه بعين التجاوز والإغضاء ، فإن الكرام تلتمس الأعذار ، وتقيـل العثار ، وتستر العيوب فيما تبديه وتخفيه ، والاناء يرشح بما فيه .

ولما حللنا طنجة ، ولم يبق إلا عبور اللجة ، إذ أمرنا بأن يكون منها العبور والمجاز ، ولا نقيم بها إلا بقدر ما ترد علينـا المراكب ونقطع للجزيرات عن فور وإنجاز .

إتصل بحاكم سبتة خبر ورودنا لطنجة في الحال ، فكتب يتلطف في الطلب والسؤال على أن نساعده في مراده ، ونساعفه في قصده ، وغاية مأمله أن يكون المجاز على بلده ، لما له في ذلك من المزية عند طاغيته .

وظهور الفائدة منه عند موليه في توليته ، فأجبناه الا سبيل إلى ذلك حيث لم نؤمر بالعبور من هنالك ، وحيث حصل على اليأس مما طلـب وتحقق عدم الحصول على الإرب ، إستعمل الحيلة وجعلها لمطلبه أعظـم وسيلة ؛ فأمر رئيس المراكب الواردة علينا من قبله ، أن يظهر جزعاً بعد ركوبنا في نفسه لهبوب رياح مخالفة لأمله ، وقد غلب عليه البحر ، ولم يجد بداً من دخوله سبتة عن جبر وقهر ، ولم تزل بحريته تصعد بحبـال المراكب وتهوى وتنشر قلاعها وتطوي ، وهو فيما بينهم يأمر وينهي ، يحدث ويروي . وكأنه يعاني أموراً هائلة ، وطائفته في حركتها مشفقة ذاهلة ، على أن البحر لم تحدث به قرائن يجزع منها ، ولا تراكم أمواج ينشأ الجزع عنها وقد اعتمد في ستر حالته على عدم معرفتنا بأحوال البحر وأموره ، وما يحدث به من المعارض في ركوبه وعبوره ؛ وإنما خشي علينا مما عسى

أن يقع ولولا ترسيته بمرسى سبتة لانحل مركبه وانصدع ؛ فجازينـــاه خيراً وحمدت الله لسلامة الجميع سراً وجهراً ، ونزّهت نفسي عن تكذيبه فيما ادّعاه ، إذ لا فائدة في كشف ما ستر بعد الوقوع ، ولا مرية أن التغابي واجب عما فات تداركه في المندوب والممنوع ، والمراد من ملقن الحيلة في الوصول إليه والحلول ببلدته ، والورود عليه ، بذل مجهود في إكرامه إيانا ، وأن نشاهد من إكرامه ما يدل على محبة طاغيته عياناً بذلك وقد شاهدنا مصداق ما حدث به لما حللنا هنالك وهذا موجب دخولنـــا سبتة أعادها الله إلى دار الإسلام،وذلك بتاريخ منتصف ذي الحجة الحرام من عام تسعة وسبعين ومائة وألف من هجرته عليه الصلاة والسلام .

★ ★ ★

الخبر عن مدينة سبته

لما قربنا منها ، أطلق حاكمها من المدافع العدد الكثير ، وأمر بإخراج الفلائك المفروشة بالقماش المرقوم ، وشحنها بالفسيان وأعيان قومه ؛ وقصدت المركب الذي نحن فيه ، والكل معلن بالترحيب لفظاً وإشارة فما كان من الإشارة فزع الشماريز [1] مع عكس رؤوسهم أمامنا ؛ وما هو باللفظ : « الإعلان بنصر سيدنا ، أيده الله » ، ولم يعرفوا من العربية غيره . وحيث قربنا من المؤمنين الذين هنالك ، سمعنا ضجيجاً بالمدينة ، فإذا بأسوار المدينة وسطوح الديار مملوءة نساءورجالاً وصبياناً،وأصواتهم مرتفعة ، ولم نفقه ما يقولون .

وقد برز لملاقاتنا بساحل البحر خلق كثير ، فسياناً وشلظاظاً وغيرهم من مطلق الناس ، مصاحبين لآلة الطرب ، ولما اختلطنا بالقوم كشف

---

(١) تعريب كلمة : Sombrers الإسبانية .

الغيب أن الضجيج الذي كنا نسمعه على بعد ، هو الإعلان بنصر سيدنا أيده الله . وقد ذهبنا في أزقة المدينة في ازدحام عظيم ، والشلطاظ والفسيان يذبون عنا ، ويردون القوم يميناً وشمالاً بالسيوف المسلولة [1] ومع ذلك ، لم تزل القوم منكبة علينا محدقة بنا ، حتى وصلنا الدار المعينة لنزولنا وهي دار طاغيتهم ، ومحل ديوانهم . وهي الآن دار متسعة ، ذات مقاعد وغرف ومنازه ، لها شراجيب مطلة على براح ، يسع العشرة آلاف ، فأكثر ، وهو محل تسراد شلطاظهم في كل يوم . وهذا الموضع له شبه بازبكية مصر ، لاتساعه وإحاطة المقاعد به ، والشراجيب والشبابيك المطلة عليه من الجهات الأربع . فمن إحدى نواحيها ، دار الطاغية التي نحن بها ، وغيرها من ديار الفسيان ؛ والجهة المقابلة لها ، دار عريضة في غاية الطول ، يسكنها الشلطاظ ، ومن الجهتين الأخريين كنائس صاعدات منهم ديور حاملة للنواقيس ، منها المسجد الذي كان للمسلمين أبقوا بابه على حاله ، وصومعته مبنية على قوس الباب ، وجعل أعداء الله بها ناقوساً. وفي إحدى وجوه الصومعة المقابل القبلة . آجرة مكتوب عليها : « بركة محمد صلى الله عليه وسلم » . وبداخل الباب خط مشرقي من عمل الجباس متلاش ، وفوقه خط آخر محفور في اللوح في غاية الإتقان لم يحدث فيه تغيير ، مكتوب فيه : « النعمة الشاملة والعظمة الكاملة » والخط مستدير بالموضع الذي يدور فيه الباب ، وعن يمين الداخل أقواس دائرة بالصحن شدت بالبنيان ، وهي الآن بيوت يسكنها بعض ضعفاء الفرايلية . وبالصحن ساريتان من الرخام المرقوم ، وقد علاهما خط مشرقي ، أبلاه القدم وقد انسلخت بعض مواضع الكتابة ولم يبق إلا لفظ أمير المسلمين أبو سعيد بن أحمد ، فقط .

---

(١) ف « ع » و « م » : المصلتة .

وقد بنوا بإزاء هذا المسجد كنيسة متصلة به ومدخلها واحد . فعبرنا الكنيسة ، فـإذا هي قدر قرية متوسطة . وبها من الفرايلية عـدد كثير . وقد استوعبنا جميعها بالعبور . منها محل مصلاهم المشتمل على تصاوير وصلبان وغيرهم . وهنالك المصابيح الذهبية والفضية والسناجق من الديباج والشليلات المموهة بالذهب . شيء كثير . وبحيطانها ألواح معلقة عديدة مكتوبة . فسألنا عنها . فإذا هي « زمامات » اشتملت على من افتدي من أسراهم من يد المسلمين من أول الزمان . وأسماء الملوك من المسلمين المفتدى من أيديهم الكفرة . وأسماء الفرايلية المتوسطين في ذلك .

وقد شاهدنا مواضع داخل الكنيسة ما أظن وصلها أحد من المسلمين قبلنا ، وهي مواضع دفنهم يسمونها « بيت الموت » وهذا البيت فيه عدة بيوت بعضها فوق بعض ، وقدر كل بيت ما يسع الميت مستلقي أو على جنبه . فهو كالقبور . غير أن أبواب كل بيت من هذه البيوت من جهة الرأس أو الرجلين . وبنيانها كمن وضع صندوقاً فوق صندوق مفتوح أحد الطرفين . فإذا مات أحدهم حشروه فيه وأغلقوا عليه بالبنيان وكتبوا عليه إسمه وصوروا فوقه صورة آدمي قد تلاشى لحمه ولم يبق إلا العظم وسموا الصورة بالموت . وقد انفصلنا عنهم حامدين الله تعالى على نعمة الإسلام التي لا نعمة بعدها .

ولما جن الليل من يومنا . سمعنا أصواتاً مرتفعة وضجيجاً بالبراح الذي بإزاء الدار المسمى عندهم « البلاصة » ففتحنا الشراجيب لنرى ما هنالك . فإذا بجماعة من النصارى عليهم ثياب سود وبأيديهـم فنارات مرفوعة على عصيّ . وأمامهم رقعة كتان قدرها أربعة أذرع طـولاً وعرضاً مشبوكة بين عصي وفيها تصويره بالرقم حامل لها إثنان من كبارهم . ذاهبين أمام القوم وهم يقرأون ويتضرعون . فسألنا عن ذلك

فإذا بالنصارى هم طلبة البلاد . والتصويرة . فيما يزعمون . عن السيدة مريم عليها السلام . وحملهم إياها ليلا ومرورهم بها بأزقة المدينة فيهـا كفارة للذنوب الصادرة عن أهل المدينة في يومهم : ولهم عـلى ذلك خراج .

ولنذكر كيفية تسراد الشلطاظ في كل ضحوة بالبلاصة المذكورة على ما شاهدنا عياناً. فإن نداءهم للتسراد ضرب النواقيس بضرب مخصوص فيه علامة للجميع . ثم نداء ثان . وهو ضرب الطنبور من البلاصة الى الدار التي بها الشلطاظ . وهم يضربون ليأتوا أمامهم لمحل تسرادهم .

ومبلغ العسكر الذي يسرد كل يوم خمسمائة . تظل في عستهـا وتمسي . ومن الغد . تسرد خمسمائة أخرى . ثم تذهب للعشية وتستريح الخمسمائة الأولى . وكلما ظلت الخمسمائة وأمست في عستها يفتدى من الغـد بمثلها ونقدمهم للتسراد على حالة هي من العجب بحيث يأتي الشلطاظ في أثر صيحات الطنبور على ثلاثة صفوف كل صف فيه ستـة رجال ثم ثلاثة صفوف أخرى مثل الأولى . ثم مثل الثاني . وهكذا إلى تمام الخمسمائة . وقدر ما بين الصفين من الوسع والصفوق التابعة لها قدر ما أخذوا نصيبهم من الأرض فلو فتح ضابط وقيس به ما أخذت أشباح الصفوف وما تركت من الوسع الفاصل بين الصفوف من الوسع وبين التابعة لها ، لوجدتها واحداً لا يزيد القدر المعمور على الفراغ قدر اصبع وذلك مما يتعجب منه. والموكل بتسرادهم أمامهم على فرس إذ أمـر بتحريك عدتهم أو ما يتعلق بأمور التسراد من تقديم أو تأخير . أجابوه إجابة رجل واحد .

وللمدينة ثلاثة أسوار : إثنان داخل القنطرة المضروبة على رجل البحر المحدق بالمدينة . والثالث خارج القنطرة . والباب الذي هو متصل بالقنطرة هو أكبر الأبواب ، داخله قنطرة من اللوح مثل القنطرة الخارجة عنه مرتفعة فإذا نزلت للأرض بما لها من الحركات . إرتفعت القنطرة الخارجة عن الباب . فهما ككفتي الميزان . فإذا جن الليل وسدت البابة يرفعـون

القنطرة الخارجة بنزول الأخرى داخل الباب زيادة في التحصين . ولهذه الأسوار أبراج كالشواهق . وعن خـــارج السور حفيران وإرشاق وإغرابات [1] ومخادع يمرون إليها من باطن الأرض . وأبوابها داخـــل المدينة . وبأحد أبواب المدينة أثر كرة خرقت الباب . وأصلها من رمي المسلمين على عهد مولانا إسماعيل رحمه الله : أبقوها على حالها . على أنهم إذا حدث لهم شيء في سور أو باب ، بادروا لإصلاحه . وأثر هذه الكرة تركوه واجمعوا على بقائه تذكرة لهم . وسموا الباب باب الكرة وما زالوا يتحدثون بها . وكل من والد له ولد وعقل يذهب به والـــده للباب ويلقنه ان الثقب الذي بالبـــاب ، هو من رمي المسلمين ، ليربى على عداوة الإسلام .

ومنذ ذلك الزمن وهم مجدون في العسة والحراسة إلى الآن . وممـــا يتعجب منه ان العسة داخل أبواب المدينة لا يناموون ولا تفارقهم علتهم على ما هم فيه من التحصن ، خوفاً من الإسلام . أما العسة خارج المدينة فهي في الغراب والإرشاق . والسور الموالي للبر فائدته ونتيجته بينة ظاهرة وأي فائدة للعاس داخل الأبواب الموالية للمدينة ، والأبواب مغلقة أمامه وخلفه ومبيته على قدمه ويده على زناد مكحاته . متهيء لإخراجها . فهذا والله دليل على ما هم فيه من الجزع والفزع . فقد قذف الله في قلوبهم الرعب وألبسهم ثوباً الروع والخذلان .

ومن جملة ما رأيتُ من خوفهم من الإسلام . أن ضربوا حبلـــين رقيقين من أعلى سور باب المدينة إلى البرج المقابل له من خارج . وجعلوا في الحبلين ربيعة صغيرة جداً لسرّ في ذلك وهو : إذا حدث أمر ليلاً

---

(۱) نوع من السفن القديمة التي تستعمل لمراقبة السواحل .

خارج الباب يكتب به صاحب العسة المعين لذلك ويجعل الكتاب داخل الربيعة، فيجذبها إليه العساس الذي داخل الباب. ويذهب بالكتاب لحاكم البلاد في أي وقت كان من الليل فيجيب بما يظهر له في الوقت ولا يؤخر الأمر المحدث إلى الغد خشية التفويت. وديار المدينة صاعدة في الجو لها مقاعد استوعبها شراجيب مطلة على الأزقة. ونساؤهم ملازمات للشراجيب يسلمن على الذاهب والآيب. ورجالهن في غاية الأدب معهن.

وللنسوة رغبة وغبطة في الحديث والمنادمة مع غير أزواجهن في الجماعة والخلوة. ولا حجر عليهن في ذهابهن حيث شئن. وقد يأتي نصراني داره فيجد إمرأته أو إبنته أو أخته مع نصراني غيره أجنبي يشربون وبعضهم متكىء على بعض. فينشرح لذلك. ويرد الجميل للنصراني المنادم لروجته أوغيرها من محارمه. على ما قيل. والذي يؤيد ذلك ما شاهدناه من أعيانهم حيثما حللنا ببلادهم من استيذانهم لدخول نسائهم علينا بقصد السلام. فذلك عندهم من الأمر الأكيد المحتم. فلم يسعنا إلا الإيجاب. فدخل علينا عدة منهن، وجلسن على الشليات [1] وقد تزين ولبسن أفخر الثياب. وما زال الترجمان يترجم على لسانهن بالسلام والترحيب. فنرد عليهن بما لا بد منه. وجل الأزواج كل واحد يعرف بامرأته وبنته وأخته إن كانت. ولا يكمل فرحه إلا إذا استحسنت زوجته أو بنته.

وفي الغد طلب إلينا الحاكم الوصول إليه لداره وأتى بأكداش [2] ركبناها وذهبنا إليه بطريق طويلة عريضة جداً لبعدها عن المحل الذي نزلنا فيه. وعن يمين المار أشجار مصطفة لاثمار لها. وإنما جعلوها للظل

---

(١) معربة عن الإسبانية Silla : كرسي.

(٢) جمع كودشه Coche : عربة.

فقط وعن اليسار سور متصل بالبحر حامل لعدد من المدافع .

ولما وصلنا إلى دار الحاكم تلقانا بالرحب والسعة وبالغ في الإكرام وظهور البشاشة . وجعل يحدث عن أمور كانت في نفسه وقد أحسن العبارة حتى أداها بلطافة . فأجيب عنها جميعها بالمعقول . فأذعن وامتثل . ولامرية أن لسان المرء دليل على عقله . فهذا القائد رجل حسن جداً وعقله ثابت في أمور دنياه وله تدبير فيما هو مكلف به .

وحيث انصرفنا عنه رجعنا عن غير طريقنا اختلاساً من المنظرين في الطريق أو بجناب الطريق الأولي . وقد عثرنا على باب في غاية العلو والضخامة . محمول قوسها على أربعة سواري من المرمر . وبين كل ساريتين صورة آدمي واقف على قدميه من الحجر ، فإذا هو بالاسبيطال [1] الذي تعالج فيه مرضاهم ، فعبرناه فإذا به عدة بيوت مستديرة بصحنه ، وبالصحن أشجار عديدة إذ كان في غاية الطول والعرض . والبيوت منها ما هو معمور بالأدوية : معاجن وأشربة وأدهان، وأوعية الأدوية محمولة على مرافع من الأرض إلى السقف وبيوت أخرى مملوءة بالأعشاب ثم بيوت يسكنها القائمون بشؤون المرضى من الطبخ والنفخ والمباشرون لهم في جميع أمورهم . وباقي البيوت بالطبقة السفلى وهي خاصة بالمرضى بالبلغم [2] والعياذ بالله . وبالطبقة العليا مقاعد ممتدة نافذة بعضها لبعض على الجهات الأربع . وقد استوعبها سرائر حاملة المرضى كل سرير بينه وبين الذي بجنبه قدر ما بين المباشر لهم وكذا المقابل له في كل مقعد من الأربعة ، وفراش ووسادة وما يعطى به ولباسهم الذي كان حال الصحة مؤمن عنه القيم . ولباس العلاج معين

---

(١) المستشفى .

(٢) الإلتهاب الرئوي .

من الأوقاف . يلبسونه عند دخولهم الاسبيطال . فإذا عفي الشاكي يلبس ثوبه المؤمن وينزع عنه ثوب العلاج . فيبقى ويدخر لغيره . والإسبيطال لا ماء فيه ، فهو كغيره من ديار المدينة . وليس هناك إلا الابار .

وقد شاهدنا داخل أحد أبواب المدينة ماء يأتي من ناحية رباط المسلمين ، وليس بها ماء جارية غيره على ضعفه وقلته . وعن يسار القبلة جبل مطل على البحر قريب من سور المدينة جداً ، بنوا له داراً وجعلوا بها عسة لارتفاعها ، وشيدوا تحت الدار سوراً في غاية الطول ، وسموا هذا الموضع « القصبة » . وعن يسار هذه القصبة ربوة بنوا بها أيضاً داراً هي معدة عندهم للنزهة . وبها كنيسة صغيرة يذهب إليها فقهاؤهم كل يوم أحد يصلون بها .

وكانت مدة إقامتنا بالمدينة ستة أيام . وكنا في أيام الإقامة نتعاهد الأماكن التي بها المجاهدون المرابطون على المدينة تبركاً بها ، فنخرج من الباب المقابلة للمرابطين التي بها الخمسمائة من الشاطاظ . فنجدهم واقفين على قدم في عستهم والمسلمون في مقابلتهم بنحو الأربعين نسمة ، وقد زاحمهم المسلمون في البر حتى أن بينهم وبين سور المدينة قدر المرمى بالحجارة .

فانظر عزة الإسلام وهيبة الله تعالى التي ألقاها على عباده المؤمنين حتى أن حاكم سبتة طلب منا أن نتكلم مع المجاهدين على أن يتركوا رعاة ماشيتهم يسرحون قرب موضع رباطهم بقليل ، وقد اشتكى من التضييق به في الرعي ، فتكلمنا مع المجاهدين في ذلك فحصل منهم الإيجاب رعياً للكلأ ورحمة لقوله صلى الله عليه وسلم : « إن في كل ذي كبد رطب حسنة أو أجراً » . أو كما قال عليه السلام .

وفي الأحد والعشرين من ذي الحجة من عام تاريخه . ركبنا من

مرسى سبتة قاصدين الجزيرات[1] وقد حضر لتشييعنا خلق كثير . خاصة وعامة ، وأخرجوا من المدافع ما أخرجوه عند الملاقاة وأخذنا في العبور فما بعدنا عن المرسى بقليل إلا وهبت ريح غير موافقة لعبورنا نشأت عنها قراتن عظيمة حتى يئسنا الحياة وتحققنا من الغرق ، ومكثنا على هذه الحالة التي يشيب لها الرضيع من تقلب الجفن ودخول الماء من الجهتين ما يزيد على ثمانساعات .والمسافة المعلومة المعبورة التي بين سبتة والجزيرات مسافتان فقط . وقد حفت بنا الألطاف من الله تعالى . وحضرت معنا بركة مولانا المنصور بالله وحصلنا على النجاة والحمد لله رب العالمين .

الخبر عن مدينة الجزيرات

لما رسينا بمرساها برز لملاقاتنا بشط البحر خلق كثير وأطلقوا عدة من المدافع ، وبعث حاكم البلاد عدة فلائك بعد أن زينها بأنواع الديباج وأركب فيها أعيان قومه فتلقونا بالرحب والسعة . وقد اقتفوا أثر صاحب سبتة في البشاشة والإكرام ، ونزلنا بدار هي من خيار ديار المدينة ، وحاكمها شاهدنا من ميله للمسلمين ما لم يكن في غيره ، وكذلك قاضيهم وأعيان الفرايلية . ولم يصحب أحداً منهم تقصير ، وما زال القوم يترددون علينا إلى الليل من يومنا . فتهيأنا للنوم ، ظناً منا أنهم يؤخرون زيارتنا إلى الغد لإقبال الليل وإدبار النهار . فلم نشعر إلا والقاضي والحاكم وأعيـــان القسيان قد أقبلوا علينا بعد العشاء ، معانين بالترحيب والسؤال عن الحال وهل استرحنا من الميد الذي ألم بنا من فراتن البحر إلى غير ذلك من السؤال الذي فيه ثقل على النفس ، وفي الوقت لم نجد بداً من مباشرتهم مع ما نحن فيه من التعب وبقايا الميد وانحراف المزاج ، ثم قال الحاكم وشاركـــه القاضي في قوله : إن ورودنا عليكم الآن لأمرين : الأول ، نعهدكم

---

(1) Algeciras : الجزيرة الخضراء .

واختبار أحوالكم بحيث إذا عرضت عليكم حاجة نفوز بقضائها . الثاني : الاستيذان لدخول نسائنا وأبنائنا وبناتنا . ليسلمن عليكم . مع نسوة جئن منهن من أعيان نساء الفسيان بقصد رؤيتكم والسلام عليكم . ولا يدخلن إلا إذا أذنتم لهن . وهن بالباب ينتظرن ما تأمرون به . فكان جوابنا أن قلنا لهم « نحن ضيوف عندكم ليس لنا أمر من شيء . فما رأيتموه صواباً وهو عادة عندكم لا نجبركم على تركه . ولا علينا فيه ثقل » . فانشرحوا من جوابنا غاية الإنشراح .

ونهض بعض الفسيان يناديهن فدخلن بعدد كثير نساء وابكارا . ومن دونهن في السن . الجل في غاية الحسن وقد لبسن ما حسن من الثياب وجلسن على الشلميات . وقد بالغن بالترحيب بنا أكثر من رجالهن (على لسان الترجمان) وجعل كل يعرف بزوجته وبنته . القاضي والحاكم فما دونهما . وقال القاضي : « أية امرأة في النسوة الحاضرات ترضيك ومن فيهن أحسن وأجمل من الأخرى » ؟ وقصده بالسؤال المباسطة والمداعبة . فأجبته بما فيه جبر خواطر الحاضرين من النساء والرجال بقولي : « إن هذا المجلس هو بستان . والنسوة التي فيه أصناف النوار وللناس فيما يعشقون مذاهب » . فاستحسنوا الجواب وفرحت بذلك النسوة وانشرح أزواجهن . حيث لم يحصل تفضيل لإحداهن على الأخرى ثم أشار القاضي إلى ثلاث بنات مراهقات في أجمل صورة أن ينشدن ، فإذا بأصواتهن أرق من الرباب . ما سمعت مثلهن قط . وقام كل من بالمنزل من النسوة يرقُصن . وكيفية رقصهن : كل ذكر مع أنثى ، دائرين في المحل . والنسوة يدخلن ويخرجن بين الرجال في الدائرة أحياناً . ثم يرجعن في مقابلة الرجال . فيأخذ كل واحد منهما بيدي صاحبه . ثم يفترقان . ويتأخر الرجل عن المرأة القهقرى . ثم يقصدها أيضاً وتقصده حتى يجتمعا على الصفة المذكورة وهكذا يفعل كل ذكر

مع كل أنثى المعينة للرقص معه . وحين تعين الإنصراف . قال القاضي والحاكم : « هذه النمرجة والنزهة تعظيماً لكم وفرحاً بهذا الصلح الذي تفضل به علينا سلطانكم وامتن به على سلطاننا . نسأل الله أن يجعلـه دائماً » ، وانصرفوا عنا . ونحن نحمدالله على نظافة ديننا وطهارته .

ولنذكر صفة المدينة وما اشتملت عليه من الأشياء ، بنايات وغيرها فنقول باختصار : المدينة فسيحة الشوارع متسعة المسالك مرصفة الأزقة ديارها متقنة البنيان ، غير أنه غير شاهق ، وسطوح الديار لم تكن منبسطة مسقف جميعها بالقرمود ، ولم تكن بها دار شاهقة الأديار النمرايابة ، والديور الحاملة للنواقيس ، والمدينة لا سور لها . ومن ناحية غربها [يجري] وادي قريب منها جداً ، مضروب عليه مجاز متوسط . وبازائه أرجاء واجنة وبحائر . ولا ماء بالمدينة إلا الابار وشرابهم مـن الوادي لقربه وجودته .

وعن يمين مرساها داخل في البحر ، جزيرة شيدوها بيوتاً للعسة ، هي مقابلة لجبل طارق . وعن يسارها مدينة سركي [1] في وسط المسافة التي بين الجزيرات وجبل طارق . وبحسب مرأى العين ، إن المدن المذكورة قريب بعضها من بعض جداً .

ومن غداة رواحنا للجزيرات ورد على حاكمها كتاب طاغيته مخبراً أنه بعث بخمسة مراكب لمرسى سبتة لملاقاتنا بها لنعبر عليها البوغاز . فإذا قطعنا قبل أن تصل مراكبه ، أمره بإقامتنا عنده ثلاثة أيام في انتظار الخيل المبعوثة من عنده في البر . فإذا فاتت ثلاثة أيام ولم تصل الخيـل فليبعث من خيله ثلاثين فارساً تصحبنا في طريقنا . والبلاد التي تتلقانا فيها خيله ، يكون منها رجوعهم لموضعهم ، فاركب معنا صاحـب

---

(١) Son Rogne

الجزيرات من خيله ما أمره به طاغيته . بعد الإقامة المأمور بها . فسافرنا مصاحبين السلامة ، قاصدين مدينة طريفة . فعبرنا إليها على إثني عشر ميلاً . بين جبال صعبة ذات أشجار وفنادق . لها شبه بالجبال المرموشية وأشجارها : البلوط والشيت والصفصاف ، كلها في غاية العلو والغلاظة ولم يكن يوجد مثلها بالبلاد الاصبنيولية على ما قيل .

الخبر عن مدينة طريفة

هي مدينة مشيدة على شاطىء البحر . لها سور من عمل المسلمين وبارجائها من الأجنة ما لا يأتي عليه الحصر . جلها أشجار العنب . وقد برز لملاقاتنا خلق كثير ، شلظاظاً وفسياناً وعامة القوم وفعلوا ما فعله من قبلهم من إخراج المدافع والمحارق . وقد حال الإزدحام من القوم بيننا وبين المدينة ، ولم يأل جهد الخيل المصاحبة لنا ، مع ما أضيف إليها من خيل المدينة في مدافعة الناس عنا بالسيوف ، فلم يجد شيئاً . ودخلنا المدينة في ازدحام عظيم ، ونزلنا بدار فسيحة الفناء ، محكمة البناء . ذات مقاعد وغرف ، وديار المدينة غير بعيدة من ديار الجزيرات . وقد شق المدينة نهر غير جار في الوقت ، وفي بعض مجراه ماء راكد منتن. وعلى الوادي عدة قناطر يعبر عليها لها شبه بقناطر قصر كتامة. وفي عشية يومنا ، جاء الحاكم والفرايلي المصاحب لنا لنذهب معهما للقصبة التي هنالك وهي من عمل المسلمين .

وقد كنت سألت عن ذلك قبل ، فمررت بأزقة ضيقة فقيل لي أن هذه الأزقة والديار . يميناً وشمالاً ، هي من عمل المسلمين لم يحدث فيها تغيير .

ولما وصلنا القصبة . وجدناها باقية على ما تركها المسلمون رحمهم الله . لها من الأبراج ثمانية عشر . وقدر ارتفاع السور والأبراج عشر

قامات . وفيما بين البرج والذي يليه ، في نفس السور ، آجر مزدوج مرقوم ، لمعانه عند مقابلته للشمس كالمرآة . وقدر مساحة الزليج المذكور أربعة أذرع طولاً وعرضاً . وبناء هذه القصبة من الحجر المنجور الشبيه بالرخام . وباعلى بابها رخامة مكتوب عليها بخط كوفي : «بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم تسليماً . أمر عبدالله بن عبد الرحمن الداخل أمير المؤمنين .. » وما بعده ممحو . وقد مرت صقالة من القصبة المذكورة لناحية البحر بنحو ستين خطوة تنتهي إلى برج في غاية الطول والعرض ، به خمسة مدافع ، أحدها من النحاس مصور عليه أفعى من إثني عشر شبراً ، وأربعة من المدبر [1] من أربعة وعشرين ، كلها للمسلمين . وفي مقابل هذا البرج ، جزيرة في وسطها برج من عمل النصارى ، ولاعسه به الآي . وقدر ما بين الجزيرة والبر ، قدر ما تجوز به السفن ، وبمرأى العين قريب جداً ، بحيث يتكلم الرجل مع صاحبه من البر ويجيبه من الجزيرة . وقد اشتكى أهل المدينة على طاغيتهم ضيق البلاد عنهم لكثرة من بها من الخلق ، فأمرهم بالبنيان وقد خطوا بإزاء المدينة دياراً عديدة ، فهم مجتهدون في تشييدها ليلاً ونهاراً .

والمدينة لها بابان ، برية وبحرية . وبها من الهواء الفاسد والعياذ بالله والوخم ، ما اشتكى بسببه الكثير منا ، ساعة حللناها . ولما جن الليل هبت رياح بنتن ماء واديها ، ضاقت منها نفوسنا وكادت أرواحنا أن تذهب ، فأيقظت الخدمة والأصحاب وألزمتهم أن يتهيأوا للسفر ، قبل الفجر من ليلتهم ، وبعثت الفرايلي المصاحب لنا ومن معه ، أن يتهيأوا للسفر وألزمتهم النهوض . فجاء الفرايلي يطلب التثبط والمهلة ،

---

(١) المدبر : الحجر المنحوت المصقول .

وتعلل بأن رواحنا لم يكن لمدينة أو لموضع مناسب للمبيت . وأن أهل المدينة يتأملون ويتدبرون أين يكون مبيتنا، لأن طريقنا على « مدينة » وبينها وبين طريقه مسيرة يوم ونصف اليوم ، ولا يمكن الوصول إليها من يومنا ، فقدمنا الراحلة [1] قبل الشروق ، وأجمع أهل المدينة حاكمها وقاضيها ، ومن بها من الأعيان أن يكون مبيتنا بدار هي معدة لنزول الأكابر والأعيان ، ممن يأتي من مدينة «مدينة» ، أو الذاهب إليها على أن لها انحرافاً عن الجادة ، وليس بكثير .

فركبنا بين الظهرين ، وقد حضر لتشييعنا من الخلق أكثر ممن برز لملاقاتنا ، وانصرفنا عنهم في عز وكرامة . وقد استعملنا السير بقية يومنا وطرفاً من الليل، ولحقنا الدار التي بها مبيتنا عن إثني عشر ميلاً . ومن الغد ، شرعنا في المسير في أرض حسنة النبات جيدة التربة مفتحة النوار في غاية الخصب ، وماشيتهم منها ما هو أسود محض ، ومنها ما هو مثل مشيتنا ، غير أن كل نوع من النوعين يسرح على حدة . وقد عثرنا على العدد الكثير من الخنازير ، يسرح مثل الغنم . على غير ما هو معهود من فعله من النفور والجرأة ، وقد شاهدنا بهذه المسافة من المدن والمداشر والبيوت والغرابة وأهل الحراثة يميناً وشمالاً شيئاً كثيراً .

الخبر عن مدينة ((مدينة))

هي مدينة مشيدة على قمة جبل ، والأرجاء المستديرة بالجبل في غاية البسط على الجهات الأربع ، وقد استوعبتها اجنة وأغراس مما يلي الجبل والخارج عنها زياتين وأرض حراثة .

وقد حللنا بها بين الظهرين على إثني عشر ميلاً من الدار التي كان

---

(١) في « ح » و « م » و « ج » : الراملة .

بها مبيتنا . في يوم شديد الحر . وأول من لقينا على بعد منها بنحو مسافة الخيل المبعوثة لنا من الطاغية لملاقاتنا وقد أضيف إليها من خيـــل المدينة عدد كبير ، واجتمع من الخلق ما ضاقت عنهم الأرض . خاصة وعامة مجتمعة من المدن والقرى القريبة من المدينة . قالص وغيرهـــا : نساء ورجالاً وصبياناً ، كأنهم الجراد المنتشر .

وصعدنا المدينة في ازدحام عظيم بطريق صعبة ضيقة مرصفة بالحجر والطريق لها شبه في الصعود بالصعود لمدينة تازا . بل هي أمنع وأصعب وقد أضر بنا العطش لمكثنا في الصعود ما يزيد عن الساعة لازدحام القوم وانتظار عبور من تقدمنا لضيق الطريق وامتدادها .

ولما انتهينا إلى الدار المعينة لنزولنا رأينا بها ما يتعجب منه من اتقان البنيان وارتفاعه، وتعدد الغرف والمقاعد وتزيينها بأنواع الديباج والستور المرقومة بالذهب والفرش المنتخبة بمقاعد للنوم . هي غير المقاعد المعدة للجمع والملاقاة بالقوم ، إلى غير ذلك . مما يدل على رفاهيـــة أهلهـــا وحضارتهم .

ولما استقر بنا المجلس وانصرف عنا القوم ، أقام الفسيان المبعوث من طاغيته عدداً من الشلطاظ الواردين صحبته بباب الدار . يمنعون من أراد الدخول علينا إلا بعد الإستئذان . وأظهر من الأدب والإمتثـــال والمباشر شيئاً يتعجب منه . وحدث عن عظيمه أنـــه متشوق ومتشوق للقائنا . وقد أمره أن يكون عند أمرنا . وهو يطلب منـــا أن نسامحه في التقصير ، لأنه لا يقدر أن يؤدي ما أمره به طاغيته . إلى غير ذلك مما في معناه بما يناسب في الوقت .

ومن جملة ما أخبر به عن طاغيته أنه أمره أن يقيم بنا في كل مدينة ثلاثة أيام للإستراحة ، وعين له المـــدن التي يكون المرور عليهـــا . وأن يسير بنـــا ليلاً خشية الحر . وكتب للمدن المعينة منه أن يبذلوا المجهود

في الإكرام والبرور ، وقد شاع ذلك في البلاد الاصبنيولية وجعلت الجموع منهم تتعرض لنا وتسافر من المدن البعيدة قاصدين المدن التي نمر بها ، فيتقدمون لها قبل وصولنا إياها ، وهكذا في كل مدينة مدينة ولم يزل الفسيان واقفاً على قدم المباشرة والتعظيم كوقوفه بين يدي طاغيته ولا شك أنه مختار عند مرسله لسياسته وأدبه .

وقد بعث في الحين لأهل الموسيقى وأحضر أعيان البلد ، الحاكم والقاضي ، ومن دونهما ، وأوقدوا من الشمع العدد الكثير فما شعرنا إلا ودخل علينا من النسوة والبنات ما يقرب من المائة ، وقد أخذن نصيبهن من الحسن ، وفيما يغلب على الظن أنهن منتخبات من بنات المدينة ، منهن زوجة الحاكم وغيرها من الاعيان ، وقد لبسن ما حسن من الثياب وجلسن على الشلَيات ، وصاحب الطاغية الذي ظننا أنه صاحب عقل وتمييز ومختار عند عظيمه ، واقف على أن يجلس كل واحدة من النسوة والبنات بالموضع المناسب لها ، على قدر مراتبهن ، ويأتي بنحو العشرة يسلمن علينا على لسان الترجمان ، ثم يأتي بعشرة أخرى ، وهكذا حتى أتى على آخرهن ، ثم أقبل علينا يطلب منا الاذن في رقصهن ، فأجبناه لذلك ، فقمن يرقصن على عادتهن : كل ذكر مع أنثى ، فلم نلبث إلا وهو آخذ بيد شابة من حسانهن وجعل يرقص معها . فتعجبنا من فعله . مع ما ظهر لنا من ثباته ودهائه ، وأنه مبعوث من طاغيته لأصحاب سلطان الاسلام ، يجب عليه أن يفعل ما تطول به رقبة مرسله إلى غيره كل من الأمور الواجبة عليه مراعاتها قولا وفعلا . وعند شفاء غليله في الرقص . وقف بين أيدينا متأدباً ، وقد نزع الشمرير ، وعكس رأسه أمامنا ، فكأنه أدى واجباً يجب عليه له ، المجازاة ، فاستحسنا فعله وجازيناه أخيراً . فرمى بالشمرير ، ثم أخذ بيد شابة أخرى ، غير الأولى وأخذ في الرقص معها ، حيث شكرناه . وكلما أراد الرقص مع غير التي رقصت معه ، يجدد الاستئذان ويعيد العمل اكراماً

لنا وجبراً لخاطرنا . ولا يسعنا إلا المجازاة بالخير . فكشف الغيب أن الرقص عندهم من كمال المروءة وأداء الواجب عليهم في إكرام الضيوف من ذوي الأقدار ! ومكثوا على ذلك إلى أن قرب الفجر وذهب كل لحال سبيلـــه .

والدار التي نزلنا بها لها شراجيب مطلة على « بلاصة » المدينة التي هي محل اجتماعهم للعب ، ولم تكن بالمدينة « بلاصة » غيرها .

والبلاصة كناية عن براح متسع ، يسع الألوف من الخلق والديار مشيدة من أربع طبقات ، محيطة بالبراح المذكور ، وخارج شراجيب الديار صقالات [1] محمولة على بروز كصقالات السور . يتصل بعضها ببعض على الإستدارة ، لاستواء البنيان في الطبقات الأربع .ولهذه الصقالات درابز [2] في غاية الإتقان حافظة من سقوط الجالس عليها حال الفرجة لازدحام القوم .

ومن الغد إجتمع بهذه البلاصة خلق كثير قد ستروا الأرض بنشرهم على بسيطها كما ستر سورها أجسام النســوة التي استوعبت الصقالات الأربع بالجلوس جنب هذه لهذه على شليات مكتسية بالديباج . والنسوة في حلل مختلفة الألوان محلاة بأقراط يضاف إلى ذلك مـــن يواقيت يمنطية [3] فما دون ذلك تلمع بلمعـــان الشمس كالمرآة . ولأبواب الشراجيب التي يعبر منها للصقالات ستور من الكمخة [4] على ألـــوان بعضها من المؤبر وبعضها من الديباج . وغير ذلك . فالناظر للصقالـــة

---

(١) الصقالة : الدرج أو السلم .

(٢) قوائم منتظمة يعلوها متكأ .

(٣) مأخوذة من كلمة Damante : الماس .

(٤) نوع رفيع من الحرير المنسوج

يشاهد ما يذهله من استيعاب الحلق للبلاصة من قائمها المبسوط . وقد استعدوا لهذا الجمع واحتفلوا له بما ليس بمعهود منهم في لعبهم بالثيران [1] قبل ذلك فرحاً بنا وفرجة ولهم في ذلك غبطة واعتناء . فهو من جملة أعيادهم في زمن مخصوص ، ولما كان هذا اللعب عندهم بمنزلة ، أبيح لهم إعادته بعد فوات إبانه ، فرجة ونزهة للوارد على بلدهم من الأكابر والأعيان . والزمان الذي هو مقيد به هو : إذا دخل شهر مايو يحتفلون بالبلاصة في جميع المدن والقرى من البلاد الاصبنيولية ، كل على قدره في اليسار والأقتار ، ثم يأتون بعده فحول من الثيران الشبيهة بالأسد في الجرأة والشراسة . والحيلة التي يستعملونها لاقتيادهم إلى البلاصة [هي] أنهم يقدمون أمامهم ثيراناً آنسات في أعناقهم نواقيس . فتقتفي أثرها إلى موضع بجنب البلاصة ، هو بمثابة أواري [2] . فإذا حصلوا به تتأخر الثيران الآنسات ذات النواقيس وتترك الأخرى بالمحل المذكور إلى أن يخرج منها واحد بعد واحد المبارزة . وقبل خروجها بقليل . يمر بالبلاصة نحو الخمسين من الشلطاظ وأهل الطنبور ويضربون أمامهم . وفي ذلك لهم علامة على حصول الثيران والنداء على الفرسان المعينة للبراز ؛ فيأخذ كل واحد موضعه . ومن ضاق عنه الموضع الذي يأمن فيه على نفسه يخرج على البلاصة ولا يترك الشلطاظ ببراح البلاصة إلا الفرسان المقطوع بشجاعتهم وبأيديهم مزارق، والقوم المجتمعون بأرض يتحفظون بسور من الخشب علوه ما يقرب من قامة وبينه وبين سور الديار على الجهات الأربع عشر خطوات فأكثر ، اسبوعها مستطبات بعضها فوق بعض مدرجة على فرود الخشب يجلسون عليها آمنين . وهذه المسطبات تسع

---

(1) يصف حلبة مصارعة الثيران : Corrid de Toros .

(2) جمع آرية : زريبة .

العدد الكثير من الخلق فيتصل من بأعلاها بمن بالطبقة الأولى من الصقالة التي تلي الأرض .

وفي ترتيب جلوس هذا الخلق الكثير على التدريج من بسيط الأرض إلى منتهى علو الديار ما يتعجب منه لغرابة صنعه . كيف وقد سترت أشباحهم أسوار الديار القائمة المحيطة بالبلاصة مع طرف من بسيط جدرانها.

كيفية مبارزتهم مع الثيران

يفتح باب الموضع الذي فيه الثيران بحيلة فيخرج الواحد منها كأنه أسد ويغلق الباب في وجه المقتفي إثره في الخروج فيكر الثور على الفارس تارة ويفر منه تارة ، وتقع بينهما المحاربة الشديدة والبأس . وكلما وثب الثور على الفارس يمنعه بالمزراق الذي بيده . فإذا تحامل عليه يشغله فارس آخر يطلب مبارزته من خلف وأمام . فيسلمه الثور ويقبل على مبارزة الثاني . فإذا وثب عليه وزاحه ، يطلب مبارزته الأول . فيترك الثاني ويعود إلى الأول. وهكذا. فإذا ضعفت قوته تتأخر عنه الفرسان وتتقدم عليه عدة نصارى راجلين وبأيديهم حراب طولها قدر ذراع اسنتها على قدر السنارة يختلسون الثور ويمكنونها من الموضع الذي أمكنهم منه ظهره أو جنبه . فإذا زاحمهم الثور يرمون بالشمرير أمامه فيمتنع . وتارة يصول والمتصدي لقتله رجل واحد يطعنه بسيف تحت قرنه من جهة رقبته فيخر ميتاً من حينه ويأتي بثلاثة بغال مزينة تجره من فوره ثم يخرجون ثوراً آخر يفعل به مثل الأول . وهكذا .

ولما غشي الليل ذهب كل لحال سبيله . وقد استحسنا لعبهم جبواً للخواطر حيث سُئلنا عن ذلك ، والإعتقاد خلافه فان تعذيب الحيوان لا يجوز للإنسان . لا يجوز بالشرع ولا بالطبع ولاعتنائهم بهذا اللعب المذكور على الكيفية المذكورة في المحل الموصوف . صار من لم تكن له دار متصلة

بالبلاصة يبذل المال في كراء الدار المطلة على البلاصة ، يخصص منها مقعداً لفرجة أهله وأقاربه . ويكري على يده ما بقي من الدار . فيحصل على فرجة أهله ويفضل بيده من المال ضعف ما اكترى به غبطة ورغبة في حضور هذه الفرجة .

والمدينة حيث بنيت على الجبل لم تكن أزقتها منبسطة . وإنما هي بين منخفض ورفع . والديار في نفسها عجيبة جداً . والكثير منها باق على البنيان الإسلامي . ولا ماء بها إلا الآبار وهي في غاية العمق . وشرابهم من ماء الماجل المجتمع من ماء المطر . وهواؤها طيب للغاية . وقد شاهدنا عدة مدن : قالص وماوالاها وسنطمرية وجزيرة السباع والكراكة [1] والمسافة بينها وبين قالص واحد وعشرون ميلاً . أقمنا بها ثلاثة أيام وسافرنا مصاحبين السلامة . قاصدين مدينة خريز . وهي المدينة الخضراء وذلك آخر يوم من ركوبنا الخيل لفلوات الأرض الصعبة التي لا يمكن فيها ركوب الأكداش .

الخبر عن مدينة خريز

عبرنا إليها على إثني عشر ميلاً ، وقد ورد علينا خلال أميالها عدد كثير من الخيل شلظاظاً وفسياناً على بعد من المدينة بنحو المسافتين فرحبوا بنا وأظهروا من البشاشة والمباشرة ما فيه زيادة على من تقدمهم . وسرنا معهم بما يقرب من مسافة . فإذا بقنطرة مضروبة على وادي ، والوادي يسمى واد ليطى . لها ستة أقواس . من الأقواس العظام في الطول والعرض وبطرفها من ناحية المدينة خلق لا يأتي عليه الحصر . والعدد الكثير من الأكداش التي لها بال . فركبناها في أحسن زي . وضربت علينا النوبة

---

(١) Carraca قرية على شاطئ خليج قادس .

الموسيقى الواردة من أهل المدينة البارزين لملاقاتنا . وذهبنا إلى أن دخلنا المدينة ، وكنت أظن أن المدينة عن يسار القنطرة بقليل ، فكشف الغيب أن ما كنت أحسبه مدينة ، إنما هي دار للفرايلية هنالك . فقد يحسبها الناظر أنها مدينة لكبرها وفخامة بنيانها وتعدد الصوامع بها . والمسافة التي بينها وبين خزير أربعة أميال عبرناها بين أغراس وأجنة ، ومن خارج أغراس الفواكه وزياتين مستقيمة الصفوف في غراستها استوعبت الأرجاء الأربع إلى ما انتهى إليه البصر . قيل أن مساحتها مسيرتها أربع ساعات .ومن حيث ركبنا الأكداش. والأكداش تتعرض لنا مشحونة ببنات الأكابر ونسائهم . وأما مطلق القوم ، فلا يأتي عليهم الحصر . ولما مررنا بأرقة المدينة وشاهدنا ما شاهدناه من ارتفاع بنيانها وضخامة ديارها وعلو أبوابها وإحكام تشييدها واتساع رحابها وتعدد الأكداش الذاهبة والآتية بطرقها ، وحضارة أهلها وسعتهم في المال وتنافسهم في الملابس والمراكب كلت العبارة على استيفاء ما اشتملت عليه من أمور الدنيا التي لا تساوي عندالله جناح بعوضة .

فنقول باختصار : هي من المدن التي تقدم ذكرها بمنزلة الحاضرة من البادية . ومن أعلى أحد أبوابها رخامة مكتوب عليها : « بسم الله الرحمن الرحيم . قل هو الله أحد الله الصمد » فقط . وأبوابها من عمل المسلمين . وقد هد التقدم الكثير من سورها ولم يكن للكفرة اعتناء بهد ما بقي منه ولا بإصلاحه .

ولما زادوا على البنيان الإسلامي من خارج السور ، بقي السور داخل بنيانهم المحدث في غاية التلاشي . وما هو من البنيان داخله وخارجه في جدة واتقان . وأثر هذا السور أبقوه على حاله شاهداً (على)أن البلاد كانت للمسلمين . وهذا أثرهم . أعادها الله للإسلام .

وقد نزلنا بدار مختارة من ديارهم اشتملت على مقاعد عديدة وغرف

ومنازه ، الكل استوعبه ستور من الكمخة حيطاناً وسقفاً ممكنة في القائم والمبسوط بمسامير مذهبة . والمبسوط في جميعها من عمل الترك .

ويجنب هذه الدار بستان فيه أصناف النوار وبعض أشجار التين . وما زال القوم يترددون إلينا بقصد السلام علينا والترحيب بنا .

ومن غداة وصولنا أخذوا في تزيين بلاصاتهم من مدينتهم واحتفلوا لها بزيادات كثيرة عما شاهدناه بالمدينة التي قبلها ، إذ لا نسبة بين الأولى وهذه في الكبر والعمارة وسعة أهلها في المال . وجمع المراكيس [1] بها والأعيان من القسيان . ومن بعض الزيادة التي بهذه الديار المحيطة ببلاصتهم أن أبواب المقاعد التي يعبر منها للصقالات المذكورة جعلوا عليها ستوراً من الكمخة على ألوان منها ما هو من الديباج المذهب ، غير أن كل لون مباين للذي يليه في الطبقات الأربع ، واقية من حر الشمس ، كما موهوا الستور التي بين المقاعد من خارج بالقماش من الصفة . وهذه المقاعد معينة حال الفرجة لأربابها ، منها ما هو بالملك ، ومنها ما هو بالكراء . والفاصل بين كل مقعد والذي يليه من خارج في بسيط الصقالة ، لوح من الخشب علوه خمسة أشبار . والسر في جعل الفاصل من خمسة أشبار . إستيعاب من بالصقالة بالنظر ، بحيث لا يحجب عن جميعهم من بسائرها من الرجال والنساء . فالجالس على الشلبيات ، إذا أرسل طرفه يميناً وشمالا يشاهد ما يشاهد منه بالصقالة التي هو بها .

وأما الصقالات الثلاث ، يمنى ويسرى والمقابلة لا يفوته منها شيء حيث لم يحجبه عنها حاجب . ولما حللنا هذه البلاصة ، تلقانا حاكم البلد وأعيانها بالرحب والسعة . وصعدنا لمقعد هو من أحسن المقاعد وجعلوا به ستاراً من الديباج وشيلات لم ير مثلهن. وقد استملت الصقالة

---

(١) جمع مركيز Margués من الألقاب الاريستوقراطية العالية .

التي نحن بها بالنسوة والبنات المقطوع بحسنهن . ولبسن من الحلل ما يناسبهن وتقلدن من اليواقيت ما لا يصفه واصف . والحلل مختلفة الألوان والقيم على كل مقعد يرتب الصفوف . ويجلس النساء والبنات جنب هذه لهذه . ويخالف بين الألوان في الحلل حال الجلوس . فالناظر للمقاعد المظللة بأنواع الستور . على اختلافها في الألوان وتخالف ألوان الحلل التي على النسوة . يحسب ما يشاهده من ذلك بطائح من النور مختلفة الألوان .

وأما كيفية لعبهم ومبارزتهم للثيران ، فلا زائد على ما تقدم ذكره في ذلك .

ولما حان وقت انصراف القوم لإقبال الليل . تقدم إلينا أحد المراكيس وهو من أعيان القوم لقرابته من طاغيته . ومكانته المكينة عنده وبيت مال عظيمة الذي هنالك تحت يده . ومفتاحه من الذهب معلق في عنقه بسلسلة من الذهب أيضاً ، بحيث كل من رآه يقدر قدره ويخاطبه بما يناسب مرتبته من الأدب . والحاكم بنفسه إلى نظره . فرحب بنا وعظم وخص وعمم وطلب منا الوفاء بما كنا وعدناه به من الوصول إلى داره قبل ، فأجبناه بما طلب . على أن يكون ورودنا عليه بعد العشاءين . فانشرح لذلك وانصرف كل لحال سبيله . وبالوقت الموعود ، بعث بكدشين مع حاكم البلد وأصحبها عدة من الخدمة وبيد كل واحد منهم شمعتين فذهبنا في عز وكرامة إلى أن حللنا الدار ، فإذا بالباب القاضي وأعيان القسيان والمراكيس وخدمة آخرون حاملين للشمع الذي قدر القامة فأقبلوا علينا بالترحيب والتعظيم ، وأخذوا بأيدينا وصعدوا بنا إلى أعلى الدار بمدرج من الرخام تسع خمسة وعشرين رجلاً جنباً لجنب ، كل واحد يليه الآخر إلى أن انتهت بنا المدارج لثلاثة مقاعد كل مقعد يزيد طوله على أربعين خطوة ، وعرضه خمسة عشر ، وقد ستروا حيطان

المقاعد بالقماش المسمى ببركال [1] والموبر والرابط بين طرفي القماش حمائل منسوجة بخيط الذهب . عرضها أربعة أصابع ، وجعلوا هذه المقاعد من المرايا والثريات البلورية المنظمة كالشمع العدد الكثير . والمقاعد الثلاثة أحدها استقل بالنسوة ، والثاني بالأعيان . فسيانا ومراكيس والقاضي . وبعض الفرايلية . والثالث خاص بأهل الموسيقى فذهبوا بنا للمقعد الذي به النسوة والبنات . لأن الليلة هي ضيافة نسائهن وتلك عادة جارية في أعرافهم ، فلما أقبلنا عليهن قمن على قدم وجعلن يرحبن ويبدين من الفرح بنا ما لا يكيف . والترجمان يترجم بيننا وبينهن . ورب الدار والقاضي وكثير من أعيانهم كل يُعرف بزوجته أو بنته أو بهما معاً . وكلما شكرت واحدة غارت الأخرى . فنعبر على ما يدل على استحسان الكل منهن . فإذا برب الدار الذي هو معظم فيهم لوفور عقله وكبر سنه وله مكانة عند سلطانه . إلى غير ذلك مما يستدل به على دهائه وعظمته في قومه ، قام بنفسه . على ثقل حركته وضعته في السن ، وأخذ بيدي بنتين مراهقتين في غاية الحسن وأوقفهما بين يدي أهل الموسيقى وجعلتا تغنيان بأصوات حسان ما سمعت ولا رأيت أحسن منهما صورة وصوتاً وأهل الموسيقى يجيبونهما .

وبعد الفراغ من غنائهما ، أتى بهما الرجل المسن العاقل الأمين ، وجعل يسألني : هل أعجبني غناؤهما ، وكيف كانت المغنيتان فشكرتهما له حتى أني قلت له لم أسمع صوتاً مثل صوتهما ، ولا رأيت من يشاكلهما في الحسن ، فانشرح لذلك وجعل يُعرف الحاضرين بما أجبته به ، فقال : هما بنتاي فدعوت لهما الله تعالى أن يسلمهما (أي يهديهما إلى الإسلام) وجعل يندب البنات التي حضرن هناك للرقص واحدة بعد واحدة ، وكلما

---

(١) Percal نسيج رفيع مشهور .

قامت واحدة يعين هو واحداً من أعيانهم للرقص معها . وقد اعتذر هو بنفسه لثقل حركته فعذرناه .

وما زال من حضر من أعيانهم يحدث عن محاسن زوجته . ويلزم الترجمان أن يبلغ ذلك إلينا لنجيبه بما يقصه عليها من استحساننا . ولهم بذلك اهتمام وولوع يفتخر بعضهم على بعض لذلك .

ولما انفصل الجمع ورجعنا لموضعنا . ونحن نستعيذ بالله مما عليه هؤلاء الكفرة من عدم الغيرة وتوغلهم في الكفر . نسأل الله سبحانه ألا يؤاخذنا بما اقترفناه من مخاطبتنا إياهم بما أوجبه الوقت وتعين في الحال .

وبعد إقامتنا هنالك خمسة أيام[1] إستعملنا السير ليلاً لأجل الحر الخارج عن الحد وعدم وجود الماء بالطريق المعبورة في يومنا . وكان رواحنا المدينة لابريخة عن خمسة عشر ميلاً جلها أشجار الزيتون وأرض حراثة على الجهات الأربع .

الخبر عن مدينة لابريخة

هي مدينة متوسطة بين الكبر والصغر والحضارة والبداوة ؛ بل إن أهلها بادون محض . وبنيان ديارهم غير شاهق . وبها قصبة في غاية العلوّ بنيت بقنة جبل . وهي من عمل المسلمين رحمهم الله ! وهذا الجبل صغير في الإستدارة عظيم في الصعود والأرجاء المحيطة به على الجهات الأربع في غاية البسط حتى أن سور القصبة مشيد على شفير حافة الجبل والحفير دونه باق على حاله ؛ ولم يبق من سورها والأبراج إلا ما دون القامة . وبها عدة مواجن يجتمع بها ماء المطر . وقد شاهدنا من هذه

(١) أقام السفير ابن الغزال في مدينة شريس ، خلال الفترة بين ٩ – ١٥ يوليو ١٧٦٦ م .

القصبة ببسط أرجاء المدينة غدراناً عديدة كالأودية . ومنها يظهر لمعان الوادي المنحدر من مدينة اشبيلية على بعد بائن جداً .

وقد استقل غربها بأشجار الزيتون . وشرقها إختص بالحراثة وبداخل المدينة عدة سواقي . تسقى منها بعض الأغراس هنالك . وأما شرابهم ، فمن عين قريبة من المدينة . وهنالك العدد الكثير من معاصر الزيتون . أقمنا بها بقية يومنا وسافرنا ليلاً . وكلما رحلنا عن دار يتقدم أمامنا بعض أصحاب الطاغية المصاحبين لنا في طريقنا للدار التي بها مبيتنا ليعلم أهلها فيتهيئون للملاقاة ، ويعينون الدار المناسبة لنزولنا وينتخبوا من الفرش ما يدل على امتثالهم لأمر الطاغية من التعظيم والتبجيل ويبرزون للملاقاة نساء ورجالاً وصبياناً ويبدون من الفرح والمباشر ما لا يكيف وتبعث صحبتهم القيم الذي هو معد معنا للطعام . بحيث إذا حللنا المدينة نجد الدار مهيأة بما يحتاج إليه من طعام وغيره . والمدينة التي كان رواحنا إليها ، هما مدينتان . تتصل الأولى بالثانية ، والفاصل بينهما طريق في غاية الطول والعرض . إحداهما للسلطان بلا فرنكاً والأخرى لوزيره بلا صيوص ، فسميت المدينتان بإسمهما .

الخبر عن المدينتين بلافرنكا وبلاصيوص (١)

حللناهما من خمسة عشر ميلاً ، وهما مدينتان صغيرتان وأهلهما للبداوة أميل . ولامرية في أنهما من بقايا الأندلس ، وقد التقينا برجل من طلبة المدينتين اسمه بلاشكو ، وهو من أعيان العدول عندهم وقد أظهر من الميل إلينا ما غلب على الظن أنه مسلم ، وصار يشير بإشارة خفية ويكثر من الإلتفات حال مخاطبته إيانا ، ولم يستطع التصريح بما في باطن الأمر

---

(١) Palacios Y Villofranca بلدة من أعمال اشبيلية .

وجاء ببنت له عليها أثر العربان بعيدة عن الشبه بالروم خَلْقاً وخُلُقاً .
وفي عشية يومنا وردت عدة بنات من مدينة وطريرة [1] كنا رأيناها ضحوة عن يمين عبورنا قريبة منا جداً ولم يمكننا الدخول إليها ، وبقي في الخاطر شيء منها حيث كانت من مدن الإسلام والمراد منا أن نتعاهد أماكنهم ونترحم على تلك العظام النخرة باستعمال الخُطا على معاهدهم . فإذا بالبنات الواردات منها بقصد السلام علينا ، هن وأهل المدينتين واحد في الخاق والخلق وقد غلب عليهم الحسن ، ودمهم دم العرب وأخلاقهم مباينة لأخلاق العجم وميلهم للمسلمين وتحننهم للجنس وأسفهم عند التشييع يقطع أنهم من بقايا الأندلس وقد طال عليهم العهد وربوا في بحبوحة الكفر والعياذ بالله ! .

والكثير من ألقابهم موجودة عندنا في الإسلام ، كغبريره وقرطناش وبريشه وابن بيدس (ابن باديس ؟) وارميرو وافوريكو واللمب وأولاد خويا وخيرون وراغون وبائص ومنضوضه [2] وغير ذلك .

ثم رحلنا بين العشاءين لبعد المسافة التي بيننا وبين مدينة اشبيلية عن خمسة عشر ميلاً . والمراد من ذلك أن يكون وصولنا إليها بعد الظهرين فلذلك استعملنا السير من أول الليل . لأن المدن المعتبرة يقدمون الكتب المتضمنة طلبهم هنا اللحوق لبلادهم أول النهار ليتهيأ جميعهم للملاقاة وإبرازهم للترحيب خارج المدينة وداخلها ، إلى غير ذلك مما يجب عليهم من أداء الحقوق التي أوجبها عليهم طاغيتهم ، فلا يسعنا إلا الإيجاب . وكل مدينة نشاهد مباشرة أهلها ما فيه زيادة على من تقدمهم ، كل ذلك من فضل الله تعالى ، وما أودع الله في سيدنا المنصور بالله من السر والعظمة في

---

(١) Utrera ، مدينة من عمل اشبيلية .
(٢) اسر اندلسية لها فروع نزحت إلى المغرب الأقصى .

نفوس الإسلام وانقياد الكفرة لأمره المطاع ، حتى إنهم إذا ذكر إسم سيدنا ، أيده الله ، وهم حاضرون. ، لا يسعهم إلا نزع الشماريز عن روؤسهم، طاغيتهم فمن دونه ، تعظيماً لجناب سيدنا وتبجيلاً . وفي ذلك آية يستدل بها على عز الإسلام ونصر دين الله القويم وتأييد سيدنا المؤيد بالله وعظمته .

الخبر عن مدينة اشبيلية

لما أشرفنا عليها ، شاهدنا من عظيم بنيانها وارتفاع ديارها وتعدد الصوامع بها ما ذكرنا بمصر في طولها وامتدادها وصعود مئاذنها ؛ وجري النهر بناحيتها ، وعمارته بالأجفان التي لا حصر لها وقد برز من الخلق للملاقاة مالا يأتي عليه الحصر خاصة وعامة ، نساء ورجالاً . وقد تقدم القوم الحاكم والقاضي وجماعة من أعيانهم بأكداش عديدة ، وأهل الموسيقى مصاحبون للجميع . ولما اختلطنا بالقوم ترجل جميعهم وأدوا الواجب كما يجب ؛ وبالغوا في التعظيم والتبجيل والمباشرة اللائقة بالمقام الإسلامي الذي جعل الله لعباده المؤمنين من غير اعتبارهم لذلك . وإنما خضوعهم وإذعانهم وامتثالهم وانقيادهم بالخاصية لأهل توحيده . ولو كان ذلك خاصاً بأمر طاغيتهم ، لظهرت المباشر من بعض دون بعض ولما كانت نورانية الإسلام هي الفاعلة ، إستغرقت الكل منهم في الخدمة والإمتثال . ثم بعد ذلك ، قدموا لنا أكداشاً ركبناها لجودتها عن الأكداش التي كنا بها ، وكل ذلك زيادة في التعظيم والترحيب ، وضربت علينا الموسيقى وغيرها من آلات الطرب ، وذهبنا في خلق كأنهم جراد منتشر . وأحدق بنا الشلطاظ بالسيوف المصلتة لرد القوم عنا ، ومع ذلك سرنا في ازدحام عظيم .

ولما انتهينا لشط الوادي ، وجدنا به أشجاراً ممتدة بساحله في غاية

العلو والضخامة لا تما لها ، وإنما هي للظل فقط ، فعبر بينها وبين سور المدينة ما يقرب من ساعة لأجل الإزدحام وأهـل المراكب يخرجون المدافع عن يسار العبور ، وأبراج المدينة يخرجون المدافع عن اليمـين فأخرج من المدافع في ذلك اليوم نحو الثلاثمائة مدفعاً . ودخلنا المدينة في هيئة لم تعهد منهم إلا في دخول طاغيتهم ، على ما حدث به الجم الغفير ولم يزل القوم منكبين علينا حتى دخلنا الدار المعينة لنزولنا بأمر طاغيتهم فإذا هي داخل قصبة أحد ملوك الإسلام . وقيل أنها كانت للمعتمد بن عباد رحمه الله . وهي عندهم محجرة لم يسكنها أحد ولا يدخلها إلا إذا أتى طاغيتهم بنفسه ، أو القيم على نظافتها وتفقد أحوالها ، مما عسى أن يحدث بها من سيل المطر وغيره . وحيث كانت محجرة بقيت على جدتها إلى الآن . فهي من الديار التي لم تسكن مثلها بالبلاد الاصبنيولية بالكلية الاماكن بغرناطة على ما قيل .

وقد شاهدنا منها ما يكل الواصف عن بعض بعضه مـن فخامـة البنيـان وتعدد القباب والغرف والمقاعد والمنازه . وقد استوعب جميعها الرقم المعجب من عمل الجباص والنجار والترليح [1] بالتسطير والخطوط المشرقية والكوفية وصنائع أبدع المهندس في إنشائها غير معهودة والتمويه بالذهب في الخشب ، وبعضه بالجبص حيطاناً وسقفاً . وبإزاء هذه الدار ، رياضات وبساتين أحاطت بها من الجهات الثلاث ، يأتي ذكرها ، كما نصف كيفية بناء القبة الواحدة من الديار المذكـورة ويحال عنها ما عداها ، إن شاء الله تعالى في محله .

ولنرجع لما هو الآكد والأولى من الكلام على مباشرة القوم إيانـا وفرحهم بنا وتردد أعيانهم علينا :

---

(١) Azulejos بالإسبانية .

منذ حللنا الدار وهم واقفون على قدم في تنظيم الشمع بمنارتها الفضية والبلورية ، وتزيين المقاعد بالفرش المنتخبة للنوم، زيادة على المقاعد المعهودة عندهم للجماعة ، ودفعوا للقيم لعمل الطعام ما هو كاف لضعف الضعف من جماعتنا من أصناف المأكولات على اختلافها .

والمباشر لذلك ولد حاكم البلد نائباً عن أبيه لمرضه . فإذا هو نصراني صاحب عقل ومروءة في أبناء جنسه ، وقد أحسن المباشرة والأدب . ولم ينفصل عنا قط ، وفعل من الخير ما رغب في إبلاغه لطاغيته .

ومن الغد بعث القاضي يستأذن في المجيء إلينا . فأذنا له ، وقد تقدمه ثلاث رجال من الأعيان نائبين عن أهل المدينة في السلام علينا ولقنوهم ما يقولون . وقد صاحبهم عدد كثير من الخلق ، فتقدم الرجال الثلاثة وتأخر من عداهم من القوم ، فجلسوا أمامنا وتكلموا كلاماً خفيفاً جامعاً شاملاً لما اقتضاه الوقت من أنهم بعثوا من أهل المدينة معترفين بفضل السلطان ، أيده الله ، حيث امتن على جنسهم بهذه المهادنة وهم يطلبون من الله تعالى أن تكون دائمة متصلة . وقد أمرهم طاغيتهم بالفرح بالباشدور [1] والإمتثال لأمره ، وكل ما يحتاج إليه سيدنا ويأمر به يقضى جميعه وما نحن إلا عبيد وخدام ، والمدينة مدينتكم . فأجبناهم بما يناسب وحدثناهم بما تطيب به نفوسهم من قول سيدنا على عظيمهم ، وأنه متقدم على عظماء الروم ومميز عنهم ، حتى أنه ، أيده الله ، سرح لهم عدة من الأسرى من غير جنسه ، إذ ولده هو الحاكم فيهم إلى غير ذلك مما في معناه من امتنان سيدنا على طاغيتهم وتفضله عليه .

وقد انصرفوا عنا فرحين مسرورين ، يحدث بعضهم بعضاً بذلك وفي إثرهم ورد علينا القاضي وجماعة مع أحد وزراء الطاغية ، كان بعثه

---

(١) Empasador سفير .

إلى هنالك لغرض ولم يعرف به أحد . وكأنه استكتمهم وجاء مصاحباً للقاضي مسلماً ومختبراً . ولما رأى ما يسره ، خبراً ومخبراً ، عرف حينئذ بنفسه . فجددنا السلام عليه وخاطبناه بما يناسب ، وانصرف من غداة ملاقاتنا إياه لحضرة عظيمة مخبراً بما رأى وما سمع . وقد طلب منا ولد الحاكم ضحوة اليوم الثالث أن نذهب معه للوادي بقصد الفرجة والنزهة فجاء بأكداش ولم يسعنا إلا ركوبها جبراً الخاطرة ، وذهبنا بوسط المدينة في جمع عظيم ، فلما انتهينا إلى الوادي ، عبرنا القنطرة ، فإذا بوسطها قلوع محمولة على صواري واقية لحر الشمس وبظلها زرابي وشليات عديدة وطلب منا الجلوس هنالك ففعلنا ، ولم نر في ذلك كبير فائدة ولا فرجة نستحسنها ، فلم نشعر إلا والمعلمون النجارة والكثير من البحرية ما يزيد على المائة ، يقلعون ألواح فراش القنطـــر بأقراص وحركات مسرعة لقلع الألواح والفرود ، فسألناعما يفعل القوم ، فقال لنا ولدالحاكم : انه يريد فصل القنطرة وإخراج إحدى السفن الحاملة لها عن المحل الذي به مرساة ليحصل لنا اليقين بما هي عليه وتنكشف حقيقتها حتى نكون منها على بصيرة في الظاهر والباطن . وانفصال هذه القنطرة يشيع في البـــلاد الاصبنيولية ويعلم منه أننا أدينا بعض الواجب من الفرح بكم . فإن فصل القنطرة عندنا لا يكون إلا لأحد أمرين : إما السيل الفادح الذي يخشى من تتابعه علينا ، فنحتل لها بجمع عظيم ، ونخرج مركباً أو مركبين عن ترسيتهما . فإذا رجع السيل عادت لمحلها في الحال . وإما لورود سلطاننا على البلد ، فنستعمل ذلك فرجة له وفرحاً به ، وأنتم عندنا بمنزلة سلطاننا ولو كانت لدينا فرجة أعظم من هذه لابتدرنا لها ، فجزيناه خيراً ، وطلبنا منـــه أن يبقي القنطرة عـــلى حالها ويكتفي بالعلم بها واليقين ما حدث به وشاهدناه عياناً ، ولا زائد على الإكرام الصادر والفرح بنا من غير انفصال القنطرة ، وأخرته عن ذلك جهدي لما فيه من المشقة الفادحة مع

تعطيل الذاهب والآيب بين المدينتين مع ما يضيع من الفرود والمسامير لإخراجها غير سالمة ، إذ نزعها من المحل الذي هي فيه بعنف ، فلم ينصت لذلك وتمادى المعلمون على انفصالها ، فحصلوا على المراد في أقرب مدة ، وأسجوا أحد المراكب العظام ، مستديرة بكبر طيه صواري في غاية الغلظ صاعدات ، وقد شاركتها فرود من أعلاها مبسوطة بأعلى رأس الصواري ، وعليها تسمر الفرود المبسوطة للمرور عليها . وقدر الفرجة الذي بين المراكب والذي يليه قدر فرد طوله ثلاثون شبراً . وطول هذه القنطرة مائتا خطوة وعشر خطوات ، وعرضها ثلاثون خطوة ولها ستائر حافظات للمار من السقوط عند الإزدحام ، وبوسطها قبة من اللوح يسكنها من عين لحراستها من آفات النار .

ثم أعيد المركب لموضعها وألقيت عليها الفرود وأثبتت بمسامير قدر الذراع ، ورجعت القنطرة لمحلها في أقرب من ساعتين وعبرنا عليها في الحال للمدينة المقابلة لأشبيلية وهي مدينة قريبة منها في الكبر وضخامة البنيان وهي المسماة بطرانة .

وقد برز أهلها لملاقاتنا وفعلوا ما فعله أهل اشبيلية ، من تعظيم وترحيب ومنذ حللنا القنطرة وأهل المراكب يخرجون المدافع الكثيرة ؛ وعند الأوبة تلقانا بطرف القنطرة من ناحية اشبيلية خلق كثير خيولاً وأكداشاً وراجلين أكثر مما شاهدناه في الملاقاة الأولى ، وذهبنا في ازدحام عظيم خارج المدينة وداخلها إلى الدار المعينة لنا وما زالت الجموع مجتمعة هنالك إلى الليل ، الكل ينظرون رؤيتنا ، نتحصل من ذلك أن هذا الجنس الإصبنيولي على قلب رجل واحد ، وذلك الرجل مستغرق ببعضه وكله سيدنا أيده الله قلباً وقالباً ، والظاهر دال على الباطن .

ومن العجب استغراقهم في محبة الإسلام ، على أن هذا الجنس هو أشد عداوة وبغضاً للمسلمين ، حتى أنه يلقب بالعدوّ الأزرق ، ثم استحالت

عداوته محبة ومودة ، كل ذلك من مرد مولانا المؤيد بالله ، والأسرار التي أودع الله تعالى في عبده .

ومما يغلب على الظن من ظهور انقيادهم وامتثالهم وإذعانهم ومحبتهم وفرحهم بالمسلمين ، أنهم إذا عرض عليهم الإسلام لأجاب جميعهم لو لم تكن بين ظهورهم الفرايلية ، وهم أكثر القوم فرحاً بهذه المهادنة ويبدون من الفرح بالمسلمين ما لا يكيف ويسامحون بكل عزيز عندهم في هذا الصلح ، إلا ما كان من محافظتهم على دينهم ، وهذا ما أبدته الفراسة في القوم عند مباشرتهم واختبار أحوالهم من غير لفظ ولا إشارة إلا ما كان من بعض بقية الإسلام . فمنهم من لفظ ومنهم من أشار . نسأل الله تعالى أن يهدي جميعهم للإسلام .

ولنرجع للكلام عن كيفية الدار المذكورة ووصف بعض ما اشتملت عليه من بديع الصنع ورائق النفس وضخامة البنيان على ما اقتضته حكمة المهندسين في ذلك ، ولم يكن مثلها بمدينة اشبيلية ولا في غيرها . وذلك أمر مسلم عند العجم . معترفون بالعجز عن ذلك . لأن حكمتهم استقلت بنحت الحجارة وضخامة البنيان وارتفاع الأبواب واستيعاب القباب والمقاعد والتصاوير ، وتذهيب بعض السقف وتزيين الحيطان بالقماش المرقوم المسمر بالمسامير المذهبة وتمدد السرايا والمنارات البلورية وما في معنى ذلك . وما عدا ذلك من عمل الجياص والترليج والنجارة ، فلا طاقة لهم بذلك ولا شك أن في عمل المسلمين حسن ونظارة وحلية تميل لهاالنفوس وفيها نزهة للناظرين .

فنقول على سبيل الإختصار : هي دار متسعة جداً لها أربعة قباب والمساحات الدائرة بين القباب محمولة على إثنتين وخمسين سارية من الرخام . وكذلك الأقواس من الرخام أيضاً . ومثل السراري والأقواس المذكورة في الطبقة العليا وصفة القبة الواحدة هي في نفسها

ستينيه [1] ولها ثلاثة أبواب دون الباب الأكبر الموالي للصحن . كل باب له ثلاثة أقواس محمولة على ساريتين من المرمر نافذة المقاعد وقباب بظهر القبة [2] وعن يمينها وشمالها . وسقف الستينية على شكل نصف نارنجة . استمل على تسطير مموّه بالذهب، وما فضل عن استدارة نصف النارنجة . فمن عمل الجياص المعروف عندهم بالرخوي غير أنه مموه بالذهب .

وبدائرة القبة مما يلي الأرض أزر [3] من الزليج بالتسطير والقضيب والخط فوقه ، وما فوق الخط إلى السقف هو من عمل الجباص ، تسطير وتشجير وتوريق ، بعضه مموه بالذهب وبعضه بألوان مختلفة ودفوف (Tinponos) . هذه القبة في غاية الطول والعرض والتسطير والتقشير والخط مستدير بتقويمها ، والقباب الثلاثة منها في الأبواب النافذة للمقاعد وازر الزليج وعمل الجباص ، غير أن سقفها مبسوط بالعمل المسمى عندهم بالبساط ، وقد استدار بحائط المساحات المقابلة للصحن أزر من الزلاليج على الصفة المذكورة، والخط فوقها، ثم رقم الجباص إلى السقف منه المموه بالذهب ، وبعضه بألوان مختلفة ، وسقف المساحات لم يكن مبسوطاً ، وإنما هو من العمل المسمى بالجفنة ، إستوعبه تسطير مذهب وقد خالطه بعض الالوان، والصحن مفروش بالرخام الابيض، وبوسطه خصة مرقومة علوها من الارض قدر قامة، وبوسطها أيضا خصة أخرى دونها في الحجم، يصعد منها الماء في الجو قدر ارتفاعهاعن الأرض.وبقدر مساحة هذه الدار بقبابها الأربع براح خارج عنها مستدير بها من الجهات الثلاث . شيدوا

(١) تقسيم هندسي مؤلف من ستين قسيمة . والقاعة التي يصفها المؤلف هي القاعة المعروفة بقاعة السفراء في قصر اشبيلية .

(٢) كذا في جميع النسخ فيما عدا « أ » بظهر القبلة ، وهو تحريف واضح .

(٣) جمع أزار : ما يلبس من البناء لتقويته وتمتينه Reves Timiento

به من المقاعد والقباب العدد الكثير ، منها ما هو نافذ للقباب المذكورة ومنها ما يدخل إليه من الصحن ، ثم براح ثان خارج عن الأول، وحكمه في البنيان ، حكم الذي قبله . وأما ما وراء ذلك فبساتين محيطة بهـذه البناءات من الجهات الثلاث ، والمدارج التي تصعد إلى الطبقة الثانية عن يمين الداخل للدار المذكورة خارجة عنها . وعن اليسار باب مشيد في غاية العلو يقابل باب المدارج المذكورة ، وداخلها أربعة مقاعد في غاية الطول محيطة بصحن هنالك ، ثم بعده براح قدر المقاعد الأربعة مع الصحن ومنه يدخل للرياضات الثمانية ، وقد تساوى علو المقاعد والبراح المتصل بها بالطبقة العليا من الدار ، مع علو المساحات الخارجة عنها المشيد بها ما ذكر من المقاعد والقباب، فصارت الطبقة العليا في الطول والعرض تسع العدد الكثير من الديار المعتبرة .

وقد شيدوا بهذا البراح المتسع من القباب والمقاعد والغرف والمناره والمخازن والحمامات والمساجد ما لا يأتي عليه الحصر ، منها ما يشاكـل القبة الموصوفة ، ومنها ما هو أحسن وأجمل ، ومنها ما هو دون ذلك وقد أبدع المهندس في ذلك كل الإبداع . وسقف هذه البناءات منها ما هو بالمطلع والشتيتان ، ومنها ما هو بالبساط المشتمل على أنواع التسطير والخطوط المشرقية والكوفية. وأما عمل الجباص والنجارة والتزليج في جميع هذه البناءات ، فشيء يتعجب منه في القائم والمبسوط ، كل ذلك من عمل المسلمين رحمهم الله . ومن هذه الطبقة يمر العابر للصقالات المحيطة بالبساتين من الجهات الأربع ، كل صقالة بوسطها مدارج نافذة لصقالة أخرى تحت التي فوقها ، وقد ضربت على بسيط الصقالة العليا أقواس محمولة على سواري وضعها المهندس على شكل غريب في البنيان جعل في بسيط الصقالات والسواري والأقواس المنعقدة عليها قدر شبر مبني بالأجر المموه بالجير ، ثم قدر شبر أيضاً بالحجر الأسود المفتت من

غير طين ، ثم بالأجر والطين ، ثم بالحجر المذكور وهكذا .

والسر في ذلك هو أن كل حجر فيه عدة منافذ ترمي بالمياه في الجو والأنابيب منها ما هو معرج ومنها ما هو صاعد في الهواء ، وقدر الأنابيب في جري مائها ، قدر الفصادة ، أو أكثر بقليل . والعجب هو نفوذه من سائر الأحجار في حال واحد ، مع تفاوته في الإرتفاع الفادح والإنخفاض البائن والمتوسط . وأما ما هو بأرض الرياض لم يبق له ما شاهدنا بأعلى الصقالة فائدة ولا كبير عمل يتعجب منه ، وذلك أن لأحد البساتين طرقاً مرصفة بالاجر ، وفي كل منعطف شكل خصة مرسومة بالآجر المزدج وبوسطها ثقب يصعد منه الماء دون القامة بقليل ، ثم يتبعه رشاش يميناً وشمالاً من بسيط الخصة ، ثم من الأجر المفروش بين الخصص ، كل آجرة بها عدة أنابيب ، منها ما جريانه منعطف ، ومنها ما هو غير منعطف . وبأعلى السور تصويرة آدمي وبيده بوق متصل بفيه ، يزعق فيه ولا يسكت إلا إذا انقطع الماء . وبهذه الرياض عدة صهاريج استوعب جميعها تصاوير يتدفق الماء من فيها ومن ثديها ومن صرتها ، ثم بوسط أحد الصهاريج خصة جعلوا فوقها قبة قدر وسعها ، وبأعلاها تصاوير عديدة ، وأسبحوا بهذا الصهريج فلوكة أعدوها لأهل الموسيقى يركبونها عند نزهتهم بالرياض المذكورة . وهذه الرياض اشتملت على ثمان بساتين أحدها استقل بأشجار الفواكه المختلفة الثمار ، والثاني اشتمل على أشجار اللشين ، والثالث بحائر وخُضر ، والرابع اختص بأنــواع النوار ؛ ثم الأربعة الأخرى استقلت بهندسة غريبة في النبات والتلاعب بالمياه والتصاوير وما يضاف لذلك .

فالأول رياض استقل بحركة المياه على الصفة المذكورة ، ونباته نور غريب ؛ والثاني رياض من الريحان ، له بابان ، فالعابر من أحد أبوابه يمر بأزقة ضيقة من الريحان غير كثيفة ، علو سورها دون القامة ، وغلظه

ثلاثة أصابع ، يذهب مستقيماً ثم ينعطف يميناً وشمالاً ، حتى يستوعب الرياض بالعبور ، ولم يدر من أين دخل ولا من أين يكون خروجه إلا بدليل عارف بما هنالك . وقد ظل بعض أصحابنا حتى بعثنا له من يرشده فهو بزيادة على مدينة النحاس المخبر عنها وعلى المحنشة المعروفة عندنا .

الثالث رياض به عدة صور من الآدمي ، لباسهم الريحان نابت من الأرض ، وقد كسا أشباحهم بحيث لا يرى منهم إلا الرؤوس وزنــد اليدين فقط . كل واحد من الصور بيده ماعون حرفته ، وغالبهم أهل الموسيقى . الكل يحسبه الناظر حياً ، ولا غرابة في اقتدارهم على التصوير وإنما الغرابة في نبات الريحان من الأرض واستدارته بذواتهم فكيــف يمكن صعود النبات من الأرض لستره الذراعين والساعدين واستدارته بهما إلى الزند ، ففي ذلك غرابة لا تنكر .

الرابع فيه عدّة أحواض ، والفاصل بين الحوض والذي يليه حاجز بالبنيان قدر ذراع من الجهات الأربع ، وقد اتصل به من داخل البنيان أشجار الورد ، غير أن نباتها على صفة غير معهودة لاتصال الأغصان واختلاط بعضها ببعض ، حتى صار نباتها كنبات السدر ، وعلوها من الأرض قدر علو الحاجز المذكور بالبنيان ، وعرضها في النبات دون المطول بيسير . ومن أعلى النبات مستو في البسيط ، وما زاد على الإستواء طولاً وعرضاً يقص بالمقراض ، ثم يخطون داخل هذه التربيعة تصاوير من آدمي أو أسود أو تشجير ، أو كتابة أو غير ذلك ، الكل بنقل الريحان .

وليس ريحانهم كريحاننا ، وإنما له شبه بالحبق يخرج من الأرض على ساق ، فإذا صعد في النبات قدر ستة أصابع ، إنتشرت أغصانه يميناً وشمالاً فيختلط نبات كل نقلة بنبات التي بجنبها ، فيصير النبات مستوياً في طوله وعرضه ، وما يخرج على الإستواء يقص بالمقراض وارتفاع هذا النبات عن الأرض قدر شبر ، وعرضه ستة أصابع . وما فضل من الأرض

بعد أن خطط ما شاء وأمن التصاوير وغيرها بالنقل ، فهو فارغ لا نبات له . وسور هذه الرياح ملتصق به أشجار النارنج ، وتربيته في الغراسة غير معهودة في بر الإسلام .

وكيفيتها أنهم يغرسون أشجار النارنج الطرية ملتصقة بالسور غصناً جنب غصن فتختلط الأغصان عند طلق اللقاح بعضها ببعض ، فتنتشر الخضرة في القائم من الأرض والمبسوط وفي ذلك نظرة .

وفي اليوم الثالث من حلولنا بالمدينة ذهبنا للجامع الأعظم الذي كان للمسلمين رحمهم الله ، وقد تهيأ لملاقاتنا القاضي والكثير من الفرايلية ، فصعدنا للمسجد بعشر درجات لارتفاعها عن الأرض المشيدة بها وقد استدار بجدرانها من خارج البنيان كالصقال قدر الإرتفاع المذكور حافظاً لجدار سورها . ومن نفس السور سواري ناتئة منه ، وفيما بين السارية والتي تليها ثمانية أشبار ، فهي بمثابة أبراج من السور . وزيادة في الإتقان والتوثيق ، فالسور والسواري من الحجر المنجور الذي لا يميز اتصال الحجر بالذي يليه فوقاً وتحتاً ويميناً وشمالاً إلا بعد التأمل التام لتخليصه في النحت والتقديم .

فعبرنا المسجد من آخر أبوابه الذي هو السابع ، فإذا بالمسجد محمول على مائة وعشرين سارية ، كل سارية مشطرة على أربعة وعشرين سطراً . عرضها أربعة وستون شبراً ، وطولها خمسة عشر قامة . وبين السارية والتي تقابلها ، ثمانية وأربعون قدماً . وبزوايا المسجد قباب اشتملت على تصاوير قائمة على أقدامها ، ومنها ما اختص بجمع ذخائر منارات وحسك وغير ذلك مما لا يعبر عنه لعدم المعرفة بما يسمى به . والكل من الذهب المرصع باليواقيت ، بمنطية وغيرها ، ثم مصابيح عديدة ذهبية وفضية ، ثم بوسط المسجد تربيعة بين سواري أربعة متسعة جداً محجرة بشبابيك من النحاس

اتخذوها لمصلاهم وجعلوا بها صلبانهم . وقد استوعبهـــا من التصاوير العدد الكثير من أرضيتها إلى السقف ، وداخل الشباك النحاسي شباك آخر من العود متصل به من عمل الخراط المشتمل على مارق وراق من التشجير الرائق المحكم . وبداخل هذه التربيعة شليات وكراسي يجلسون عليها حال قراءتهم . وهنالك مدارج في غاية الضيق يصعد عليها للمساحات بنصف علو التربيعة محمول عليها صناديق الموسيقى ، وبإزائها جعاب طولها من قامة إلى شبر ، كأنها من الرصاص . وبعضها من النحاس ، فإذا حركوها بما لها من الحركات يسمع صوتها من خارج المسجد بنغمات مختلفات .

وبصحن الجامع خمس وعشرون شجرة من النارنج وخصتـــان وصهريج واحد وبه بيوت يسكنها الفرايلية وصومعة خارجة عن المسجد تشاكل في التشييد صومعة الكتبية في العلو والضخامة . والصعود إليها من غير مدارج إلا أن هذه زادوا في محملها علواً فادحاً على ما اقتضاه نظرهم لحمل النواقيس بها . وعدد النواقيس التي بها الآن خمسة وعشرون ناقوساً أحدها ، وهو الأكبر ، وزنه مائة وخمسة وثمانون قنطاراً ، قيل أنه يسمع صوته مسيرة يوم .

ولما رجعنا من الجامع ، تلقانا ولد الحاكم بأكداش ركبناها ، وقد تقدم أمامنا وقد اختلسنا بقوله : نذهب من غير الطريق التي أتينا عليها لئلا نحصل في ازدحام لأن القوم في انتظار أوبتنا ، واستحسنا ما أشار به علينا ، فلم نشعر إلا ونحن ببلاصة ذات أشجار عديدة طويلة جداً خارجة عن المدينة قريبة من سورها . وللأشجار خمسة صفوف في غاية الإمتداد وهناك من الخلق ما لا يأتي عليه الحصر ، فإذا بالموضع محل مستراحهم ومن أعظم منتزهاتهم وبه يجتمع كل أنيس بأنيسه وحبيب بحبيبه من الذكور والإناث في كل عشية ، منهم من تحمله الأكداش ، نساء ورجالاً ومنهم من يأتي راجلاً ، وهنا درست مسطبات من الرخام بين صفوف الأشجار

يجلسون عليها لهذا الغرض ، وأصحاب الأكداش يعبرون بين صفوف الأشجار ثم يعودون ويستمرون على ذلك إلى الغروب . يفعلون ذلك كل عشية على التأبيد ، ما لم يمنعهم المطر الغزير وتتابعه .

وقد استثقلنا العبور في ذلك الجمع ومزاحمة القوم ، فإذا بالقاضي في كدش مصاحب لزوجته وغيرها ممن رغب في مؤانسته من النسوة فتحققنا أن ذلك عندهم لا حرج فيه ولا منقصة . وقصد ولد الحاكم بالمرور من هناك نزهة لنا وفرجة . وقد كان طلب منا مصاحبته لهذا المحل فاعتذرنا له بتلطف ، فاستعمل هذه الحيلة حتى حصل على مراده .

وقد اجتمع علينا كل من حضر إلى هنالك من الخلق ولم نخلص منهم إلا بعد الكد والتعب لما لهم من الغبطة والرغبة في ملاقاتنا والسلام علينا والترحيب بنا . وقد ظهرت عزة الإسلام وعظمة مولانا المنصور بالله في نفوسهم بالخاصية والحمد لله !

ومن الغد حتم علينا ولد الحاكم أن نذهب إلى الدار التي تصنع فيها المدافع والقراريط [1] ومقصوده بذلك إطلاعنا على الأمور التي نسأل عنها من قبل طاغيتهم عما شاهدناه بمدينة أشبيلية ، فيجدنا على بصيرة من الأشياء المؤكدة عنده ، وفيما أظن أنه مأمور من طاغيته بذلك ، ثم الدار التي يقرئون بها الصبيان ما يتعلق بأمور البحر إلى غير ذلك ، فأجبناه لما طلب وذهبنا معه ، فإذا بالطريق المعبورة نافذة للإسبيطال في غاية الكبر طولاً وعرضاً ، فاستوعبناه بالعبور ، فإذا فيه بيوت عديدة ومقاعد طويلة وبصحنه أشجار النارنج وخصص بالماء العذب وقد استقل بالنسوة المرضى والقيم عليهن مثلهن من النسوة اللواتي لا أهل لهن ولا مال . وبجنبه

---

(١) إستعمل المؤلف الكلمة الإسبانية Carreta ، عجلة لنقل المدافع أو غير ذلك .

الحاكم واقف على قدم يقرب ويبعد ، ولم يجحف بحق واحد منهن فتحصل من هذا إلا استيعابنا بالنطار نسوة المدينة وبناتهن ، كما لم يفت أحداً منهن رؤيتنا في ليلة واحدة .

وعند الفراغ من عمل ولد الحاكم من التقريب والتبعيد للنسوة : أقبل علينا طالباً أن نذهب للرياض الذي بجنب الدار لنجد بـه بعض الإستراحة من تعب الإزدحام ، فلم نجد بداً من مساعدته وقد اقتفى أثرنا كل من كان بالدار فوقاً وتحتاً ، نساء ورجـالاً ، فإذا بالرياض يضاهي ضياؤه نور الشمس من اتقاد الشمع بالصقالتين اللتين بأعلى السور والقدر الذي بين الشمعة والتي تليها ، قدر ذراع فما دون ، وطول الشمعة ثلاثة أذرع . ووضعوا بجدر السور وفي المقابل له من الترصيف منارات من الكاغيد على شكل القادوس واقية للهواء في كل واحدة شمعة والفرجة التي بين الفنار والذي يليه قدر ذراع .

وهناك طرق أخرى في وسط الرياض عـلى الصفة في الترصيف واتقاد الشموع بها يميناً وشمالاً ، ثم فنارات أخرى معلقة بالأشجار وهناك صهاريج استوعب حواشيها انتظام الشمع ، وكـذا الصهريج المتقدم ذكره ، صاحب الفلوكة ، استوعب جميعه شمعٌ مع كـبر الفلوكة الحاملة لأهل الموسيقى ، فهيئوا موضعاً بشط هذا الصهريج ، فما شعرنا إلا والنسوة يتزاحمن على المحل الذي نحن به ، الكل يطلب رؤيتنا إلى أن تفاقم الأمر للجاج فيما بينهن من شدة الإزدحام ، فطلبنا من ولد الحاكم أن نعود للدار ، وتعللت بعلة النوم وما ألم بنا من الألم الناشئ من السهر فأجاب . فلمـا تزحزحنا من المحل علم الكل بالإنصراف وتهيئوا للتشييع وذهب كل لحال سبيله .

ومن الغد ، استعملنا السير بعد الإعتراف لولد الحاكم بما هو عليه

من النجدة والأدب والصواب ووعدناه بإبلاغ ما رأينا منه من الترحيب والإكرام لطاغيته ، وذهبنا في حفظ الله وأمته قاصدين مدينة قرمونة عن ثمانية أميال .

الخبر عن مدينة قرمونة

مدينة في حجر ربوة وبقنة الربوة قصبة للمسلمين رحمهم الله . سورها في غاية الطول والعرض ، باق على حاله ، غير أن أبراج القصبة وسور المدينة هد البعض منه . وبداخل القصبة دار جيدة كانت في عهد عمّارها من المسلمين للمتولي أمر المدينة ، معدة لسكناه . والآن يسكنها حاكم البلدة . وأبواب المدينة صارت الآن في وسط بنيان أحدثه الكفار في الإرتفاع وإحكام التشييد . وقد برز لملاقاتنا على بعد من المدينة خلق كثير بخيول وأكداش ، فرحبوا بنا وأظهروا من الفرح والبشاشة ما لا يكفّ . وعبرنا المدينة بين رجال ونساء وصبيان إلى أن انتهينا إلى الدار المهيئة لنزولنا ، وهي من خير دور المدينة ، وما زال حاكمها وقاضيها يستأذننا في دخول الأعيان علينا بقصد السلام والترحيب بنا ولهم رغبة وغبطة في التحدث معنا ، وسؤال الأول كالثاني ، فلم يسعنا إلا الإيجاب .

وأهل المدينة أهل نظافة وحسن ، ولهم ميل للمسلمين وتحنُّن والكثير منهم ينتسبون ، فلله الأمر من قبل ومن بعد! وأرجاء المدينة في غاية البسط وجودة التربة . وقد استقل شرقها بغروس فواكه وأشجار الزيتون وغربها بالحراثة .

أقمنا بها يوماً وسافرنا منها ليلاً قاصدين مدينة ينة الفوينطي ، عن خمسة عشر ميلاً بين أشجار الزيتون مستقيمة الصفوف في الغراسة .

الخبر عن مدينة الفوينطي (١)

هي مدينة صغيرة بالنسبة للتي قبلها ، مشيدة على ربوة ، والقصبة للمسلمين ، وبها دار يسكنها المتولي أمرها في الوقت ، كما كانت على عهد الإسلام ، إلى غير ذلك مما هو مقرر من قبل ، إلا أن أهل هذه المدينة بعدويون محض . وقد برز منهم لملاقاتنا خلق كثير وفعلوا ما فعل من قبلهم من الترحيب والتعظيم . وتحت المدينة خنادق عديدة ، وقد ضربوا على كل خندق قنطرة ذات أقواس ضخام .

الخبر عن مدينة اسيخا

لحقنا بها ضحوة وقد تلقانا أهلها بالرحب والسعة وشاهدنا من فرحهم بنا ما فيه زيادة عمن تقدمهم .

والمدينة على شفير الوادي المسمى بشنيل عليه قنطرة في غاية الضخامة واتقان البنيان . أقواسها أحد عشر وعن يسارها عدة أرحـــاء متعددة الأحجار . وجريان الوادي مستوٍ مع الأرض استواء تاماً من غير حافة ولا جرف ، وبه دواليب تسقي بحائر وخضر ، وبشطه أشجار مستوية الصفوف من الأشجار العظام في العلو غير أنها لا ثمار لها ، وإنما هي للظل ذاهبة مع الوادي إلى ما انتهى إليه البصر .

قيل إنه كان على شط هذا الوادي مقاعد وأجنة معدة للنزهة على عهد المسلمين ، رحمهم الله ، وبعدهم . وقد اندثرت تلك المواسم وبادت ولم يبق إلا الآثار من الجدران فقط . وهذا الوادي يجد المقبل عليه في نفسه نشاطاً وانبساطاً بالخاصية ، لما حاز من النظارة والحسن ، في جريانه

---

(١) La Fuente de Campana قرية صغيرة من أعمال اشبيلية .

وبسط أرجائه وطيب هوائه وعذوبة مائه . وبكل عشية يخرج إليه جلّ من بالمدينة نساءً ورجالاً منهم بالأكداش ، ومنهم راجلين يستنشقون النسيم المتولد بأرجائه من جريانه ، وقد شاهدنا منهم العدد الكثير ، ذاهبين بشطه في أكداشهم آيبين ، وقد أخبرنا أن ذلك دأبهم وديدانهم بكل عشية في سائر الفصول .

وأما ديار المدينة، فمنها ما هو على عهد الإسلام من ضيق الشوارع والتشييد بالآجر وتقببته ، ومنها ما غيره الكفار وشيدوه بالحجر المنجور على عادتهم في بناءاتهم .

وبالجملة ، هي ديار جميعها في غاية الحسن . وبهذه المدينة عدة مساجد إسلامية عبرنا جميعها ، فإذا بمسجدها الأكبر له صحن به سبعة أشجار من النارنج ، والمساحات الدائرة بالصحن محمولة على إثنتي عشرة سارية من الرخام ، وداخل العتبة أربعة وعشرون سارية حاملة لبلاطات الجامع ، علوها كالشواهق ، وصومعتها كذلك . وللجامع خمسة أبواب . وأما سور المدينة ، فقد سقطت أبراجه وباقيه متلاش ، والبنيان داخله وخارجه .

أقمنا بها يومين للإستراحة ، وفي اليوم الثالث ، إستعملنا السير قاصدين مدينة الراملة على ثمانية عشر ميلاً .

الخبر عن مدينة الراملة (١)

مدينة مشيدة على ربوة وديارها غير شاهقة وشوارعها متسعة . وهي بين الكبر والصغر ، يليها من القرى العدد الكثير ، وأهلها أهل فلاحة . وقد استوعب أرجاء أشجار الزيتون من الجهات الأربع ، وبها خلق

---

(١) Rambla من أعمال قرطبة .

كثير . وقد انضم إليهم عند الملاقاة خارج المدينة من القرى القريبة منها قوم لا يأتي عليهم الحصر ، وأظهروا من الفرح والمباشرة ما فيه زيادة على من تقدمهم ، ونزلنا بخيار ديار المدينة المشتملة على عدد من المقاعد المزينة بالفرش المنتخبة مع ما يضاف إلى ذلك من اتقاد الشموع وإحضار الموسيقى وغير ذلك مما فيه تعظيم وإكرام .

وبصحن هذه الدار عدة أشجار من النارنج ، قيل إنه من غرس المسلمين وهناك قصبة كانت على عهد الإسلام هدها القدم ولم يبق منها إلا برج في غاية الطول والعرض ، وقد هيأ أهلها فرجة عند إقبال الليل بأن جعلوا فُرْجاً من الكاغيد كأنه صومعة داخله نواعير ومحرّقات شحنوها بالبارود على ما اقتضت حكمتهم ، ثم صوروا ثورين من الكاغيد أيضاً وشحنوا جميع جوارحه بالبارود، وقد حمل كلّ ثور رجل ، ولما اتصلت النار بذنب الثور ، جعلت المحارق تخرج من جميع جوارحه . ومن أعجب ذلك ، إخراج المدافع من البرج ثم يتبعها من المحارق العدد الكثير . غير أن إخراجها بشكل غير معهود ، وذلك أن في إخراج المحرقة الواحدة وصعودها للجو صنعة غريبة . وهي إذا توسطت الجو تعددت في إخراجها عدة محارق ، ثم تتبعها محارق أخرى ، فتتعدد أصوات المحارق في الجو كل واحدة بعشرة . وبين العشاءين ورد علينا للدار التي نحن بها عدة من الخيل ، فرسانها عليهم ثياب بيض، وبرؤوسهم عمائم ، وبأيديهم شموع توقد ، قدر كل شمعة ثلاثة أذرع . وقد تقدمهم رجلان حاملان لوحة قدرها في الطول والعرض أربعة أشبار ، مكتوب عليها بالقلم العجمي إسم الباشدور وتاريخ وروده على بلادهم ، وعلقوها بباب الدار التي نزل بها وانصرفوا عنا بعد أن أدوا الواجب ، وقد أكرمهم رب الدار ولم يفتهم منا إكرام .

ولرب الدار بتعليق هذه اللوحة مزية وافتخار في أبناء جنسه . واللوحة كتبت بأمر من أهل المدينة . وقد أمروا برفعها على الباب المذكور الخاصة منهم والعامة .

وبآخر تلك الليلة استعملنا السير قاصدين مدينة قرطبة على خمسة عشر ميلاً .

الخبر عن مدينة قرطبة

هي مدينة عظيمة هائلة مشيدة على شفير الوادي الكبير الجامع لأودية الأندلس ، وبشرقها جبل غير شاهق معمور بالزياتين والأجنة التي لا يأتي عليها الحصر ، وكذا الديار التي به . وهذا الجبل قريب من المدينة وإسمه سير مرين [1] شهرته أغنت عن التعريف به . ولما أشرفنا على المدينة من ربوة وشاهدنا ما شاهدناه من تشييد ديارها وصعود مأذنتها وتميز جامعها الأعظم لعلوه عن جميع المباني ، واستدارتها بالسور الإسلامي ، وجدنا في نفوسنا من الأسف عليها ما ضاقت أرواحنا من أجله ! كيف وقد تذكرنا من كان بها من المسلمين رحمهم الله فالأمر لله من قبل ومن بعد ! نسأل الله تعالى أن يعيدها دار إسلام !

وعلى بعد منها ما يقرب من مسافة، برز لملاقاتنا من الخلق ما ضاقت عنهم الأرض ، وقد قدموا لنا أكداشاً ركبناها ، وهي غير بعيدة من أكداش اشبيلية ، وذهبنا في وسط القوم بين أهل الموسيقى وغيرهم من آلة الطرب والأعيان راجلون أمامنا ، والشلطاظ يحدون القوم عنا . وكلما قربنا من المدينة تكاثر الخلق حتى أنهم ستروا أرجاءها بنشرهم على

---

(١) Sierra Morena .

الأرض ، نساء ورجالاً وصبياناً، الكل يرحب ويبدي من الأب في مباشرته ما يعجز عن تكييفه .

فلما انتهينا إلى القنطرة المضروبة على الوادي ، وجدنا بها من الخلق ما أوجب وقوفنا دونها نحو الساعة في انتظار فراغها من القوم الذاهبين أمامنا فإذا هي قنطرة من أعظم القناطر في العلو والفخامة ، لها من الأقواس ستة ، وبطرفها من ناحية المدينة باب المدينة ، والجامع الأعظم قريب منها جداً . وقد عبرنا أزقتها في صفوف من الخلق ، بين ديار في غاية العلو ، من خمس طبقات فأقل، لها شراجيب مطلة على شوارع معمورة بالصبيان . ولهذا الجمع من الخلق داخل المدينة وخارجها ضجيج منذ أشرفنا عليهم إلى أن حللنا الدار المعينة لنزولنا . ومعنى لفظهم بالعربية : الله ينصر سلطان مراكش !

والدار التي نزلنا بها من أجَلّ ديار المدينة وأجملها ، وهي لحاكم البلد ، ولم يألُ جهداً في انتخاب الفرش، وبسط الستور حيطاناً وسقفاً من الديباج . وقد اقتفى أثر صاحب اشبيلية في الإكرام والبر ، غير أنه لم يساعده الوقت للإتيان بكل ما أتى به صاحب أشبيلية لعمارة بلاده واتساعه في المال .

ومن الغد ذهبنا للمسجد الأعظم مصاحبين القيمين عليه من الترايلية وحاكم البلاد وقاضيها والنسيان المصاحب لنا في طريقنا المبعوث من طاغيته ، فعبرنا من أحد أبوابه ، فإذا هو من أعظم مساجد الدنيا في الطول والعرض والعلو الفادح ، حتى أن الأقواس المنعقدة على سواريه العديدة فوقها أقواس أخر لعلوّ سمكه .

ومنذ عبرنا هذا المسجد لم تفترّ لنا عبرة مما شاهدناه من عظمته وتذكرنا ما كان عليه على عهد الإسلام وما قرىء فيه من العلوم وتليت

فيه من الآيات وأقيمت فيه من الصلوات . وما عبد به الله ، وقد تخيل في التفكر أن حيطان المسجد وسواريه تسلم علينا وتهش إلينا من شدة ما وجدناه من الأسف ، حتى صرنا نخاطب الجماد ونعانق كل سرية ونقبل سور المسجد وجدرانه .

ولما انتهينا إلى المحراب الإسلامي ، فإذا هو باق على حاله لم يحدث فيه تغيير ، غير أن الكفرة حجروه بشباك من النحاس بحيث لا يدخله أحد ولم ندر ما السر في ذلك إلى أن فتح الله على فهم موجبه ، حسبما يسلمه كل مؤمن ، وذلك أن هذا المحراب اشتملت قوائمه وبناءاته على آيات قرآنية طهرها الله سبحانه ونزهها عن لمس الكفار ومباشرتهم لها ، وقد حماها الله جل وعلا بما ألقاه في قلوب المشركين . ولا مرية أن أسلافهم تشاءموا من عبوره لأمر حدث ، بسبب دخولهم إياه كان فيه وبال عليهم فحجروه بسبب ذلك ، وما زالوا مقتفين اثرهم بتحجيره . والمؤيد لهذا الفهم هو الجاؤهم لسكناه واحتياجهم إليه غاية الإحتياج ومع ذلك منعوا منه جبراً لأنهم يتخذون بيوتاً بهذا المسجد كيفيتها : إنهم يأتون للبلاط المتصل بسور الجامع يقطعون من كل ساريتين أو ثلاثة بلوح من الجهات الثلاث ، هي بيوت سُكنى أعيانهم ، وأي نسبة إلى هذه البيوت لنفس المحراب المشتمل على قبتين بالرقم وحسن التشييد .

فعلى كل حال ، إنهم ممنوعون منه بسبب ، وقد جاريت الكلام على شأنه مع بعض الثريالية لنستخرج ما عنده . وقد استحسنتُ فعلهم في تحجير المحراب ، وصادقته فيما يزعم ، من أننا « لا ندخل المحراب إلا وقت الصلاة فقط . ومن دخله في غير وقت الصلاة يخاف على نفسه الهلاك والعياذ بالله » ، فأجاب هو كذلك ! وهذا الكلام صحيح ، فهناك تحقق ما كنت أظنه ولم يبق لي فيه شك ولا ريب

وقد ألزمت كبير الفرايليه القيم على الجامع فتح المحراب ، فاعتذر بعدم وجود المفتاح في ذلك الوقت ، فلم نقبل عذره . وقد عاب عليه ذلك الحاكم والقسيان المصاحب لنا ، فلم يسعه إلا الإجابة .

فذهب وعاد عن فوره وبيده المفتاح ، ففتح ودخلنا من قبة متصلة به خارجة عنه ، وهو في نفسه قبة وشكله في البنيان مثمن كل ثُمُـن استقل بلوحة من الرخام طولها عشرة أشبار وعرضها سبعة أشبار ، وقد استدار بأعلى الرخامات خط كوفي في غاية الحسن والإتقان مفتتح : « بسم الله الرحمن الرحيم ، حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين » ثم بعده : أمر الإمام المنتصر بالله عبدالله الحكم أمير المؤمنين ، أصلحه الله بعون الله تعالى بتشييد هذا المحراب رغبة في جزيل الثواب وكريم المئاب ، فتم ذلك في شهر ذي الحجة الحرام سنة أربع وخمسين وثلاثمائة ، ثم يتلوه ما كان تتميماً لدائرة المحراب قوله تعالى : « ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن ، فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور » . ثم بدائرة ثانية فوق الدائرة الأولى : « يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون وجاهدوا في الله حق جهاده وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس ، فأقيموا الصلوة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير » . وبخارج المحراب يميناً وشمالاً : « بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق » . ثم يتلوه : أمر إمام المنتصر بالله عبدالله الحكم أمير المؤمنين ، مثل ما تقدم ذكره حرفاً حرفاً ، والتاريخ آخره ، وبوسط القبة الخارجة عن المحراب المتصلة به ثلاثة مقابر في صناديق من الرخام ، لم آل جهداً في البحث

عنها ولم أقف لها على أثر . وقد غلب على الظن أنها للمسلمين ، ولو كانت للكفار لاعتنوا بها بالتمويه عليها بالرقم والكتابة حسبما هي عادتهم في مقابر أعيانهم ، سيما وهم جاهلون بما هنالك . وقد أخذ الكفار بوسط الجامع تربيعة في غاية الوسع ، بين سوار أربعة عقدوا عليها قبة صاعدة في الهواء بعد أن هدوا عدة من سوار المسجد الرخامية وجعلوا موضعها سواري بالبنيان استدارة الواحدة منها أربع وستـــون شبراً ، فوسعت التربيعة بوسع السواري ، بعضها من بعض ، وقد استدار بالسواري شبّاك من النحاس المذهب ، وداخله شباك آخر من العود متصل به ، إتخذوا هذا الموضع مصلى لهم وجعلوا به صلبانهم مع تصاوير عديدة حائطـــاً وسقفاً ، بعضها من الذهب وجلها من اللوح والحجارة . وداخل هــــذا الموضع شلبات وبسوط وصناديق الموسيقى وجعاب من النحاس ، وبعضها من الرصاص ، فإذا حركوها بما لها من الحركات ، تتولد منها نغمات موسيقية تسمع من بعد بأنن ! وقد تقدم ذلك مفصلاً بجامع إشبيلية .

ثم مواضع أخرى منها اشتملت على ذخائر منارات ذهبية وفضية ومنها كالقبة المنظمة بما يُعجب منه مـــن أصناف اليواقيت والزمرد والجواهر وغير ذلك مما لا نعبر عنه لعدم المعرفة بما يسمى به .

ثم فتحوا لنا خزانة فإذا فيها ما شاكل برجاً مثمناً له شراريف من الذهب وبعضها من الفضة ، وهو بنفسه بعضه فضة وجله من الذهب ، جميعه منظم باليواقيت النفيسة ـ يَمَنْطيَّة فما دونها ، كل ذلك من أثر ملوكهم إذ عادتهم أن كل من ولي أمر رعيته أن يفعل مثل من تقدمه أو يزيد عليه في كل كنيسة من كنائسهم .

وهذا الموضع هو بمثابة الخزائن الحافظة للأمتعة والذخائر . ثم [توجد] مواضع أخر تسكنها الفرايلية وهي الأبهاء التي بين السواري المتصلة بسور المسجد

ثم قبة مثمنة لا يسكنها أحد ، وإنما هي عندهم معظمة محترمة لا يدخلها إلا من آمن ..

وقد اشتمل كل ثمن منها بسارية من الرخام حاملة لثمانية من القرابلية يحسبهم الناظر أنهم في قيد الحياة . فمنهم من هو باك ، ومنهم من يداه مبسوطتان للهواء ، ومنهم من عيناه شاخصتان لسقف القبة ، الكل واقف على قدميه .

وهذا الموضع لا يدخله أحد من غير القرايلية ، إلا من أراد أن يغفر له ولا يصل إليه إلا بعد بذل المال الذي له بال ، فوضعوا لنا شليات هنالك واسترحنا بالجلوس عليها ، وجعل كبير القرايلية يحدث عما كان عليه هؤلاء القرايلية في قيد حياتهم من العبادات والطاعات ، وما زالوا على حالتهم المعهودة والمعروفة منهم .

ثم قبة قريبة من المحراب يصعد إليها بعشر درجات هي من عمل المسلمين أظنها لاستراحة الخطيب ، لم يكن مثلها في البناءات العجيبة لما اشتملت عليه من رائق الصنع المشتمل على تزليج وتجبيص وتمويه بالذهب في الخشب والجبص وتعدد الألوان والخطوط المشرقية والكوفية وغير ذلك مما يتعجب منه ، وإنها باقية على حالها الإسلامية إلى تاريخه . وسواري هذا المسجد الرخامية إثنا عشر مائة وثمان وعشرون سارية .

وعلى ما قيل أنها كانت أربعة عشر مائة سارية وسبع سوار. فقد غير النصارى بعض السواري الرخامية بغيرها بالبنيان . فإذا اعتبر موضع السواري المحدثة ونسب لموضع السواري القديمة ، حصلت على العدد المحدث به . وطول هذا المسجد بالسواري ، ستمائة قدم وقدمان ؛ وعرضه خمسة وأربعون قدماً . وطول صحن الجامع قدر طولها والعرض

دون عرضها بقليل . والمساحات الدائرة بالصحن محمولة على سواري من الصفة ، وبوسطها أشجار النارنج ، عددها ثمانية وتسعون ، وثلاثة من النخيل واللوز ، ومثلها من الزيتون ، وأربعة وعشرون من شجر البلتز في غاية الطول ، وبه صهريج واحد وتسع خصص يصعد منها الماء ما يقرب من قامة . وصومعتها مشيدة على أحد أبوابها ومدارجها مائتا درجة واثنان وعشرون درجة . وأبواب الجامع ستة عشر سد منها بابان وبقية الأربعة عشر يعبر منها الآ ن .

وقد استدار بسورها الجامع محفَّظات يصعد إليه بعشر درج ، وعرضها عشرة أشبار . وسورها القائم موثق بسواري ناتئة من السور متصلةبه بل هي من نفسه . فهي بمثابة الأبراج من السور ، بين كل سارية والتي تليها عشرة أشبار . وبناء السور وسواريه من الحجر المنجور ، ولا يميز بين الحجر والذي يليه إلا بعد التأمل وإمعان النظر لإتقانـــه في النجارة والتقويم . وقد استوعبنا المسجد بالعبور من يومنا ولم يبق إلا بعض البيوت التي يسكنها الفرايلة لم يسعنا عبورها لإقبال الليل وإدبار النهار . وخرجنا من المسجد قرب الغروب ، وبقي في الخواطر شيء من البيوت التي لم تعبر ، على أنها ليست من الأمور الأكيدة ، وإنما هي بيوت تسكنهـــا الفرايلية عبرنا الجل منها وتحققنا مما هنالك . ومع ذلك وقع في النفس منها شيء وكلما أدافع الإهتمام بعودي لعبورها ، تجدد الإهتمام ، فلم يسعنا إلا أن الزمت حاكم البلد بالعود للجامع ، فأجاب ، فإذا بعتبة داخـــل أول بهو دخلته : لوحتان منالرخام متصلتان بالأرضمكتوبعلى كلواحدة منهما : « بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم » . ومن بعده تاريخ الجامع ومن زاد فيه على الأول من الملوك واحداً واحداً . فلما أشرفت على اللوحتين المذكورتين بادرتني العبرة وسقطت على اللوحتين أمرغ عليهما شيبتي وأزيل عنهما الغبار بلحيتي ، ولم أستطع

رفع رأسي عنها من القشعريرة التي أدركتني عند مشاهدتي لذلك . وفي الحال جمعت كبار الفرايلية وأقمت حججاً نشأت عن غيرة إسلاميـة لم يسعهم معها إلا قولهم « هم جاهلون بما هنالك » فقلت لهم : « الآن يرفع عليكم الجهل ، فما أنتم صانعون ؟ فقالوا : « ما تشير به علينـا وتأمرنا به في هذا وغيره » . فقلت لهم : « آمركم بقلع اللوحتين وجعلهما على سور المسجد » .

فأجابوا لذلك بعد أن راجوا وماجوا وجعل كبيرهم يواعد بقلعهما فجلست بجنب البيت الذي به اللوحتان ، وقلت للقاضي والحاكم والفسيان المصاحبين لنا : « لا نبرح من هنا إلا إذا قلعت هذ الحجارة ، أو أقيم بهذا المحل إلى أن يأتي أمر الطاغية بذلك » .

وما زال الحاكم والفسيان يتلطفون في السؤال والطلب في الإمهال إلى الغد لفوات النهار وعدم الإمكان في قلعهما ورفعهما للموضع اللائق بهما في الحال ، فلم يسع إلا الإجابة ، بعد أن أخرج الفرايلي من هذا المحل وقبض بيده مفتاح [البيت] الذي به اللوحتان[1] . ومن الغد . جعلتا بأعلى السور كما كانت في القديم على ما أخبرت به .

فكشف الغيب أن الإهتمـــام الواقع في النفس بالعود إلى الجامع واستيعاب ما بقي من الإبهاء بالعبور ، هو إلهام من الله تعالى وإرشاد لعبده وغيرة منه سبحانه وتعالى على إسمه وإسم نبيه عليه الصلاة والسلام .

وقد أدخر الله هذه الفضيلة لسيدنا المنصور بالله وجعل تطهير هذه الأسماء الشريفة على يده الكريمة وأثبتها في صحيفته ، كل ذلك اعتناءً من الله بسيدنا وتأييداً له . لو كانت نتائج هذا الصلح وفائدته الدنيوية

---

(١) في جميع النسخ : « قبض بيده المفتاح الذي به الحجرتان ، وهو تحريف واضح » .

والأخروية التوصل لقلع هاتين اللوحتين من المحل الذي كانتا به وأعداء الله تطأ عليهما للنت فخاراً عظامة بجانب سيدنا ، أيده الله ، اعتناء[1] لرضى الله تعالى ورضى رسوله صلى الله عليه وسلم ، مع ما يتقرّب[2] به من فكاك المسلمين من الأسر ، واستخلاص كتب الإسلام من بلاد الكفار المتخلفة عن عمَّارها من المسلمين ، رحمهم الله ، فيما سلف .

وقد بشرنا بالحصول على المؤمل ، حيث افتتحنا هذا الأمر الذي وجهناه إليه بالأمر المطاع بقلع هاتين اللوحتين وقد كان ذلك أول الفتوحات بحمد الله .

وأما أهل هذه المدينة القرطبية ، فجلهم أهل حرف ، ولم يوتوا سعة من المال : والمدينة في غاية النظافة ، وبينها وبين اشبيلية مناسبة في الحضارة والكبر ، غير أن أشبيلية أكثر منها عمارة بالخلق والمال . ولها سور من عمل المسلمين ، هُدّ بعضه ، وجلّه باق على حاله . وتحت قنطرة واديها عدة أرجاء ، والأجنة والأغراس دائرة خارج سور المدينة متصلة به لا يأتي عليها الحصر ، مشتملة على فواكه صيفية وخريفية . وبقرب جامعها الأعظم قصبة كانت للملوك المسلمين ، رحمهم الله ، يسكنها الآن قاضي البلاد . وبشط الوادي ، خارج القنطرة عدة ديار وإصطبلات لخيل الطاغية . هنالك أقمنا ثلاثة أيام وسافرنا قاصدين مدينة الكرابي ، على خمسة عشر ميلاً ، وقد تعين ذكر ما اشتملت عليه فنقول :

الخبر عن مدينة الكرابي (٣)

هي مدينة صغيرة بالنسبة لغيرها ، بنيت على بسيط من الأرض من

---

(١) كذا في جميع النسخ . ولكن السياق يقتضي قراءة : وابتغاء .

(٢) كذا في « ب » و « ج » . وفي بقية المخطوطات : يترقب .

(٣) El - Carpio مدينة — صغيرة من أعمال قرطبة تقع على النهر الكبير .

الوادي الكبير . وبأرجائها أشجار الزيتون التي لا يأتي عليها الحصر ، وأهلهـــا أهل بادية . وقد أحاط بالمدينة سور من عمل المسلمين ، رحمهم الله ، غير أن أبراجه ما زالت قائمة . وبالوادي دواليب تسقي بها بساتينهم وبحائرهم ؛ وبقرب هذه المدينة عدة مداشر وقرى . وبخارجها ثلاثة قناطر مضروبة على خنادق هنالك ، أخبرنا أن الخنادق في زمن الشتاء هي من الأودية العظام .

أقمنا بها يوماً وكان منها رواحنا لمدينة أندوخر ؛ عن واحد وعشرين ميلاً جميعها زياتين وأرض حراثة .

الخبر عن مدينة اندوخر (١)

هي مدينة مشيدة بشط الوادي الكبير يعبر لها على قنطرة في غايـــة العلوّ والضخامة . لها من الأقواس ثلاثة عشر ؛ وبين كل قوس والذي يليه ، قوس صغير غير واصل للماء ، معين للأقواس المذكورة حال السيل . وقد برز أهلها لملاقاتنا بعدة أكداش وخيول على بعد من المدينة مع ما انضم إليهم من الخلق المجتمع من المدن والقرى القريبة منهم ما لا يأتي عليهم الحصر. وقد أبدوا من الفرح والترحيب ما اقتنوا به أثر من تقدمهم .

وهي في نفسها من المدن المعتبرة في الكبر والضخامة ، وأهلها أهـــل حضارة ، وقد أخذوا نصيبهم من الحسن ؛ وأخبرنا أن الكثير منهم من بقية الأندلس ، ولا يستبعد ذلك ، لأن أخلاقهم ليست كأخلاق الروم وفي ميلهم للإسلام ومحبتهم ، ما فيه أكبر علامة لذلك . وبأرجاء المدينة من البساتين والأغراس شيء كثير . وهناك قصبة للمسلمين ؛ رحمهم الله .

(١) Andujar مدينة من أعمال جيان .

ومن جملة فرحهم بنا وإكرامهم وتعظيمهم إيانا ، أن هيئوا فرحة بالمحارق فيها . زيادة على ما شاهدناه قبل من تعدد الأبراج . وحشو كل محرقة بعدة محارق . وقد طلبوا منا المقام عندهم ليتداركوا ما فاتهم من الإكرام فجازيناهم خيراً واعتذرنا لهم ، وسافرنا ليلاً ، على العادة ، قاصدين مدينة بايلان ، على إثني عشر ميلاً . وقد تعين أن نخبر عن بعض ما اشتملت عليه ، فأقول :

الخبر عن مدينة بايلان (١)

هي مدينة صغيرة حضرية وأهلها أهل رفاهية وحسن خلق وأخلاق وقد بالغوا في الترحيب عند الملاقاة ، خاصة وعامة ، رجالاً ونساءً وفعلوا ما فيه زيادة عمن تقدمهم من التعظيم والتبجيل، لأن عادة هذه المدن المعبورة ، البحث عما فعله من تقدمهم ، والثاني رغبة وغبطة في الزيادة على الأول .

وقد استوعب أرجاء المدينة زياتين ، وفيما بينها وبين سور المدينة قدر ميل . وهذا الميل أرض حراثة تتصل بديار المدينة . وقد استدارت بسور المدينة أشجار التوت ، وبأحد نواحيها قصبة للمسلمين هُدت من الجهات الثلاث ، والجهة الرابعة باقية على حالها . لها ستة أبراج ، وفي وسط أبراج القصبة برج في غاية الطول والعرض . لم يحدث به تبديل ولا تغيير ، اتخذوه لخزن الزرع . وقد صعدنا لسطحه من مدارج في غاية الضيق اشتملت على مائتي درجة ، تنقص أربعة ، بقصد الفرجة واستيعاب نواحي المدينة ، فرأينا منه مدينة عظيمة في حجر جبل وبازائها قصبة الكل في غاية الجدّة ، فسألنا عنها ، فإذا هي مدينة من مدن الإسلام ،

---

(١) Bailén مدينة من أعمال جيان

إسمها بلنسية باقية على حالها الإسلامي . وكذا قصبتها . نسأل الله تعالى أن يعيدها دار الإسلام، على يدي سيدنا الكريمتين ، وما ذلك على الله بعزيز .

وقبل هذه المدينة بميل ، تركنا الوادي الكبير ، يميناً ودخلنا أرضاً ذات أشجار ووعر فادح ، فلم يسعنا إلا ترك الأكداش وركبنا خيلاً من خيول الشلطاظ الذاهبين معنا واستعملنا السير بين جبال صعبة بها معادن الرصاص . وكان رواحنا لدار بين جبلين معدة لمن يعبر سبيله من هنالك ، ولم تكن طريقاً غيرها قط . وإسم هذه الدار ابنط مراند ، عبرناها عن ثمانية عشر ميلاً . ومن الغد ، سافرنا بين جبال شاهقة ، إنتهت بنا إلى جبل له شبه بعقبة الحجاز ، وبقنته بنيان جعلوه علامة على حد الإقليم الأندلس ، وأول إقليم مانشا [1] . وأول مدينة من الإقليم المذكور ، كان بها مبيتنا ، مدينة البيسيو ، عبرناها على إثني عشر ميلاً .

الخبر عن مدينة البيسيو (٢)

مدينة بدوية وأهلها أهل فلاحة ، وأرضها أرض حراثة ، وبها تنتج البغال . وقد شاهدنا بفحصها من البغال تسرح أزيد من ميل . ومنها تستمد البلاد الاصبنيولية بالبغال . وبقرب منها وادٍ جارٍ لناحيتها عليه قنطرة عبرناها ضحوة من غداة يومنا في أثناء سيرنا لمدينة بلظبينيس حللناها على إثني عشر ميلاً ، ولم يأل جهداً أهلها في الترحيب والإكرام .

---

(١) La Mancha .

(٢) El Visillo .

الخبر عن مدينة بلظبينيس (١)

هي مدينة بين الكبر والصغر أهلها بادون محض ، وبنواحيها الأربع من الأجنة . وأغراس الفواكه ما يزيد على ستة أميال ، على ما حدث بسنة أهلها . وأما برأي العين ، فشيء لا يكيف . وقد نزلنا بدار عجيبة جداً من أحسن ديار المدن المعتبرة ، وقد بالغ أهلها في الترحيب والإعتذار عن إداء الواجب وطلبوا منا الإقامة عندهم ليتداركوا ما لم يمكنهم وجوده عندهم في اليوم الذي حللنا بلادهم ، فجاريناهم خيراً وقلنا لهم لا زائد على الإكرام الصادر منكم والمباشرة الناشئة عنكم ، واعتذرنا لهم بما هو مقبول عن عدم إمكان الإقامة وأخذنا السير في الثلث الأخير من الليل قاصدين مدينة منسناريس عبرناها عن إثني عشر ميلاً .

الخبر عن مدينة منسناريس (٢)

مدينة بدوية بين الكبر والصغر ، تلقانا أهلها بملاقاة من قبلهم بالرحب والسعة والتعظيم والإجلال ، ونزلنا بخيار دورهم ، هي لحاكم البلاد ، لم يأل جهداً في إيقاد الشموع وانتخاب الغرس ، وقد أتى بأهل الموسيقى على أن البلاد بدوية محض ، فتعجبنا من وجود ما استقر إجمالاً وتفصيلاً فكشف أنه احتفل لذلك قبل أن نصل إليه . وقد اقتفوا أثر من تقدمهم بإطلاق المحارق ، غير أنهم أتوا في إطلاقها بكيفية غريبة : تصعد المحرقة من الأرض للجوّ قدر القامتين ثم تنحطّ ، فإذا الأرض يتولد منها صوت كصوت المدفع ، فسألنا عن ذلك ، فإذا صانعها أراد أن تقتصر على الصعود على قامتين ، خشية صعودها في الجو فتصيب نوادر الزرع من خارج المدينة .

---

(١) Valdenpenas .

(٢) Manzanares .

وبأرجاء هذه المدينة أجنة عديدة وأرض حراثة . سافرنا منها آخر ليلتنا قاصدين مدينة أرنيسيا عن واحد وعشرين ميلاً . وفي خلال هذه الأميال، عبرنا في وسط مدينة إسمها بلزّط ، وبآخر المدينة قنطرة مضروبة على غدير من الماء لا ينفذ ماؤه في الفصول الأربعة ولم تكن طريق غيرها للعابر .

ولهذه القنطرة ثلاثة وثلاثون قوساً من الأقواس المتوسطة في العلوّ العظيمة في الضخامة . والمدينة متسعة جداً ، غير أنها بدوية كأهاليها وديارها مموهة بالجير داخلاً وخارجاً. ولها من أحد نواحيها أشجار مستوية الصفوف في غراسها لا ثمر لها .

الخبر عن مدينة ارنيسيا (١)

مدينة كالتي قبلها في البداوة ، وإنها بين الكبر والصغر ، وبرز أهلها للملاقاة خاصة وعامة، وأظهروا من التعظيم والتبجيل والإكرام ما قدروا عليه . وكان نزولنا بدار أحد تجارهم ، وهي دار غير بعيدة من ديار المدن المعتبرة . وأعجب ما رأيت عند صاحب الدار ، عدة حُمر كأنها البخت لا تخرج من اصطبلاتها إلا في وقت مخصوص بقصد النتاج ، ثم تعود لمحلها . ذكر لنا أن ثمن الواحد سبعمائة ريال . وقد عبر بعض أصحابنا رأس أحد الحمر ، فإذا طوله ثلاثة أشبار. ولم يأل جهداً رب الدار ولا أهل المدينة في الفرح والترحيب بنا عند الملاقاة ولا حال التشييع ثم ارتحلنا قاصدين مدينة طنبليكي ، عن واحد وعشرين ميلاً .

الخبر عن مدينة طنبليكي (٢)

مدينة متوسطة بدوية. برز أهلها لملاقاتنا وقد اقتفوا أثر إخوانهم فيما

---

(١) Herencia

(٢) Tembleque

هم مأمورون به من طاغيتهم من المباشرة والإكرام والوقوف على قدم في الترحيب والتعظيم .

وعند إقبال الليل أطلقوا محارق ، وعند إطلاق كل واحدة يرفعون أصواتهم بكلام تعبيره : « الله ينصر سلطان مراكش ! » . والدار التي نزلنا بها تحسبها من ديار الحواضر ، ما دون اشبيلية وقرطبة ، ومنها كان رواحنا لمدينة مُورَة عن إثني عشر .

الخبر عن مدينة موره (١)

مدينة مشيدة في بسيط من الأرض ولها من الجهتين جبلين . على قنة كل جبل منها قصبة من عمل المسلمين لحراسة البلاد . كل قصبة مطلة على ما يزيد على إثني عشر ميلاً من الأرض ، والجهتان الأخريان يحجب المدينة فيهما حاجب لبسط الأرض . وبها من أجنة العنب ما لا نهاية له . والمدينة متسعة غاية ، غير أن بنيانها غير شاهق ولا منتخب ، وإنما هي أرضية . وبنيانها بالآجر وعليها آثار القدم وسكانها أهل بادية . أقمنا بها بقية يوم الحلول بها ، وسافرنا منها قرب الفجر متجهين إلى مدينة بلاصيك لاصكي عن خمسة عشر ميلاً .

الخبر عن مدينة بلاصيك لاصكي (٤)

هي مدينة صغيرة بالنسبة للمدن ، وأهلها أهل حضارة ، وديارها متقنة البنيان فسيحة الشوارع . برز لملاقاتنا من أهلها خاصة وعامة ، نساءً ورجالاً مصاحبين الأكداش ، وقد بالغوا في الترحيب وإظهار البشاشة والفرح بورودنا على بلادهم . وذهبنا في وسط القوم إلى أن وصلنا

---

(١) Mora

الدار المهيئة لنا . فإذا هي مزينة بفرش منتخبة وستور مناسبة ، وأحضروا أهل الموسيقى في الحال ، زيادة في الإكرام والبروز . وقبل وصولنا لهذه المدينة بقليل ، قطعنا الوادي الكبير المسمى بانطاخو [(١)] وهو المار بمدينة طليطلة عــن يسار عبورنا . وعلى شفير الوادي غابة ملتفة الأشجار هي معدة لاصطياد الطاغية ، مُحجرة لا يصطاد بها غيره ، ولا يؤخذ منها حطب . وقد شاهدنا بالغابة بعض الوحوش ، غزلاناً وغيرهــا تسرح آمنة . وبشط الوادي دار عجيبة هي لنزول الطاغية ، ومحــل استراحته حال اصطياده ، لا يسكنها أحد إلا الموكل بنظافتها . ولهذا الوادي قنطرة وليست بقنطرة ، وإنما هي بمثابة المعدية عندنا ، إلا أنها من اللوح مسمرة على قاربين ، عرضها ما يسع عشرين رجلاً كل واحد بجنب صاحبه ، والطول ، ضعف العرض . وبالعدوتين صواري ممكنة من الأرض ، وبها كمنات غلظها قدر الساعد ، تتصل بالمعدية ، فالعابر يجد بها الموكّل بقطع الوادي حتى يمكنها من الأرض يحمل بها أكداشاً وبغالاً وخيلاً وغير ذلك . فإذا أردت الرجوع للشط الآخر بعد الحمل ودونه ، يجذبها أيضاً القيم عليها من الجهة الأخرى ، فيصل العابر في أمن وأمان من غير مشقة ولا خوف آفة . ولهذه المعدية احتفاظات من اللوح يميناً وشمالاً ، خشية الإزدحام من الدواب وغيرها ، زيادة في التحفظ على العابر . ومن المدينة المذكورة كان رواحنا لمدينة ايلاصكاص عبرنا إليها عن تسعة أميال .

الخبر عن مدينة ايلاصكاص (٢)

مدينة حكمها حكم التي قبلها ، بحيث لم تخالفها في شيء من أرضها ولا من أهلها خلقاً وخلقاً . وقد اقتفوا أثر أهلها في الملاقاة والترحيب وما

---

(١) تحريف لكلمة تاجه Tago ، نهر أسبانيا المشهور .
(٢) Illeseas .

يضاف لذلك . والمدينة بدوية محض . ومنها كان رواحنا لمدريد عن عشرين ميلاً ، عبرناها بين مدن وقرى عديدة .

والمدينة الموالية لمدريد هي مدينة كبيرة يقال لها الخيطاف[1] يسكنها الشلظاظ وعليها أثر القدم . والطريق الموصلة لمدريد هي في وسطها، وكانت تردد عليها رسل الطاغية منذ خرجنا من قرطبة بالترحيب والسلام من طاغيتهم ثم يعون إليه مخبرين بمحل مبيتنا كل ليلة. فلما كانت الليلة الأخيرة من سفرنا ، وكنا ازمعنا على أن نقصد الدار التي هو بها ، وهي على بعد من مدريد بنحو ستة أميال ، لأن عادته أن يسكن زمن الصيف والخريف دياراً خارجة عن مدريد ، يتنقل من هذه لهذه ، لما اشتملت عليه هذه الديار من الهواء الطيب حال المصيف .

وقد لحق بنا في أثناء الطريق أحد أعيانه ، مصاحباً لكتابه مضمنه التهنئة بالقدوم ، وأمر الفسيان المصاحب لنا أن يذهب بنا إلى مدريد ويكون نزولنا بداره ، وقصده بذلك الإكرام والتعظيم ، لان مدريد هي حاضرة الحواضر عنده ولا نسبة بينها وبين الدار التي هو بها الآن ، فقدم بعض المراكيس الذي يتكل عليه في مهماته ليهيء الدار ويزينها بالفرش وما يضاف لذلك ، وأمره أن يتهيأ لملاقاتنا ، مصاحباً لأعيان البلاد والشلظاظ وآلة الطرب والقنصوات[2] والبشادورات من سائر الأجناس ففعل ما أمر به وزاد عليه ...

الخبر عن مدينة مدريد (٣)

فقد برز لملاقاتنا على بعد من المدينة بما يقرب من مسافة مصاحباً لخلق لا يأتي عليهم الحصر ، خاصة وعامة ، نساء ورجالاً وصبياناً

---

(١) Getaf من أعمال طليطلة .

(٢) القناصل .

(٣) Madrid .

الكثير منهم في الأكداش ثم الخيول ثم الراجلين . وقد ضاقت عليهم الأرض مع وسعها وكان يوماً مشهوداً . فكان ما قبله بالنسبة لما شاهدناه ، كالغدير من البحر ، على أن ما شاهدنا من اجتماع الخلق بالمدن المعبورة المعتبرة ، شيء يعجز عن تكييفه . ثم إن هذا الجمع لم يبق تعجباً عما تقدم . ومع ما هم عليه من هذه الجموع الوافرة . لا قدرة لهم على مباشرة القتال صفاً صفاً ، إلا ما كان من رمي المدافع والبُنُب . واستعمال الخدائع . وما في معنى ذلك . وأما المحاربة على بسط الأرض بالخيول والرمات مكافحة من غير حصن فلا طاقة لهم بذلك . فإن المائة ألف منهم تقاومها العشرة آلاف من المسلمين بنص الكتاب العزيز . ولولا أن حماهم البحر لاستوعبهم الهلاك في أقرب مدة . وهم عارفون بذلك . ولذلك استعملوا جهدهم في تحصين المدن بالمدافع وغير ذلك ، المدن المتصلة ببرنا بجعل الأبراج والبساتين وتعدد الأسوار وتنظيمها بالمدافع وغير ذلك من آلات الحروب . ويوهمون أن مدنهم مثلها في التحصين ، دفعاً لما عسى أن يقع في نفس الإسلام من الإهتمام بالقطع إليها ، مثلما تقدم في الأخذ الأول . فإن عورض هذا لمحاربتهم للأندلس واستيلائهم على الجزيرة ، فيجاب عن ذلك بالحقيقة والشريعة أما بالحقيقة ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً ، تعالى أن يكون في ملكه ما لا يريد ! وبالشريعة : « قل لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » فإن تعدد الأمراء وانتصار بعضهم على بعض واتباع الأهواء ، يفضي إلى الخراب والمحق والعياذ بالله .

وأما العدوّ الكافر ، فقد وعد الله تعالى عباده بالنصر عليه والظهور فلا يلتفت للكثرة منه ولا القلة . وهذا أمر مسلم .

وقد استعملنا السير في وسط هذه الجموع وشلظاظهم تدفع عنا القوم بالسيوف ، وأعيانهم راجلين أمامنا متأدبين . كأنما على رؤوسهم الطير !

فانظر إلى عزة الإسلام وما أودع الله تعالى في سيدنا المنصور بالله من السر والعظمة ، وقد انتهى بنا السير إلى قنطرة عظيمة هائلة عبرناها في ازدحام عظيم مضروبة على الوادي الذي بقرب المدينة . إشتملت على تسعة أقواس في غاية الطول والعرض . وابتداء بنيان هذه القنطرة قبل نفس الأقواس ، وبعدها بالترسيف والستائر بما يقرب من الميل . وبطرفي القنطرة أقواس معقودة على سواري من الرخام . والمسافة التي بين القنطرة والمدينة ما دون نصف ميل بقليل . وبساحل الوادي عرائش من القصب واقية للنسوة من حرّ الشمس ، حال تصبين أثوابهن بالوادي . وأرجاء المدينة في غاية البسط ، عامرة بأشجار لا ثمار لها ، جلها بطرفي الطرقات يميناً وشمالاً . ولقرب غرس الأشجار بعضها من بعض واستواء صفوفها ، صارت تحجب الأرض من نفوذ نور الشمس لانتشار الأغصان من أعلاها واختلاطها بالجوّ وامتداد هذه الأشجار بالطرقات العديدة ، منها ما نهايته عشر مسافات إلى الأربعين ، إلى ما دون .

فالعابر يذهب بين صفوف الأشجار إلى البلاد التي يريدها مظللاً ، وقد استوى في العبور العارف بالطريق والجاهل بها الذاهبة بين صفوف الأشجار ، والأشجار واصلة إليها ، هذا في كل مدينة مدنية [1] .

ومن خارج سور المدينة المدريدية ، متصل بها أجنة كثيرة اشتملت على فواكه خريفية وصيفية على ما شاهدناه قبل الدخول إليها لأن الموكل من قبل الطاغية على ملاقاتنا كان يعرج بنا حال العبور على هذه الأماكن وقد تلقتنا قرب المدينة أكداش هي للطاغية فركبناها ودخلنا المدينة في هيئة عظيمة وعز وكرامة لم تحصل لمن قبلنا من رُسُل الملوك المتقدمة ولا شاهدوا ما شاهدناه .

---

(١) كذا في « ع » . وفي بقية المخطوطات : مدينة مدينة .

ولما حللنا دار الطاغية في جمع عظيم ، جعل الشلطاظ يدفعون عنا القوم ولم تزل أعيان الدولة تتردد علينا بقصد الترحيب والسلام، بقية يومنا ومن الغد وبعده ، إلى أن اعترانا من ذلك ألم نشأ عن التعب والنصب حيث لم نجد إستراحة مقدار لحظة ، لما للقوم من الغبطة في الحديث معنا والسؤال عن سيدنا ، أيده الله ، والرغبة في الإطلاع على ما هو عليه برّ الإسلام ، وذكر كل مدينة على حدتها . إلى غير ذلك من السؤال الموجب لطول مقامهم لدينا وسؤالهم الأول ، كالثاني ، وهكذا .

ثم ورد خبر موت أمّ الطاغيه ، فلم يلبثوا إلا وقد لبسوا ملابس سود وذهبوا معزين لطاغيتهم ، فحصل لنا بعض الإستراحة . ومنذ بلغ خبر موتها والنواقيس لا تفتر من الضرب لحظة تسعة أيام، بضرب مخصوص. فيه علامة على موت أحد من أقارب الطاغية ، زوجته أو أمه .

ودخل الطاغية دار الحجبة إلى أمد معلوم عندهم لا يتكلم مع أحد ولا يدخل عليه إلا من كان من خاصته . وقد أقام مقامه الوزير في مباشرتنا ومؤانستنا برسائله وكتبه مضمنها أن عظيمه « كان في غاية الإنتظار والتشوق لملاقاتكم . وقد حدث هذا الأمر الموجب للتأخر عن حصوله على المقصود من رؤيتكم ، وعن قريب ، إن شاء الله ، تكون الملاقاة ويحصل الكل على مراده ، وإن عرضت لكم حاجة ، نفوز بقضائها » . فإن طاغيتهم أمرهم بذلك وحضهم على الإمتثال لما نأمر به ، فنجيبه بما يناسب في الوقت .

وحيث تأخرت الملاقاة بالسبب المذكور ، فإننا نشرع في الكلام عن الدار التي نزلنا بها وذكر ما اشتملت عليه من فخامة البنيان وارتفاعه في الجو وما يضاف لذلك ، مما يضيق عنه التكييف ويعجز عنه التعبير فنقول على سبيل الإختصار :

هي دار تسع دائرتها مائتي دار من الديار الكبار المعتبرة . قبابها ومقاعدها لا تحصى ولا تستقصى . كل مقعد أو قبة تشتمل على أربعة أبواب . وقوائم الأبواب في البنيان ، مع عتبتها العليا والسفلى من حجر واحد غير منفصل . منها ما هو من المرمر ، ومنها ما هو من الحجر الأبيض ومنها ماهو بالأصفر الذي يشاكل اللوبان ثم من الحجر الذي هو مسجد أصلاً ، ومثله في الأخضر ، وكذا غيره في البياض والسواد ، والكل من معادن هنالك . كل مقعد أو قبة يستقل بنوع من أنواع الحجارة المذكورة ، فيها يشاهد الناظر وجهه كالمرآة لجودتها في الصقل . ثم بزوايا القبب والمقاعد رخامات في غاية البسط ، كلها من المعادن المذكورة ومنها ما فيه زيادة هندسية يتعجب منها ، وهي جعلهم تشجيراً يشتمل على ألوان مختلفة على بسط الصحيفة من المرمر الشديد السواد . والتشجير المذكور فوق الصحيفة كأنه من نفسها حيث لم يعل على بسطها جرم اللون الموضوع . فإن قيل أنه صبغ ، فكيف يمكنه الصبغ مع تعدد الألوان واتصال قضب التشجير بعضها ببعض ، مع مخالفتها في الألوان ، فإذا اتصل اللون الواحد ، بغيره وقع المزج . فأقيل يؤخر اللون الثاني عن الأول حتى يتمكن الصبغ الأول من الصحيفة ثم يُمَرّ عليه بلون آخر ؛ وهكذا يعارضه : إذا جعل اللون الثاني فوق الأول المخالف له واتصل الجرم الآخر المجهول فوقه ، ينشأ عنه علو على بسيط الرخامة . والرخامة هي كالمرآة في الصفاء والصقالة والبسط . فهذا والله ، مما يتعجب منه !

وهذه الرخامات منها ما يحمل عليها مَوَاكن[1] ، ومنها ما يتخذونه للكتابة ، جميعها محمول على كراسي من الجبص المموه بالذهب ، وعلوها من الأرض نصف قامة . وسقف هذه القباب والمقاعد ، منها ما هو شبكة من قصب الذهب متصلة برخام مبسوط بالسقف ، ومنها ما استوعبته

---

(١) جمع مكانة = الساعة في المغرب الأقصى .

تصاوير ، ومنها ما هو مشجر بألوان عديدة ، وحيطان المقاعد والأبواب عليها ستور من الديباج المذهب وغيره من القماش الرفيع ، الكمخــة والمؤبّرة وما شاكلها في الصفة ، الكل مسمر بمسامير من الذهب . وكل مقعد أو قبة بجانبها مقعد للنوم ، وهو دون المقاعد في الكبر وأحسنها في الفرش والستور . وبها دخاشيش من القماش المسمى ببركاضو [1] وأما الشليات ، فقد استوعبت المقاعد والغرف والمنازه ، كلها من الديبــاج المذكور .

وبناء هذه الدار جميعه بالحجر المنجور في قائمه والمبسوط . ولم تكن بها خشبة في سائر بناءاتها ، إلا ما كان بقوائم الأبواب . وأما ألواحها ، فمن خالص البلور . والقوائم التي هي من الخشب مموهة بالذهب . وقد استوعب حيطان المقاعد والغرف من أعلى مرآة طولها خمسة عشر شبراً وعرضها تسعة أشبار ، جميعها من ماء واحد غير منفصل . وقد عثرنا على قبة مشيدة بين بساتين محيطة بها من الجهتين ، والبساتين مشتملة على فواكه مختلفة المطاعم . ولهذه القبة عشرة أبواب نافذة كلها للبساتــين المذكورة يميناً وشمالاً ، والأبواب العشرة هي كالابهاء ، لها شبابيك من النحاس المذهب ، وعليها ستور من القماش المذكور ، وفيما بين الباب والذي يليه مرآة متصلة بدائرة القبة خارجة عن الابهاء التي هي الأبواب النافذة للبساتين على الصفة المذكورة في الطول والعرض ومن أعلى هذه المرآة مرآة أخرى مبسوطة ، فهي من المرايا التي بين الأبواب بمنزلة التاج لها الرابط بين المرآتين صفائح من الذهب وبنحو الثلثين من علو هذه القبة ، مساحات نافذة بعضها لبعض على الأربع جهات ، محمولة على بروز ، لها حفائظ من النحاس المذهب ، مطلة على وسط القبة . وقد استوعب هذه المساحات تصاوير قائمة على أقدامها ، جنب هذه لهذه .

---

(١) Brocado

وأما سقف القبة ، فشبكة من قضب الذهب على شكل غريب في الصنعة وبصدر القبة المقابل للدار ، قبة صغيرة مثمنة من البلور ، قسم المهندس كل ثمن منها ، على ثمانية أشطار ، فاجتمع الأشطار مائة وثمانية وعشرون شطراً ثم قسمها عرضاً على ما جعلها مربعة الأشطار ، فصارت القسمة على شكل بيوت الجدول ، غير أن كل بيت قدر شبر في طوله والعرض ، وجعل في كل تربيعة لوحاً من البلور متصل الأطراف بعضها ببعض ، وبه تعريج خفي حكمت به الإستدارة الأصلية في التثمين . والسر في ذلك أنه إذا عبر عابر هذه القبة ، تعدد جرمه بتعدد الألواح البلورية . فالشخص الواحد يبلغ عدده العدد الكثير بتمثيل كل لوح من الألواح لشخص العابر . والباب الذي يدخل منه على الصفة . فإذا أغلق بعد عبور العابر وأراد الخروج ، يظل عن الباب ، ولا يهتدي من أين دخل القبة إلا إذا أرشد .

ثم عبرنا قبة أخرى إلى جانب هذه القبة ، فإذا هي أكبر وأضخم من التي قبلها بكثير ، وبها من العجب ما ليس بغيرها . وذلك لما عبرنا من بابها نحو عشر خطوات ، تلقتنا درابيز من المرايا ، والدرابيز مطلة على مهواة ، والقدر الذي بين الدرابيز أرض المهواة . قدر ما بينها وبين سقف القبة . وهذه الدرابيز مستديرة بمساحات نافذة بعضها لبعض مقسمة على إثنين وخمسين قسمة بين ساريتين . والسواري نفسها مثمنة هي من من المرآة صاعدات من متن الدرابيز وقائمة السواري ، وبواسطة الدرابيز الرابطة للمرآة صفائح من الذهب . وقد نزلنا المهواة من مدارج الرخام ، فإذا هي قبة في غاية الطول والعرض ، أرضها من اللوح وفيما بين بعض اللوح والذي يليه فرجة قدرها أربعة أصابع ، تنفذ لمهواه في باطن الأرض ، عمقها قدر نصف علوّ القبة ، فأكثر . وتقابل الفرجات التي بين الألواح الأرضية قاوع مطوية على فرود من الخشب قرب السقف

وبجنب القبة صناديق الموسيقى ، ونواعير وأكداش وغير ذلك من الأشياء التي لا يعبر عنها ولا ندري ما تسمى به ، منها فرد خشب طوله عشرة أشبار وعرضه ثلاثة أشبار على الإستدارة . فإذا أوقفوه يتولد منه صوت هائل يشبه صوت السيل العظيم المطر بالحجارة ، ولا يزال يصوت مدة وقوفه . فإذا ضعف صوته يجعلون عاليه سافله ، فيشتد صوته أيضاً ، وهكذا ، ولا ينقطع صوته إلا إذا أسند للأرض . فسألنا عن ذلك ، فإذا القبة معدة عند الطاغية للفرجة ، وما بها من الأشياء المذكورة هي آلة لأهل اللعب بها والمساحات المستديرة بنصف القبة ، هي محل جلوس الطاغية مع زوجته وأولاده وخواصه للفرجة ، وهي المسماة عندهم بالكُميديَة .

وبسور البستان المحيطة بهذه القُبة والقباب المتصلة بها تصاوير من أعلى السور وبجدرانه ينحتون من نفس السور محارب ، ويجعلون بكل محراب صورة آدمي قائماً على قدميه . ومثل ذلك من خارج السور أيضاً . وبوسط أحد البساتين رخامة علوها من الأرض قدر قامتين ، وعرضها ستة أذرع ، عليها فرس من النحاس وراكبه من النحاس أيضاً ، وبيده عصىً . والفرس قائم على تاليتيه ، ويداه مرفوعتان على بسط الرخامة ، والفرس وراكبه في غاية الضخامة ، ويزعمون أنه هو الثاني للدار التي نحن بها ، وهو من أعيان ملوكهم ، إسمه فيليب كوارط [1] أي الرابع .

وببعض الأغراس المذكورة النبات الذي يخطون بنقله من تشجير وتصاوير وغير ذلك مما شاءوا ، وقد تقدم ذكره بترجمة اشبيلية ، فلا فائدة في إعادته . ويتصل بخارج سور الدار بستان الطاغية ، وهو في غاية الطول والعرض . أشجار مستوية الصفوف لا ثمار لها ، وبه صهريج كأنه البحر . وقد استدارت به قباب من جميع نواحيه مضروبة على

---

(١) Filip Cuarto .

سواقي عديدة وماؤها نافذ للصهريج . ولا مَدَدَ له إلاّ من ماء السواقي المذكورة ودوران دواليبها على التأبيد .

وللبُستان طرق عديدة مارة بين الأشجار . والقيم على هذا البستان مجتهد في نظافة طرقه ورشها بالماء حال المصيف ، مع سقي الأشجار وما تحتاج إليه من تنقية وغير ذلك . وله عدة من الخدمة يساعدونه على ذلك وتحت ظل الأشجار كراسي من اللوح ، كل واحد يسع العشرين من الناس في الجلوس عليه ، منها ما هو بشط الصهريج ، ومنها ما هو خارج عنه . وهذا البستان يعبره كل عشية الغني والفقير والجليل والحقير ، وبه يجتمع كل أنيس بأنيسه . ذكوراً وإناثاً . فقد أباح الطاغية عبوره لكل أحد ، كائناً من كان ، وفي أي وقت كان .

وبطرف هذا البستان ، دار أرضية مثمنة ، بكل ثُمُنٍ من أثمانها بيتان يقابل بعضها بعضاً على الإستدارة . أبوابها في الطول والعرض واحد. وداخل الأبواب شبابيك من المعدن ، فإذا هي دار الأسود ، كل أسد داخل الشباك « بسلسلة ، من ذلك الشباك »[1] يطعم ويسقى . فإذا أراد القيم على الأسد نظافة محله ، يجذب الأسد بسلسلة إلى زاوية من زوايـا البيت ويفتح الشباك حتى يقضي وطره من البيت ويعد الشباك إلى ما كان عليه .

وقد رأينا بهذه الدار أسد على غير خلقة أسدنا هو أقرب شبهاً بالعجلة الصغيرة التي في عمرها سنة ، قيل إنه جاء من الهند . ثم دخانا داراً هي أيضاً قريبة من دار الأسود في غاية الكبر والضخامة ، لها مقاعد لا تحصى يصنع فيها الودع في غاية التحجير ، لا يدخلها إلا من أذن له الطاغية . وقد كان الطاغية أمر لقدومنا بمواضع مخصوصة عندهم للفرجة ، زيادة

(١) سقطت هذه الكلمات في (ع)، وهي واردة في جميع المخطوطات الاخرى.

في الإكرام . منها هذه الدار المسماة بدار الشينه [1] فتلقانا صاحبها بالرحب والسعة . وقد صعدنا لأحد المقاعد هو خاص بمن يعجن الطين كأنه الجَبْص ، ثم مقعد ثان يصنعون به الأواني من فناجل وجفان وصحون وغراريف وكيسان . ممارق ورواق . ولا فرق بين صانع الأواني بأرضنا وصانعها هنالك في العمل ، إلا ما كان من الطين وقد مثل بين أيدينا شجر الياسمين مفتحة الأزهار ومبسوطة الأغصان ، ومثلها من أشجار الورد ، الكل على خلقته يحسب الناظر أنه خلقي . فكشف الغيب أنه من الطين ، أخذ ما احتاج إليه بعد التصوير ، بعد الإصطيلاء . والعجب في خضرة الأوراق وبياض النوار أو الحمرة ، كل على خلقته وجميعه من الطين . وهذا مما لا يجوزه العقل ويحار فيه ذهن مشاهده عياناً ثم عبرنا مقعداً ثالثاً به عدة معلمين يستعملون رقم الفناجل وغيرها من الأواني بالذهب . وقد جاريت الكلام معهم في الصنعة ، والمراد أن نستخرج ما كان عندهم من عمل الذهب في الأواني وبما يلتصق الذهب على الرخام والجبص وغير ذلك . وقد أوهمتهم بجعجعة القَتْ في نفوسهم بأني صاحب حكمة وأن سؤالي لهم تنكيت . فإن أجابوا حصلت على المراد ، وإن امتنعوا ، فما تسببوا إلا في عدم حصولهم على ما عندي من الحكمة التي هي أغرب [2] وأعجب مما عندهم . ومررت عنهم مرور زاهد فيما بأيديهم ضنيناً بما عندي ، فجاءوا معتذرين عن كشف حقيقة ذلك ، حيث حجر عليهم طاغيتهم الإعلام بذلك فقلت لهم : « نحن المسلمون لا يحجر علينا سلطاننا إظهار الحكمة ، بل إذا اتصل بكريم علمه أننا كتمنا الحكمة وضننا بتعليمها للطالب ، يعاتبنا عليها ، إذ ليست الحكمة عندنا تستقل بنوع واحد ، وإنما هي حكم عديدة ، إذا لقنا

---

(١) كذا في جميع المخطوطات ، فيما عدا « ع » . وفيها : « الشيبة »

(٢) كذا في « ع » وفي بقية المخطوطات : « أقرب » .

البعض منها بقي الكل . ومصداق ذلك : « القنكم اثبات الذهب على الأواني والرخام والخشب وغيره لك من غير افتقار لاصطلاء الأواني بعد وضعه عليها ، كيف تستعملون أنتم في حكمتكم ، وذلك ، ان تأخذوا وزن كذا من العقار المسمى بكذا وتضيفوا اليه وزن كذا من كذا ، ثم تنقع العقاقير في ماء كذا مدة من جمعة ، وتستقطر العقاقير فيدخر ما استقطر منها ويؤخذ منها القدر المحتاج اليه ، فيكتب به على الأواني ، ثم تلقى عليه ورقة الذهب فتلصق على الخط في الحال ولا يلحقها محو بالكلية . وذهب الورقة أبهى وأجلى من الذهب المحلول الذي تستعملونه بأوانيكم ، فقيدوا عنا هذه الحكمة النفيسة » . فبالغوا في المكافأة عليها والمجازاة باللسان ، ونكسوا رؤوسهم أمامنا بعد نزع الشماريز ، واعترفوا بفضل الإسلام وأهله ، وصار يحدث بعضهم بعضاً بما سمعه ورآه في ذلك وغيره .

ومن الغد ذهبنا لدار الطاغية التي بناها لنفسه . وأما الدار التي نزلنا بها فهي لغير أسلافه من ملوك الاصبنيول ، فإذا هي دار على شكل الدار المذكورة ، وبها زيادة كبيرة من عمل الرّخام والتصاوير وسعة القباب والمقاعد . ولا شك أن للجدة بهجة ونظارة وحسن موقع في النفوس ، وإلى الآن لم تكمل ، وبها من المشاغل عدد كثير مجتمعة من أهل الحرف على اختلافها . وبقرب هذه الدار ، دار معدة لخزين العدة وحفظها . وهي من المواضع التي أمر الطاغية بالعبور إليها . وقد بالغ القيم عليها في الترحيب وأخبر أنه مأمور من طاغيته بمطالعتنا على ما عنده بخزينه من السلاح : مكاحل وسيوف وأقواس ومزارق ودرقات ودروع .

فالمقعد الأول إستوعبه من الجهات الأربع خزائن مملوءة مكاحل مرصعة باليواقيت والزمرد والمرجان ، ثم مقعد ثان فيه أيضاً مكاحل مذهبة وكوابس من الصفة ، ثم صناديق مملوءة بمكاحل استوعب سائرها حجر

اليمنط وغيره من الأحجار . والجعاب مذهبة في غاية الجردة ، هي خاصة بالطاغية ، لا يباشرها غيره حال اضطياده . ومن هنالك خرجنا للقنطرة بقصد الحركة واستراحة النفس ودفع مـــا اعترانا من الوخم وطول الإقامة بمحل غير موافق للطبيعة الغريزية .

وقد أشار علينا بعض أصحاب الطاغية بالحركة وأن نقصد بالعبور بستاناً عظيماً خارجاً عن القنطرة بما يقرب من نصف ميل ، فذهبنا إليه وقد تلقانا أصحاب البستان بالترحيب والإجلال ، فعبرناه ، فإذا بداخل البستان صورة فرس من النحاس وراكبه من النحاس أيضاً ، مثل ما تقدم ذكره في البستان الأول . وحكم هذا البستان في الغراسة ، حكم ما قبله في مساواة صفوف الأشجار ، حتى أن بين كل شجرة والتي تليهـــا ثمانية أشبار . ومما يتعجب منه أيضـــاً مساواتها في العلو والغلظ وانتشار أغصانها بالجو ، واختلاط بعضها ببعض بحيث لا ينفذ نور الشمس إلى الأرض بالكلية . والأشجار لا ثمار لها أيضاً . وهناك أزقة بين أشجار مستقيمة ضيقة جداً يصطادون بها أنواع الطير . وبهذا البستان صهريج في غاية الطول والعرض ، وبأحدها قبة مشيدة داخل الماء ، لها درابيز خضر على الإستدارة . وبأقصى البستان دور يسكنها القائمون بشؤون البستان . وبجنب هذه الدور ، رياض في غاية الطول قسم على ست قطع بسلك منسوج . وبين السلك والذي فوقه وتحته وعن اليمين والشمال ، قدر ما تولج فيه الأنمُلة ، وبجنب كل قطعة من الست بيت له باب نافذ للقطعة الموالية له .

وهذه الرياضات الست المعبر عنها بالقطع ، كل رياض منها استقل بنوع من الطير ، يظل الطير يسرح بالرياض ويروح للبيت النافذ لمحل مقيله.

ومن الغد يعود للرياض ، وهكذا حكم ما بقي من الطيور وهذه الطيور على أصناف في الخلقة ، لم يُرَ مثلها في بر العرب بالكلية ؛ ثم منها

ما اشتمل على ألوان عديدة ، ومنها ما استقل بلونين ، مع مخالفته في الخلقة ومنها ما تشاكل في الخلق وتغير في اللون ، فسبحان القادر على ما يشاء يحكم ما يريد !

وبهذه الغابة من الغزلان كثير أنيسة غير شاردة ، خلقتها أكبر من خلقة غزلان بلادنا . ومنذ خرجنا من سور هذا البستان ، ذاهبون في ظل أشجار كالارزات طولاً ، إلى القنطرة . وهناك تحت الشجر خلق كثير والأرض منقاة نظيفة ، وقد رشت بالماء ، وللقائمين على نظافتها وبلّها كل عشية خراج له بال ، لأن أهل المدينة يستريحون هنالك كل عشية على التأبيد ، فمنهم من يعبر تلك الأماكن بالأكداش ، ومنهم راجلون كل على قدر وسعه .

وبناء المدينة المدريدية جميعها بالحجر المنجور ، ودورها من خمس طبقات فأكثر ، ولا تجد داراً إلا ولها منزه في علو فادح ، زيادة على علو الديار المشتملة على خمس طبقات . وشكل المنازه في البنيان مثمن ؛ فإذا بلغ الغاية في الارتفاع ، أقبوا عليه قبة مُقَرْمَدة بالرصاص ، وجعلوا لها جاموراً مذهباً ، وبعض الجوامر مفضضة تلمع في الجو بلمعان الشمس .

وعرض شوارع المدينة ما يزيد على أربعين خطوة ،.وترصيفها فيه زيادة على ما عهد من ترصيف غيرها من المدن . فقد قسم المهندس عرض شوارعها تربيعة تربيعة ، أربعة أذرع خطها بالحجر المنجور المبسوط ، وداخل كل تربيعة بحجر صلد صغير على خلقته .

أقمنا ما يزيد على الشهر بأيام قليلة ، وبكل عشية من مدة إقامتنا يجتمع خلق كثير من النساء والرجال والصبيان ببراح متسع تحت القصر الذي نحن به راغبين في رؤيتنا ، ولم يسعنا إلا الإشراف عليهم ، ونشير لهم باليد مرتين أو ثلاثة ، وذلك في عرفهم هو رد السلام عليهم ، وفيه

إذن لهم بالإنصراف ، فيضجون ضجة عظيمة ، فإذا هم يعلنون بنصر سيدنا ، أيده الله ، ويذهبون فرحين مسرورين ، ومن الغد يعودون ، وهكذا إلى أن بعث الطاغية يطلب منا الورود عليه للمدينة التي هو بهـــا ، وبعث بأكداش ركبناها وسافرنا من مدريد بين الظهرين ، عاشر ربيع الأول عام تاريخه .

ولما جن الليل لحقنا بدار معدة لاستراحة الطاغية في سفره ، بينها وبين مدريد تسعة أميال ، أقمنا بها نحو الساعة ، واستعملنا السير بقية الليل .

وفي ضحوة الغد ، نزلنا قرية إسمها ورامة ، لحقنا بها عن ثمانية عشر ميلاً ، فإذا هي ذات أشجار وثمار وعيون ، وصاحب القرية لم يصحبه تقصير في المباشرة والترحيب ، غير أنه لم يُقِـم لدينا إلا بمقدار ما سلم ورحّب بنا وذهب ولم يعد إلينا ؛ فسألت عنه ، فإذا هو مكلف من قبل طاغيته بأمر لا يمكن أن يتزحزح عنه لحظة ، وهو حراسة الذاهب والآيب من الطريق المحدثة بجنبه ، القريبة إليه ، فلا يعبرها عابر إلا إذا أدى ما هو موظف عليه . وبعد الإداء يأخذ خط يده بأنه دفع مـــا وجب عليه ، بحيث إذا طلبه الثاني ممن هم مكلفـــون بالطريق أيضاً ، يستظهر بخط يد الأول ، فيخلي سبيله .

وهذه الطريق أحدثها الطاغية وأنفق عليه مالاً لا حصر له ، لأنه شق الجبال وهدّ الشواهق ، وكم ضاع فيها من المسلمين رحمهم الله وكم أصيب منهم بالحجر عند إخراج الميئات بالجبال .

وطول هذه الطريق المحدثة ما يزيد على تسعة أميـــال ، ولم يزل المسلمون يخدمون بها إلى الآن ، وقد اشتكى من أسارى المسلمين أربـــع وعشرون في الزمان الذي حللنا فيه مدريد ، ولما أخبرنا أنهم بالاسبيبطال بعثنا لهم في الحال بعض أصحابنا للاعادة وأصحبناهم صلة ووعدناهم بخير وأخبرناهم بما امتن به سيدنا ، أيده الله . عليهم من الاكرام واحسانه

المعهود ، وخيرناهم في قبض ما وجب لهم بين إخوانهم من صلة مولانا المنصور بالله ، أو يؤخر إلى جمعهم باخوانهم ، فاختاروا التأخير ، خشية الطمع فيهم من المباشر لهم بالاسبيطال ؛ وكنا وعدنا إخواننا الأسارى الذين يخدمون بالطريق أن تكون الملاقاة بهم بالموضع الذي هم فيه . ولما كان سفرنا ليلا ، لم نشعر إلا وقد جاوزنا الموقع الذي هو محل قرارهم ، فكتبنا لهم في الحال ، ووعدناهم بالملاقاة عند الأوبة ، إن شاء الله .

وقد استعملنا السير من القرية المذكورة بين جبال شواهق ، غير أن الطريق هي في غاية الصعود والانحدار ولم يكن بهـــا وعر ، وقصدنا بالعبور للمدينة التي بها الطاغية بَلَكْـرانْخَة ، وقد تركنا مدينة سقوبيا[1] عن يسار العبور بما يقرب من ستة أميال . والأميال المعبورة من القرية إلى لاكرانخة خمسة عشر ميلا .

الخبر عن مدينة لاكرانخة (٢)

هي إحدى الديار الأربعة التي يسكنها الطاغية في الفصلين المعلومين ، في الصيف والخريف ، لطيب هوائها وعذوبة مائها ، غير أن هذه أفضل عنده ، إذ (أن) والده هو الذي ابتدعها بعد أن تخير في الأرض الطيبة الهواء ، فلم يجد بُداً من هدّ شواهق عظيمة ، وقد برع المهندسون في التشييد بازائها واخترعوا من الحكم ما لم يسبق لها غيرهم في البناءات والتلاعب بالمياه والنبات . وسيأتي الكلام على ذلك بعد الفراغ مما تأكـــد تقديمه من الملاقاة بالقوم ، حيث أشرفنا على المدينة ، فما عبرنا نحو ثلث الليل الا ورسل الطاغية واردة ، علينا بالترحيب والتهنئة بالقدوم على لسان طاغيتهم ، وفي إثرهم خلق كثير من أعيان الكورطى[3] ووزراء ومن دونهم

---

(١) Segovia .
(٢) La Graja ، مدينة من عمل مدريد .
(٣) أعضاء البرلمان .

في الرتبة مصاحبين لاكداش مذهبة لم نر مثلهـــا بالبلاد الاصبنيولية ، فرحبوا بنا كثيراً وأبدوا من الفرح والمباشرة والتعظيم والتبجيل ما لا يكيف وأخبروا بأن طاغيتهم أصحبهم سلامه علينا وأقامهم مقامه في ملاقاتنا ونوبهم عنه التهنئة بالقدوم المصاحب للسلامة، إلى غير ذلك من أداء الواجب.

ومن جملة ما حدثوا عنه أنـــه في غاية الانتظار للملاقاة والتشوّق لرؤيتنا ، وما أخره عن البعث الينا ساعة وصولنا إلى مدريد إلا ما حدث من وفاة أمه ، على ما اقتضته عادتهم وأعرافهم في تأخير الأشياء المعتبرة إلى أمد معلوم عندهم حكمت به الأقدمون من الفرايلية ، وما زالوا مقتفين أثر من تقدمهم في ذلك . فقلنا لهم : « قد قبلنا عذره ، والزائر تابع لغرض المزار » .

ثم قدموا لنا أكداشاً ركبناها ، وذهبنا معهم في جمع عظيم إلى أن انتهينا للدار المعينة لنا ، وهي في وسط بستان في غاية الحسن والنضارة خارجة عن المدينة قريبة منها ، ذات مقاعد وغرف وشراجيب مطلة على البستان المشتمل على أصناف الفواكه .

ولما استقربنا المجلس ، طلبوا منا الاذن في الانصراف ، وذهبوا لطاغيتهم في الحال مخبرين بالواقع ، وما زالت الأقوام تتوارد علينا على قدر الطبقات ، والكل يحدث عن طاغيته بما حدث به الاول من التهنئة بالقدوم .

ومن الغد ، بعث الوزير يطلب الوصول لداره بقصد الإكـــرام فركبنا وذهبنا إليه، وقد أحسن المباشرة عند الملاقاة وتكلم بلسان حسن فأجيب بما هو مناسب، وخبر بأن طاغيته مستغرق في محبة مولانا المنصور بالله . ببعضه وكله، وله فرح بهذا الصلح المنعم بـــه عليه من الجانب المولوي ، أسماه الله تعالى ، ويطلب الله أن يجعله دائماً متصلاً . وقد سره أيضاً سيدنا ، أيده الله ، على قومه الواردين على مراسيه المحروسة بالله

بالإحسان لهم والمباشرة إلى غير ذلك من الإعتراف بفضل سيدنا عليهم وقد أجيب عن مقاله فصلاً فصلا ، فاستحسن الجواب وانطلق لطاغيته مخبراً بما سمعه ورآه .

فتهيأ الطاغية للملاقاة من الغد ، وقد أعلمنا الوزير بذلك : فجعلت أفكر فيما أخاطب به الطاغية عند ملاقاته بما يسوغ شرعاً . وقد لخصت من الكلام ما لا محذور فيه ، ثم مثل في فكري أني داخل على الطاغية ، وقد تذكرت قوله تعالى : « إدخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون » فجعلت أرددها في الفكر مراراً ، ثم اهتديت لاختيار ما يقاومها في العدد لنتفاءل بما تبديه القدرة في ذلك ، فإذا المقاوم لها : « تنصـــرون بالله ! » . ثم فكرت أيضاً فيما بعدها من قوله عزّ وجـــل : « فـــإذا دخلتموه » ، فقام المقاوم له : « فأبشر بتأييد من الله ! » . ثم اختبرت كمال الآية : « فإنكم غالبون » ، فإذا عدد نقطها ، عام تاريخـــه ، فبشرت في الحال بالتأييد والنصر على أعداء الله. وقد خرج في التوقيع أن انتصارنا عليهم بالله ، وبشرنا بتأييد الله في هذه السنة المباركة . وهذا من الفتوحات الربانية المبشرة بالحصول على المؤمل وبلوغ المقاصد ، فلم نشعر إلا وأصحاب الطاغية بالباب ، مصاحبين للكدش الذي يركبــه الطاغية ، ومعهم الوزير ، فسلم علينا وقال : « إن الطاغية يطلب رؤيتكم فركبنا وذهبنا إليه واثقين بالفتح والنصر والتأييد . فمـــا قربنا من دار الطاغية إلا وبرز لملاقاتنا هناك خلق كثير من أعيان الكرطي وغيرهم من الباشدورات من سائر الأجناس ، وما انضاف إليهم من خاصة وعامة وقد اصطفوا من باب المدينة إلى دار الطاغية . فلما أقبلتُ عليهم نزعوا الشماريز وعكسوا رؤوسهم أمامنا ، ومكثوا على حالهم متأدبين ، كأنما على رؤوسهم الطير تعظيماً لجانب المنصور بالله .

ولما دخلنا على الطاغية وجدناه قائماً على قدميه ، وعن يمينه أحـــد

الفرايلة الملازمين له، وأربعة من الوزراء عن شماله . فلما قربنا منه ، نزع الشمرير عن رأسه وطأطأ شيئاً ما ، فقلت للترجمان : « سلم منا عليه » ، ففعل ، ثم رد علينا السلام وشفعه بكلام طيب لفظه : « الحمد لله على سلامتكم ، وكيف أنتم مع تعب الطريق ، وكيف كانت المدن التي عبرتم عليها ، وهل أحسن إليكم عمالها ؟ » ، فأجبناه بما يناسب من « إن أهل المدن لم يصحبهم تقصير في المبرة والإكرام ، الكل بأمرك ، وقد كتبت بذلك لمولانا المنصور بالله . فتحقق ما أنت عليه من الخدمة والمحبة » فانبسط من جوابنا . وقال : « الله يجازيكم خيراً » . وجعل يسأل عن سيدنا ، أيده الله ، وكلما ذكر سيدنا ، ينزع الشمرير عن رأسه . فقلنا له : « سيدنا ، والحمد لله بخير ، منصور مؤيد . وقد أمرنا أيده الله ، أن نعلمك ونخبرك بما أنت عنده من المنزلة التي لم تكن لأحد من الطغاة الصالحين فإنك المقدم فيهم والمميز ، أنت وقومك ، عن جميعهم مراعاة للإمتثال أمر سيدنا المطاع في شأن الأسارى ولمحبتك في المسلمين » .

فانشرح صدره من مخاطبتنا إياه غاية ، وقال : « ما أنا إلا واحد من خدّام سلطانك ، وعند أمره ونهيه . وكل ما يأمرنا به نفعله . وقد فرحت بهذه المهادنة التي أنعم بها سيدنا علينا ، نسأل الله أن تكون دائمة » .

وحيث طال وقوفه معنا بما يزيد عن ربع ساعة ، ولم يمكنه أن يأمرنا بالإنصراف حياءً وأدباً ، قلت للترجمان : « إستأذنه علينا في الإنصراف فقد أشفقت عليه من طول وقوفه معنا ، وليسامحنا في هذا التعب الناشىء عن سبب مباشرته إيانا الموجبة لطول قيامه ، لأن نفوس الولاة ليست كنفوس مطلق الناس » . فانشرح من مخاطبتنا إياه بذلك ، مع السرور . وجعل يضحك وينظر للأعيان الحاضرين ، كأنه يتعجب مما سمع ورأى مما لم يخطر به على بال ، وقال : « جزاكم الله خيراً على هذا الخطاب

الحسن ، فقد انشرحت صدورنا وأنست أرواحنا بحديثكم المستطاب الناشىء عن العقل الراجح والصواب » .

فقلت له : « بقيتْ لي عندك حاجة ، زيادة على الترحيب والمباشرة إذ مباشرة الضيف بالرحب والسعة مع إظهار البشاشة ضامنة لقضاء المآرب والحصول على المؤمل» . فقال : « وما ذاك ؟ » فقلت له : « أن تعطي الإذن لوزيرك في الكلام معنا في الأمور التي تعرض لنا على الإجمال والتفصيل ، منها ما أمرنا به من مولانا المنصور بالله ، ومنها ما اقتضاه الحال وتعين في الوقت لئلا يحصل ثقل في سرد الأغراض على مسامعك . وإنا لا نرضى أن نثقل عليك في ذلك » .

فازداد بذلك فرحاً ، وأمر وزيره في الحال أن يتعاهدنا ويتفقد أحوالنا وأن يباشرنا بمباشرته لعظيمه ويمتثل أمرنا في جميع الأشياء ، من غير أن يستشيره في شيء منها .

وانصرفنا في عز وكرامة ، وما زال يحدث قومه بما كانت مخاطبتنا إياه ويقول: « ما رأينا مثل هؤلاء المسلمين وما هم عليه من الصواب والعقل والتمييز » .

وقد أوصى أعيان دولته بالتردد علينا صباحاً ومساءً ، وكل يحدث عن عظيمه بما هو عليه من البسط والإنشراح بما أجيب به .

وقد بعث الباشدورات المذكورون من ملاقاتنا بالطاغية على تلك الحالة التي لم تحصل لغيرنا من المسلمين فضلاً عن الكافرين وكتبوا بذلك لطغاتهم .

ومن الغد ذهبنا للسلام على أولاده بأمر منه، حيث طلبوا من والدهم رؤيتنا . وأولاده الذكور أربعة ، أكبرهم في عشرين سنة ، وبنية واحدة ، وقد لقنهم أبوهم ما يقولونه في مباشرتهم إيانا ، على ما حدث

به الوزير ، ثم قصدنا محل أخيه بعد ملاقاتنا بأولاده، فتلقانا أخوه بالرحب والسعة وما هو من أخيه ببعيد، خلقاً وخلقاً . فأخذ بأيدينا وذهب بنا لقبة في غاية الحسن مزينة بالفرش والستور والمرايا ، ثم الثريات البلورية وغير ذلك مما يتعجب منه . وبصدر القبة كرسي من الرخام ، علوه من الأرض نصف قامة ، بأطرافه صفائح من الذهب ، وقد علاه شاب ما فتحت عيني على أحسن منه صورة قط ، وبيده شابة متصلة بفيه وأنامله على ثقب الشابة ، تتحرك بما تقتضيه النغمات ، ترتفع وتنخفض، وقد توسد ركبتيه كلبان أحدهما باسط ذراعيه على ركبته اليمنى ، وعيناه شاخصتان للشاب ولسانه وذنبه يتحركان بحركات ضابطات للميزان ، فهو بمنزلة الوسادة من أهل الموسيقى . والكلب الآخر باسط يديه على ركبتيه اليسرى ، يحرك ذنبه فقط ، وحالهما في الميزان واحد . ولم نشعر بأن الشـــاب والكلاب تصاوير من غير روح ، إلا بعد حين . فالناظر على البديهة ، لا بعد التأمل يقطع أن ما شاهده من الصور لم تكن من غير روح ، ولو بلغ في العقـــل وحدة الفهم والحذاقة ما بلغ . وبشرة هذا الشاب ، والدم الجـــاري في وجهه ، مع ما خالطه من البياض الناصع ، مما يتعجب منه ، فهو في طراوة المراهق . ومن العجب أيضاً ، حركة خفية مع تكميش ضعيف بطرفي فيه لجمعه على الشابة حال النفخ فيها . والحركة التي بعنقه نشأت عن إخراج الريح من فيه ودفعه لباطن الشابة ، لأن حركة الفم والعنق واحدة .

وقد سألت أخا الطاغية وألزمته أن يطلعني على حركة ذلك . وكشف ما في باطن الأمر ، فنهض في الحال وفتح بيده من آخر جهة الكرسي باباً بحركات . فإذا بناعورة من النحاس الأصفر تدور بدوران ناعورة أخرى من خارج القبة بالماء . وهذه الناعورة آتية منها مسامير ، طولها قدر الأنملة ، تتصل بأوتار واصلة لأنامل الشاب . ويتفاوت نفر الأوتار بالمسامير التي بالناعورة على ما تقتضيه النغمات في رفع الأنامل

على ثقب الشابة وحطها وتقديم بعضها على بعض . وهنالك أكيار تنخفض وترتفع بحركات الماء أيضاً ، وما يتولد منها من الريح . هو نافذ بفم الشاب من باطنه ، ثم حركة أخرى ، على شكل عمود الميزان ، تنحدر تارة يميناً وتارة شمالاً ، متصل بطرفيه أوتار هي المحركة للسان الكلب وذنبه ، ثم وتر منفرد من نفس الأوتار المذكورة ، محرك لذقن الكلب الآخر . وعلى كتف الشاب قُمْري يخفق بجناحيه ، الكل تابع لميزان النغمات المسموعة من الشابة ، ثم انصرفنا متعجبين مما شاهدناه .

وقد بعث لنا الطاغية آخر اليوم وحتم علينا في العبور لبستانه المتصل بداره ، وكان هيأ به فرجة مما صنعه المهندسون في جريان الماء على صفة غريبة غير معهودة ، فدخلنا البستان بين الظهرين وقد حضر معنا خلق كثير نساءً ورجالاً ، فيهم بنت الطاغية وغيرها من بنات أعيانهم ، فإذا هو بستان أشجار في غاية العلو مستوية الصفوف في غراستها ، وفيما بين الشجرة والتي تليها سور من النبات الأخضر اليانع ، علوه قدر قامتين وأغصانه ملتفة بالتي تليها من الأغصان . وقدر ما بين الشجرة والتي تليها عشرة أشبار .

وهذا النبات المجعول سوراً بين صفوف الأشجار ، أصله عود غلظه قدر الساعد وأغصانه لا تزيد على شبر . غير أن هذه الأغصان استوعبت الأصل على الجهات الأربع مما يلي الأرض ، إلى منتهى علوه قامتان . فتتصل الأغصان بالتي تليها يميناً وشمالاً ما كان من خلف وأمام . وكذلك وجه السور المحسن للطرق التي بين صفوف الأشجار والحاجب لبعضها عن بعض ، وكلما مررت بطريق من طرق البستان شاهدت ما شاهدته في الطرق الأولى .

ومن أعلى سور النبات بين كل شجرة والتي بجنبها ، باب غرس في وسط النبات من أصله نافذ للمحجة التي عن اليمين والشمال . وهذا النبات يربونه على القدر المحتاج إليه . وما فضل عن مرادهم يقصونه بالمقراض.

وبهذا البستان عدة صهاريج مدرجة ينحدر الماء من أعلاها لما دونه وهكذا . فالصهريج الأعلى عمقه ، على ما قيل ، خمس قامات فأكثر . وطوله والعرض واحد . وقد عبرناه من أحد جهاته الأربع ، فإذا فيه ما يزيد على مائتي خطوة . ومنها تمتد الصهاريج الأخر المنحدرة عنه على التدريج ومياهه مجتمعة من أودية وعيون بأعلى الجبل الذي هدّه الطاغية وجعل به داره وبستانه المذكور . وبقيت جبال عديدة يميناً وشمالاً على خلقتها في غاية الصعود . وللصهريج قواديس من الحديد كالمدافع في باطن الأرض متصلة بالصهريج الأكبر نافذة للذي دونه ، فيتلقاه ما يحقنه ويمنعه النفوذ لعدة أنابيب . فإذا أراد نفوذها لوسط الصهريج أو للأنابيب بحاشيته ، يمكّن قطعة من الحديد بأحد أوتاد من المعدن قرب ناتئة من الأرض قدر أربعة أصابع ، فيولج عن القطعة المذكورة بالوتد ويمر به يميناً وشمالاً ، فتصعد عدة أنابيب في الهواء من وسط الصهريج قدر مائة وعشرين ذراعاً ثم ما دون ، وكذا من حاشية الصهريج والأنابيب الصاعدة من الصهريج ما صعوده من فم أسد مستلقي وغيره كالفرس والجمل والآدمي ، الكل بوسط الصهريج مباين للاخر في التلاعب بالمياه ومخالف لغيره .

وهناك خصص تعين ذكرها لما اشتملت عليه من الصنع الغريب العجيب ، وذلك جعلهم بهذا البستان موضعاً مثمناً في غاية البسط وضربوا

على كل تتمينة قوساً من الرخام محملاً على سواري في غاية الصناعة من الرقم بالنحت فيها ، منها ما هو من المرمر الشديد السواد ، ومنها ما هو من الرخام الأبيض . وأمام القوس صهريج متصل به . وداخل القوس صورة آدمي متصل رأسه بشوكة القوس . وهو واقف على قدميه ، وأمامه خصة في غاية العلو صاعدة من الصهريج . وعند يمينها وشمالها فرسان يخرج الماء من فيهما معرجاً صاعداً ، ثم يهوي بوسط الخصة . ثم بطرف الصهريج أسد يتدفق الماء من فيها لداخل الصهريج ؛ ثم من كل أسد ثعابين . وبمنتهى علو الساريتين الحاملتين للقوس عدة أنابيب صاعدات للجو صعوداً فادحاً . ومثل هذا القوس بجميع ما اشتمل عليه من التصاوير وغيرها بكل تثمينة .

وبين كل قوس والذي يليه طريق بين أشجار مستوية الصفوف ، والسور من النبات متصل بالأشجار على الصفة المتقدم ذكرها يميناً وشمالاً وفي منتهى الطرق الثمانية ، ثمانية خصص تشتمل على أنابيب صاعدات للجو . وبوسط هذه التربيعة قطعة من الرخام مثمنة ، قدر علوها من الأرض قامتان ، مستديرة بمسطبات من نفسها يجلسون عليها للفرجة . فإذا عرجت على جميعها بالعبور ، أبصرت الأقواس الثمانية مع ما اشتملت عليه من الخصص والأنابيب ثم الخصص الثمانية التي بآخر الطرقات استوعب جميعها بالنظر من محل واحد ، وفي ذلك عجب ، ثم خصة أخرى في غاية العمق والإنفساح في دائرتها ، ما يزيد على مائتي خطوة . وبوسطها حجر كأنه قطعة جبل ملتصق به عدة صور آدمي وحيوان . والحجر قد استوعبه ثقب يخرج منه الماء معرجاً على الإستدارة ، غير أن نفوذه لم يكن بكثير ، وإنما صعوده وانحداره كالجواهر . وبطرفي دائرة

الحصة أنابيب مثلها معرجة مقابلة لأنابيب أخر من الحجر الذي بوسط الحصة فتختلط المياه بالمياه ، فيستوعب القطر من الجو أعلا بسيط الحصة . فالناظر لا يرى إلا اللؤلؤ من المياه بين متصل ومنفصل ، فهو في جريانه كعقد الجواهر وقد اجتمع في جريان هذا الماء الضدان : الإتصال والإنفصال في إلحال . ثم خصة أخرى مثل التي قبلها ، غير أنها في وسطها سارية من الرخام مثمنة في غاية الضخامة ، وبأعلاها تسع أنابيب صاعدات للجو وقد اتصل بأعلى كل ثمن من أثمان السارية رأس أسد يتدفق الماء من فيه ثم بين الأسد والذي يليه أنابيب يصعد الماء منها وينحدر معرجاً للخصة من الجهة الثانية ، ثم تقابل الأنابيب منها من حاشية الحصة ؛ ثم في مقابلة رؤوس الأسد ضفادع بحاشية الحصة ترمى بالمياه معرجة أيضاً ثم بين طرفي الحصة والسارية المذكورة كالحبقة في وسط الماء من النحاس يخرج الماء منها على شكل سوسنة ، وقدره في العلو نحو ذراع ، ثم خصة أخرى يتغير بها حكم جريان الماء فيها على وجوه عديدة ، ومنفذ الماء واحد ، غير أن الموكل بنبعه له حركات تُغَيِّرُ أسلوب جريانه على أشكال في حال واحد .

ودار الطاغية متصلة بهذا البستان ، وحكمها في البنيان واحد على ما تقدم وذكر من صفة بنيان دوره التي بمدريد وغيرها من المقاعد والتصاوير وما في معناه . وقد نكرر ورودنا لهذه الرياض بأمر صاحبها . وكلما ذهبنا إليها يتهيأ لملاقاتنا إخوته وأولاده وبنته : الكل منهم يبدي من البشاشة والترحيب ما لا يكيف .

وبقرب هذه الدار دار يصنع فيها الرخام ومرايا وألواح من البلور التي تجعل بالأكداش والسراجيب ، وما أشبه ذلك .

وبجنبها دار أخرى لعمل البلور كؤوساً ومصابيح وغراريف وثريات وغير ذلك .

وقد أمر الطاغية بعبور الدارين بقصد الفرجة ، ثم إن القيم على الدار طلب منا أن نؤجل له في العبور أربعة أيام ليقضي فيها غرضه في تهيء العمل الذي تصنع منه المرايا ، فأجبناه إلى ذلك ثم ذهبنا إليه في اليوم الموعود به ، فإذا بأفران عديدة معلقات ولها فرجات من الجهات الأربع ، وبأعلى الفرن ، مثل الفرجات التي تستعمل بسقف الحمامات عندنا ، وبإزاء كل فرن سلسلة يتصل بطرفها الموالي للأرض لوح من الحديد هو باب للفرن يرتفع وينخفض بحركات . وبداخل الفرن بوط مرتفع قدر ذراع في طوله والعرض ، وغلظه ثلاثة أصابع ، محمول على قطع أربع من الحديد متصلة الأطراف . وهذه القطع محمولة على جرائر من المعدن ، فيسد الفرن بعد وضع العمل الذي تستعمل منه المرايا بداخله وتوقد عليه النار فإذا استكمل المطبخ للأجزاء المضافة بعضها لبعض ، أخرج البوط من الفرن . والحيلة في إخراجه ، يأتون بقضيب من الحديد برأسه تهليل ، فهو كالسنارة ، بخرصة متصلة بالقطع الحاملة للبوط ويجذبه المعلم إليه فإذا أخرجها من الفرن ، يمر بها على جرائره إلى قرب القالب . والبوط والجرائر والعمل المذاب واحد في الإصطلاء . فإذا انتهى البوط إلى القالب الذي يفرغ عليه العمل ، يرفع البوط بحركات على بساط القباب الذي قدر ارتفاعه من الأرض بنصف قامة ، مع ما هو عليه من الإصطلاء . فقد جعلوا قرب القالب صاريا من المعدن ، برأسها سلسلة ترتفع وتنخفض بجرائر . وبطرف السلسلة قطع أربعة من الحديد ، فتحيط القطع بالبوط وتضغطه بحركات ، فتصعد به الجرائر التي برأس الصاري لأعلى القالب

وهناك قطعة من الحديد ممكنة بأحد جهات القطع الحاملة للبوط . يستعان بها على تفريغ البوط عند استعلائه على بسيط القالب . وهذا العمل غير سائل ؛ وإنما هو في الرطوبة كالصابون نقط . وعند وضعه على القالب يبقى متجمعاً ، فيأتون بفرد خشب غلظه ثلاثة أشبار في الإستدارة مكتس بورقة النحاس ، فيمرون به على الذائب من العمل فينتشر حينئذ على بسيط القالب في غاية الإستواء المنتهي . وما فضل من العمل يلفظه الفردُ من الخشب المار على القالب عند إتمامه .

وصورة القالب لوحة من النحاس في غاية الإستواء والبسط ولها حفاظاتٌ من الجهات الأربع ، علوها إصبعان فأقل ، وذلك هو غلظ المرآة . ويتصل بهذا القالب فرن مستوفي العلو وهواؤه معتدل ، فتندرج إليه المرآة المفروغة في الحال بسهولة . والدافع للمرآة لداخل الفرن خشبة مبسوطة مموهة بالنحاس ، وعرضها وعرض المرآة واحد ، تمكن بطرف المرآة وتضغط به المرآة فتمر مستقيمة مستوية حتى تنتهي لوسط الفرن ويغلق عليها ، فتمكث بالفرن مدة نصف شهر وتحمل لموضع الصقالة .

وكيفية صقلها ، جعل المرآة على الجبص بموضع مرتفع قدر نصف قامة ، ثم يجعلون فوقها مرآة أخرى قدر ربعها في الجرم ؛ فتمر الصغرى على الكبرى ؛ غير أن الصغرى يجعل عليها ما يثقلها من الجبص والحجارة ، فهي متصلة بلوحة من الخشب في شكل المائدة ، من غير دور ، فيستمر العمل عليها بمرور الصغرى على الكبرى مدة إلى أن يكمل صقلها معاً ، كبرى وصغرى ويلقى على المرآة ، حال الصقل شيء من الرمل ، ورشه بالماء حال العمل ليس بكثير . فإذا جف الماء يزاد إليه الماء على الصفة ، وهكذا . وغاية المرآة في الكبر على ما شاهدنا من

عرضها ، ثمانية أشبار ، وطولها ستة عشر شبراً . والعمل المذاب الذي تستعمل منه المرايا ، هو ربيع [1] يحرق ، فإذا ذاب وجمد ، صار له شبه بالغسول . وقد شاهدناه على الصفة المذكورة ، .غير أن ذوبان الربيع لا يصوره العقل ولا يثبت في الذهن . وبهذا حدث صانعه وقال إنه يضاف إليه شيء من الرمل ويذاب الجميع ويصنع ما ذكر .

وقد عبرنا داراً جنب هذه يصنع فيها أواني البلور ، فيها أفران عديدة داخل كل فرن صهريج من ثلاثة أذرع طولاً وعرضاً ، مملوءة بمذاب العمل الذي يصنع منه البلور ، أصله ملح مع البارود والرصاص المُكلس والرمل ، من معادن هنالك . والآلة التي يستعملون بها الأواني ويباشرون بها أخذ العمل المذاب من محله ، قُضُب من الحديد مجوفة غلظها قدر الإصبع ، وطولها ثلاثة أذرع ، يقسمها في العمل ، فيعلق بها ومنه تصنع ألواح البلور التي يجعلونها بالسراجيب والأبواب .

وكيفية عملها أن يأخذ الصانع من العمل المذاب على رأس القضيب المجوف قدر الكرة ثم ينفخ في القضيب ، فيتسع العمل ، ثم يمر بالقضيب يميناً وشمالاً ، فيستطيل العمل ، ثم يعود الإصطلاء ، وهكذا حتى يتم القدر المحتاج إليه . ولهم آلة يقطعون بها طرفي العمل المصنوع ، فوقاً وتحتاً ، في أقرب لحظة ، فيبقى العمل كالقادوس العظيم المتسع ، فيمرون عليه من داخل بحجر اليمنط ، فينفصل على شطرين ، فيصير كالقرمود ثم ينقل للفرن المعد لهذا الغرض ، وهو متوسط ، ليس بحر فادح ، ولا بقر بائن ، فتبسط الألواح البلورية من الحرارة المتوسطة حتى يعود في غاية الإستواء .

---

(١) نبات .

وقد شاهدنا هذه الأمور بأمر الطاغية ، كل ذلك تأنيساً لنا ، حيث علم أننا اشتقنا لبلادنا ، وعلقت قلوبنا بالسفر ، ولم يبق لنـــا أرب في الإقامة بالكلية ، فأمر حينئذ الطاغية بجمع عظيم من أعيان قومه خارج المدينة ما يقرب من مسافة ، وقدم لنا الاعلام أنه يريد ملاقاتنا بهذا الجمع المشتمل على الخاصة والعامة من قومه ، مصاحبين لما بعث إليه سيدنا أيده الله من المواصلة الناشئة عن محض الفضل ، خيلاً وإبلاً ، فتهيأت لذلك وذهبنا إلى أن أشرفنا على القوم ، وقد اصطفوا صفوفاً على مرأى العين ثم تقدم لملاقاتنا أربعة من الوزراء

فرحبوا بنا غاية وقد نزع الشمرير عن رأسه كل من حضر من القوم حين أقبلنا عليهم تعظيماً لجناب سيدنا أيده الله . فلم نلبث إلا والطاغية مقبل هو وأخوه في كدش واحد . وفي إثـــره أكداش حاملة لأولاده ، فنزل عن الكدش وأخذ بيدي وهش وبش وجعل يرحب على لسان الترجمان . ومن جملة ما قاله أن هذا اليوم هو عنده « أعظم عيد ، فرحاً بما تفضل به علينا سيدنا المنصور بالله » ، إلى غير ذلك مما في معناه. وقد قدم لنا إثنين من أولاده ، عمر الكبير منهما سبعة أعوام ، والآخر قريب منه ، فنزعا الشمرير عن رأسهما وتكلما بكلام . قال الطاغية للترجمان : « عرف ما يقولان لصاحب سيدنـــا السلطان ، أعزه الله » فقال الترجمان إن معنى كلامهما : « الله ينصر سلطان مراكش . الله يعيش الباشدور ، وان لنا محبة فيه كثيرة » فضممتها إلي فرحاً بهما ، وجعل الطاغية يضحك من قولهما ، ولا شك أنه هو الملقن لهما ذلك .

فقلت : « محبة الآباء تظهر على الأولاد . ومحبة الملوك تظهر في الرعية . وقد شاهدنا ذلك في أولادك وفي رعيتك » ، فانبسط من جوابنا

غاية وجعل يفهم خاصته بما أجبته به، وطأطأوا رؤوسهم أمامنا بأجمعهم مجازاة لنا على ما خاطبتُ به عظيمهم ثم قال الطاغية : « أنا واحد من خدام سلطانك ، ومن جملة عبيده ، وأمره ممتثل فينا ، فليأمر بما شاء . وهذه المواصلة التي أنعم بها عليَّ ، هي لا يساويها ملك اصبانية فهي عندي أعظم وأعظم » . ثم قدموا له الخيل ، فجعل يمسح على كفل كل فرس ، ثم يستره بجلاله ويقبله بين عينيه واحداً واحداً وقال : « إن هذه الخيل نريد أن تنسل خيلاً حرائر ، إن شاء الله » . وكذا الجمال سر بها سروراً عظيماً .

وحيث حان وقت الإنصراف ، أمر بإحضار الكدش الذي كنت أركبه فقدم إليَّ وأراد الطاغية أن أركب قبله تأدباً منه وتعظيماً لجناب سيدنا ، أيده الله ، فأبيت ذلك . وقد حتم علي الركوب قبله ، بمرأى ومسمع من جماعة من الباشدورات من سائر الأجناس . وقد أخبرت أنهم كتبوا بذلك لطغاتهم ، وشاع ذلك في البلاد الاصبنيولية وغير من بلاد الروم ، من تعظيم الطاغية وفرحه بخدام الجناب المولوي ، أسماه الله .

وتعجب الكل من خضوعه وإذعانه وانقياده وامتثاله الذي لم يتفق لغيرنا من رسل ملوك الإسلام ولا لغيرهم بالكلية .

وقد ألمّ بنا ألمٌ عند الأوب من هذا الجمع حتى عاينا الفوات . وقد راجع الله بنا وتدار كنا برحمته وعفوه . وعند تقدم الراحة ، قال الطاغية للوزير : « إن هواء هذا البلد لم يساعد أصحاب السلطان ، وقد خفت عليهم . فإني أحب أن أبعث بهم لمدريد ، يقيمون بها في عز وكرامة إلى أن نرد عليهم ونؤدي البعض من حقهم في الضيافة والإكرام ، ومن هناك يكون تشييعهم لبلادهم ، فانطلق إليهم الآن واستأذنهم في ذلك » .

ولما قص علينا الوزير ما حدّثه به طاغيته ، قلت للوزير : « إن كان

مراده وغبطته في إقامتنا بمدريد البرور والإكرام . فلا مزيد على ما تقدم من فرحه بنا وإكرامه إيانا . وإن كان مراده شيئاً آخر ، بينه لنا أجاوبك عليه » .

فقال : « إنه يريد أن يبعث معكم باشدور ويصحب معه هدية لمولانا السلطان ، ورأى من الرأي بعثه معكم ، ونحن مجتهدون في جمع الهدية ، وقد بقي منها مسائل بأرض بعيدة ، نحن في انتظار قدومها علينا » .

فقلت له : « هذا أمر أكيد يجب علينا مراعاة الرأي فيه ، ومساعفته لذلك ، لكن أحبك أن تتأمل بعقلك في كلام أقصه عليك . فإن ظهر لك أنه عين الصواب ، فما عليك إذا استأذنت عليه عظيمك ، وإن كان غير صواب فاستره علينا » . قال وما ذاك ؟

قلت له : « أما تعلم أننا مأمورون بالذهاب لقرطاجنة لملاقاة الأسارى والنظر في شؤونهم وتفريق المال عليهم ، ونقيم بها ما شاء الله ، ثم بغرناطة ثم بقالص لاستصحاب العالم الذي بها أسيراً . وهذا فصل الشتاء مقبل . فإذا أقمنا . بمدريد في انتظار باشدوركم ، هل يذهب معنا لقرطاجنة أو يقيم في انتظارنا بمدريد ، أو يتقدم أمامنا لبلاد من عمالتكم ينتظرنا بها ، كيف يكون العمل في ذلك ؟ »

ففكر هنيهة وقال : « ما ترى أنت من الرأي » ؟ .

فقلت : « الرأي والصواب هو تشييعنا مع الطاغية من هنا ونذهب للغرض الذي أمرنا به من سلطاننا أيده الله ، وفي المدة التي نقضي بها غرضنا ، تقضون أنتم غرضكم لباشدوركم ويكون الوعد بيننا وبينه لقالص ، إما أن يتقدمنا بقليل ، أو نسبقه بقليل . ومن هناك يكون سفرنا واحداً للحضرة العالية بالله . ومع هذا نساعد طاغيتك في مراده إن لم يقبل ما أشرنا به في هذا الأمر ، وظهر له خلافه » . فقال الوزير : « والله

إن هذا لهو الرأي والصواب والنظر العجيب النافع للجانبين » .

فذهب لطاغيته وأخبره الخبر فاستحسنه غاية وأجاب عنه بالقبول وشرعنا في الكلام فيما يتعلق بالأمور التي أمرنا بقضائها من الطاغية عن الأمر المولوي أسماه الله ، وقد جمعت جميعها بزمام ، منها :

١ ـ تسريح الأسرى الطاعنين في السن والبصراء والمبطولين ومن في معناهم من أي إيالة كانوا .

٢ ـ ثم ما نجده من أسارى الإيالة المولوية عند تسراد جميعهم واستيعاب الأسارى بأسمائهم وألقابهم .

٣ ـ فكاك رجلين من الجزائريين ، أحدهما طالب علم ، والآخر متسيد بمروءة ، وقد تقدمت منه الكتب لسيدنا ، أيده الله ، طالباً إنقاذه من الأسر ، مصاحبة لكتاب الفقيه العلامة المذكور ، وهو السيد مصطفى ابن علي البابا دغلي وكان سيدنا أعزه الله حتم وأكد على فكاكهم وتسريحهم مما هم فيه من الأسر ، فأدرجتهما في الزمام المذكور ، ثم ختمته بمسائل اشتكى منها الكثير من الأسرى ، منها :

٤ ـ اذا مات أحدهم يتولى دفنه اخوانه من المسلمين، ويترك لهم.

٥ ـ ألا يولىّ عليهم أحد من المُتَنَصِرة حال الخدمة ، لأنه أضر عليهم من مطلق النصارى .

٦ ـ ألا يمنعوا من كتب رسائلهم بالقلم العربي .

٧ ـ أن يرفق بهم في حالة الخدمة ولا يكلفوا ما لا يطيقون .

٨ ـ مريضهم يعالج بالاسبيطال مثل غيره من المرضى ؛ وألا يلزموا

بالخدمة وقت صلاتهم ، ولا يهملوا فيما لا بد منه مـــن الكســـوة « والمأكول » [1] .

« على أن هذا لا يكبرُ على الطاغية [2] » ولا يأمر بخلافه ، لكـــن المتولين على الأسارى يجحفون بحقوقهم ويأكلون أرزاقهم ويأذونهم لعدم من يخبر بخبرهم للطاغية .

فلما قرأنا ذلك على الوزير حرفاً حرفاً وبينا له كل مسألةاستيقظ لذلك وكشف عنه الغطاء عما هنالك ، وأمضى الجميع بالزمام إجمالاً وتفصيلاً بعد إعلام طاغيته بذلك .

وفي الحال . أمر بكسوة جميعهم . وأوصى بالرفق بهم حال الخدمة والإحسان إليهم والبرور بهم إلى أن يجعل الله لهم فرجاً ومخرجاً ، وقـــد وثقنا بما وعد به من الخير في جانبهم .

ولما تعين الإنصراف شرعنا في الإستعداد للسفر . فقال الطاغيـــة لوزيره : « إسأل أصحاب مولانا السلطان عما في خواطرهـــم لنفوذ بقضائه ولانتهى عندي من إكرامهم وأداء بعض ما يجب من حقهم » .

وقلنا له : « قد وفيت بما كنا نأمله من فكاك الأسارى الذين هم من أيالة سيدنا وغيرهم من الطاعنين في السن . ولم يبق لنا عليه إلا ما وعد به على لسان الفرايلي الملازم له من إكرامنا بما لديه من كُتُب الإسلام ثم بالرفق بإخوانا المؤمنين ، ثم تمييز الطلبة الحاملين لكتاب الله تعالى بعلامة تدل على توقيرهم واحترامهم ، فإن أهم الأغراض عندنا وأعظم

---

(١) كذا في « س » و « م » . وفي « ع » و « أ » و « ب » و « ج » : « ولا يهملوا فيما لا بد منه » .

(٢) سقطت هذه الكلمات في « أ » و « ب » و « ج » و « ع » .

الحاجات [هي] هذه المسائل . فما أمضاه منها ، فقد حصل ، وباقيها ، نحن في انتظار قضائه على الفور .

وأما غير ذلك من حطام الدنيا ، فلا نلتفت إليـــه ، ولا نرضى أن نخاطب به ، ولدينا من الذهب والفضة واليواقيت شيء كثير ، فنحب من الطاغية ألا يساومنا بذلك ويحفظ علينا مروءتنا . والإكرام المقبول منه زيادة على ما ذكر ، هو أن نئوب لبرنا في عز وإكرام ، مثل ما كانت الوجهة إليه من فرح رعيته بنا . والعمل بالخواتم .

فأمر في الحال بمكاتبة عمال المدن التي نمر بها ، وأمرهم بمباشرتنا والفرح بنا أكثر مما كان في العبور الأول ، وعين لمصاحبتنا في طريقنا أحد الفسيان ، وهو الذي كان بعثه لملاقاتنا قبل ، حيث شكرناه وأثنينا عليه ، وفارقناه على ما ينبغي ولاخلفنا وراءنا ما لا يجوز [1] شرعاً وطبعاً مما تقتضيه الملة الإسلامية والحمدلله .

وقبل التشييع بأربعة أيام . ذهبنا إلى مدينة شغوبية لملاقاة الأسرى والرياس المسجونين بها ، وقد تعدد منهم رسائل يطلبون رؤيتنا متشفعين بسيد الشفعاء في الوصول إليهم ، فإذا هم أربعة عشر ، فسلمنا عليهم ورحبنا بهم ، وقد أنسنا غربتهم ووعدناهم بالخير من سيدنا ، أيده الله وبشرناهم بأن سيدنا مجتهد في فكاك أسرهم وإنقاذهم مما هم فيه ، وأقمنا معهم من الصباح إلى العصر ولم تفتر لنا ولهم عبرة شفقة منا عليهم ، وهم أكثر منا حسرة عند مشاهدة إخوانهم المؤمنين .

وقد أحضرت حال التشييع الموكَّل بهم وأوصيته بالرفق بهم والإعتناء بأمورهم ووعدته أن أذكرة عند طاغيته بخير ، وقد كانت له حاجة عند

---

(١) كذا في « أ » و « ب » و « ج » و « ع » وفي « م » : يحمد . وفي « ح » : إلا ما يجيء شرعاً .

الوزير في الوقت تحملت له بقضائها في مقابلة إحسانه لإخواننا فانبسط اللعين لذلك ، وألزم نفسه المبرة التامة بهم وأن يسعى في مباشرتهم والاحسان إليهم . وعند التشييع معهم ، قال جميعهم : لقد أحبكم ولم يبق لنا طمع في مخلوق إلا في ولد سيد المرسلين ، صلى الله عليه وسلم ، إما أن يكون عتقاً على يده الكريمة ، أو نحن إلى الهلاك أقرب ! نسأل الله حسن الخاتمة !

وما زلنا نواعدهم حتى أنست قلوبهم ونفوسهم بالحصول على الإنقاذ مما هم فيه ، بفضل سيدنا ومدده ، ثم انصرفنا عنهم ، وجميعهم يدعو لسيدنا بما نرجو من الله قبوله .

ولنذكر ما عليه مدينة شغوبية ، مما لا بد من ذكره ، فنقول :

الخبر عن مدينة شغوبية

هي مدينة في حجر جبل وقد صعد البنيان من بسيط الأرض إلى أقصى الجبل ، فديارها بين خفض ورفع ، وأهل المدينة بادون ولم يؤتوا سعة من المال ، فهم ضعفاء جداً . وجل نساء المدينة يستعملن غزل الصوف وبطرف المدينة بلاطات عديدة ينسجون بها الملف ، والديار غير شاهقة وعليها أثر القدم ، وبها بنيان باق على حاله ، من عمل المسلمين في مواضع معروفة عندهم . وبقنة الجبل قصبة من عمل الروم في غاية الضخامة والعلو بها عدة مقاعد معمورة بأبناء الأكابر ، يتعلمون ما يتعلق بأمور البحر . وهؤلاء الصبيان لا يخرجون من القصبة . وقد وقفتُ على موضع مبيتهم بمقاعد عديدة ، هي فوق المقاعد التي يقرأون بها ، كل واحد بفراشه على سرير ، وتحت السرير ربيعة [1] وبإزائه شلية .

ومن العجب أن عدد الفرش شيء كثير ، وفيما بين كل واحد

---

(1) صندوق .

والذي يليه ، قدر ما يمر به الإنسان . وهناك ولدانٌ صغـار جداً وقد مازحت عدة منهم بسؤال واحد : أين فراشه فيهتدي إليه من غير توان ولا تأمل ، ولا يرتاب أحد منهم في محله ، مع أنهم على هيئة واحدة وعند أكلهم يستبد كل واحد منهم بآنية من طعام وآنية من شراب ، ولا يأكل منهم أحد مع الآخر . وأعجب من هذا أن صاحب الطعام يعرف كل آنية وصاحبها ولا يتمارى فيها حلل تفريق الطعام .

وداخل هذه القصبة إخواننا الأسارى المذكورون ، نسأل الله أن يعجل بسراحهم على يد سيدنا الكريمة ، وسراح غيرهم ممن هو في قيد الأسر وما ذلك على الله بعزيز .

وبوسط المدينة كنيسة كبيرة جداً . وحكمها في البنيان والتصاوير والصلبان والذخائر ، حكم كنائسهم المتقدم ذكرها على التفصيل . وماء المدينة من نهر قدرهُ في العمق ذراع وعرضه أربع خطوات ، أخذوا منه ما حملوه على صقالة ، هي من العجب ، مبدوءها قوس علوه نصف قامة ، ثم الذي يليه قامة ، ثم الذي يليه قامتان ، وهكذا . فلما جاوز الحد في الصعود ، جعلوا فوق الأقوس الموالية للأرض أقواساً أخر ، فهي من ثلاث طبقات وعلو الأقواس من ثلاث قامات . وبناء هذه الأقواس والسواري المعلقة عليها من الحجر المقنب والملوب مسنداً بعضه على بعض من غير طين . وبين الحجر والذي فوقه وتحته وعن يمينه وشماله ، فرجات قدر ما تدخل فيه اليد . وهذا مما يتعجب منه . فلو كان بناء هذه الصقالة الحاملة للماء من الحجر المبسوط المستوي في نحته وتقويمه ، نقول بسطه وتقويمه مُعينٌ على إتلافه حال التشييد ، وإنما بنيانه لهذا الحجر الموصوف على الكيفية المذكورة مع استدارة الأقواس وارتفاعها . ففي ذلك عجب حتى قيل إنه من عمل الجنّ !

ولما خرجنا من المدينة آيبين إلى مدينة لاكرانخه ، وجدنا بباب المدينة

الشغوبية أحد وزراء الطاغية مع جماعة من أعيان الكوطي ، بعثهم طاغيتهم لملاقاتنا هنالك وأمرهم أن يرموا بالمدافع والبُنب خارج المدينة لنشاهد ما هم عليه من الإصابة في الرمي من أولاد الأكابر الذين يتعلمون ما يتعلق بأمور البحر هنالك .

ولهم قرب باب المدينة إرشاق عليه عدة مدافع ومهاريس ثم جعلوا أمامها علامات ، وجعلوا يرمونها بالكور ثم بالبُنب ، وقد تجاوزوا الحد في إصابة الرّمي ، ومراد طاغيتهم فرجتنا بذلك والتنويه [1] بقدرنا ، ثم اطلعنا على ما هم عليه من الإعتناء بما يتعلق بالحرب وإظهار القوة ، فقلت : « إن حرب الإسلام لا يلتفتون للمدافع ولا للبُنب حال القتال وإنما الشأن عندهم السيف والرمح والنبل . واستعمال البارود إنما هو عند الصدمة الأولى فقط . فإذا اختلط القوم بالقوم ، فما عندنا إلا السيف وما أضيف إليه من رمح ونبل . ومجال الخيل بين الصفوف هازمة للجيش وما كان من المدفع والمهراس ، إنما هما آلتان من آلات أهل البحر والمدن التي حصرها العدو ، وتدفع بذلك عن نفسها لعجزها عن مقاومة من حصرها . فقال الوزير : « ما قلت إلا حقاً . والصواب والحق في إظهار القوة والثبات عند مكافحة القتال صفاً » . وهذا اختص به الإسلام وقد وهنت ما أبدوا من القوة بالأنفاط والبُنب وأقنعته بذلك ولم يجد بداً من قبول ما حدثته به .

وكان وصولنا إلى لاكرانخة بين العشاءين ، لأن المسافة التي بينها وبين شغوبية ثلاثة أميال . ومن الغد سافرنا لمدينة الاسكوريال عن واحد وعشرين ميلاً بالطريق المحدثة المتقدم ذكرها .

---

(١) في الأصل : والتمويه .

هي كنيسة وبازائها دار الطاغية ، ثم بنى بها أعيان الدولة الاصبنيولية دياراً عديدة إلى أن صارت إلا من المدن المعتبرة ولم يكن مثلها قط في إقليم الاصبنيول والآن في غير من أرض الروم . وهذا أمر مسلم عند سائـر الأجناس على ما قيل ، وقد اجتمع فيها ما افترق في غيرها حسبما يأتي ذلك مفصّلاً كل في محله .

وسبب تشييد هذه الكنيسة أن أحد طغاة الاصبنيول وهو قلـب كورط ، ذهب لحصار مدينة من مدن الافرنصيص ، أقام على حصارها زماناً ولم يحصل منها على مراده ، وقد نصب عليها مهاريس ومدافـع فحالت بين المدافع وبينها كنيسة عظيمة . ولما طال حصاره لها ولم يجد بدّاً من هد الكنيسة الحاجبة للمدينة عن رمي المدافع ، بعد أن نذر أنه يجعـل كنيسة عوضاً عنها على صفة لم تعهد من قبله ولا يقدر أحد أن يشيد مثلها بعده .

ولما حصل على مراده ، شرع في تشييد هذه الكنيسة وسماها باسم الفرايلي الذي كان بها في الوقت ، إسمه اشكوريال [1] وصورة على أحد أبوابها .

وبناء هذه الكنيسة هو شيء يتعجب منه بحسب المعبر عنه ، نقول : هي مدينة مشيدة من حجر واحد ، أرضاً وحيطاناً وسقفاً ، ولم تكن بها خشبة إلا الأبواب فقط . وهذا الحجر الذي بُنيت به كاد أن يكون من الرخام ، وتخليصه في التقويم ، إذا أسند الحجر للذي يليه ، لا يميز طرف الحجر من طرف الآخر المتصل به يميناً وشمالاً ، فوقاً وتحتاً ، ولم يظهر

(١) بالشين المعجمة في جميع المخطوطات . وهو القديس لورنس San Lorenzo الذي قتل في سنة ١٥٢٠ م .

به أثر الطين الذي يُجعل بين الحجر والحجر. وبهذه الكنيسة أربعة عشر مدرسة من أربع طبقات ، وبيوتها لا تنحصر ، يسكنها الفرايلية . وللكنيسة أربعة أبواب : فالبـــاب الأكبر في غاية العلوّ والضخامة وفوقه صورة الفرايلي المسماة الكنيسة باسمه وهو صاحب الكنيسة التي هُدت ببـــلاد الفرنصيص . وداخل هذا الباب متسع جداً ينتهي إلى ستة أقواس نافذة للكنيسة ، وبأعلى كل قوس تصويرة آدمي من الحجر كقطعة جبل ، وعلى رأس كل واحد منهم تاج من النحاس المذهب وزن كل واحد منهم خمسة أرباع . وبالتيجان المحمولة على رؤوسهم تدرك ذواتهم على أي شكل في العظمة .

والعجب هو في مباشرة هذه الذوات العظام في حال رفعها ووضعها بالمحل الذي هي فيه الآن ، على أن علوه ما يزيد على الستين ذراعاً . وكل صورة تحتها إسم صاحبها : فمنهم من بيده آلة الطرب ، ومنهم من بيده سفينة ، ومنهم من لا نعبر عما بيده لعدم المعرفة .

وهذه الأشياء التي بأيديهم جميعاً من النحاس المذهب أيضاً . وفيما يزعمون أن أصحاب هذه الصور ملوك بني إسرائيل ، غير أني لم أتعرض لذكر أنبياء الله تعالى في هذا المحل ، تنزيهاً لهم ، على نبينا وعليهم الصلاة والسلام .

والكنيسة في نفسها عريضة متسعة طولها ثلاثمائة ذراع وعرضها مئتا ذراع وثلاثون ذراعاً . وهناك مقعدة قدرها في العلو نصف ارتفـــاع الكنيسة ، وطولها والعرض ، قدر نصف ساحتها . وهي محل قراءتهـــم وتعليمهم الصبيان . وبصدر هذا المحل صناديق الموسيقى ، ومثلها بالكنيسة السفلى . وبوسط صحنها قبر مكتس بالديباج ، وقد علته قبة جاوزت علو الدور الحاملة للنواقيس . على أن عادتهم في البنيان ألا يتجاوزها علو

بناءاتهم إلا ما كان من هذه القبة المضروبة على القبر المحروق [1] .

والقبة مشيدة على أربع سواري ، بين كل سارية والمقابلة لها ، خمسون خطوة ، وعرضها عشرون شبراً في أحد الوجوه الأربعة من كل سارية وصاحبة القبر هي بنت الطاغية الباني للكنيسة ، وقد أوصت على دفنها هنالك ، بعد أن جعلت أوقافاً على الفرايلية للقراءة عليها .

وقد شاهدنا مصداق ذلك حين عبرنا الكنيسة. فقد رأينا ما يزيد على المائتين من الفرايلية، شيوخاً وكهولاً وصبياناً، محدقين بالقبر من الجهات الأربع ، قائمين على أقدامهم ، يقرأ كبيرهم قدر مائة كلمة ثم يتبعونه بأصوات مرتفعة ، ثم يعود فيعيدون ، ثم يخرج كبيرهم من الصفوف ويذهب ويذهب حتى ينتهي إلى القبر فيشير بيده إلى القبر ، يفعل ذلك بالجهات الأربع ثم يهوي ساجداً لناحية الخزائن بصدر الكنيسة ، وفيها عدة من الصلبان ، وسيأتي ذكرها ، ثم يرجع لما كان عليه من القراءة والتضرع ، ثم يفعل ما فعله أولاً من الإشارة بيده للقبر وسجوده . وفي الثانية يذهب للقبر وبيده مبخرة يشير بها للقبر أيضاً ، وينصرف جميعهم يفعلون ذلك ضحوة كل يوم أحد .

والخزائن المشار إليها ، خزانتان بصدر الكنيسة يصعد إليها بدرجات كل خزانة من ثلاث طبقات . وبين الطبقة والتي فوقها نصف قامة وعرضها ثلاثون شبراً . وقد اشتملت الطبقات الثلاثة من الخزانة الواحدة على ذخائر لا يعبر عنها . وبمقدم الطبقات المذكورة منارات وثريات وبيزان وما هو على شكل المجانة وما أشبه المحبقات التي يجعل فيها النار الكل من خالص المنظم باليواقيت ، يمنط ، فما دونه ، وبين هذه الأشياء صورة امرأة من الفضة قائمة على قدميها ، وعلى رأسها تاج من الذهب

---

(1) كذا في جميع المخطوطات ما عدا « ح » . وفيها : المجون .

المرصع بالدر واليواقيت ، وبجيدها قلادة بها تنبيت من الحجر ، وبوسط القلادة حجر من اليمنط ، قدر ظفر الابهام . وداخل كل طبقة من الخزانة تسع صور من حسان النسوة خلقة ولم يبدو منهن إلا ما فوق صدورهن وفي أجيادهن قلائد من الفضة المذكورة وعلى رؤوسهن سبكات من الذهب المنظم بالدر والياقوت .

والخزانة الثانية على شكل الأولى ، المملوءة بالأشياء المذكورة من الذخائر غير أن ما بها من صور النساء أبدلت برجال ولحاهم من ذهب .

ثم ذهبنا لمقعد هو بجنب الكنيسة ، فإذا به صناديق داخلها كسوة للفرايلية يلبسونها في يوم معلوم عندهم منسوجة من خيط الذهب منظمة بالجوهر ، إشتملت على صنائع غريبة .

وهذه الصناديق استوعبت دائرة المقعد على الجهات الأربع ، وقد علاها مرافع على الإستدارة أيضاً حاملة للتصاوير . وفيما بين كل تصويرة والتي تليها محبقة ذات أغصان مفتحة الأزهار على اختلافها ، الكل من الذهب المنظم بالدر والياقوت والزمرد والمرجان وبعض حجر اليمنط ثم صعدنا لموضع مرتفع فإذا فيه منارة على شكل قبة علوها قامة واستدارتها ثلاثة أشبار . وما بين القائم والعمود تشجير مفتوح في صفائح من الذهب الكل تنبين من يواقيت على ألوان ، ودر وزمرد ويمنط على قلته ؛ ثم مقعداً آخر فيه من الذخائر مثل ما تقدم ، غير أن به زيادة ، منها ياقوتة صفراء قدر بيضة الوز ، لمعانها بالحائط المقابل لها كشعاع الشمس . هي فوق رأس صليب من صلبانهم ، ثم ياقوتة يمنطية قدر اللوزة في قشرها[1] « ثم ذهبوا بنا لمهوات بسبعين درجة ، بعد أن أوقد واعدة من الشموع فإذا بالمدارج من الرخام الأصفر ، وكذا حيطانها وسقفها المنجور ،

---

(١) القطعة التالية غير واردة في النسخة المطبوعة .

المبني من كل درجة إلى منتهاها ، الكل من حجر واحد في غاية الصقالة بحيث يشاهد الناظر فيها وجهه كالمرآة ، ولا أعجب عندي من جميع ما رأيت ، إلا أنه من حجر واحد ، مع أن هذا لا يفعل ولا يمكن وجوده بالكلية ، فجعلتُ أُمعن النظر أين اتصل الحجر بالذي يليه ، فلم أقفْ على شيء من ذلك ، وإنما هو من حجر واحد في قائمه والمبسوط والمقبى والمقبي الذي هو سقف المدارج . وهذا مستحيل عقلاً .

فلما انتهت بنا المدارج ، وجدنا قبة محمولة على سواري من المرمر في غاية العلو ولها تيجان من الذهب . وبنيان القبة مثمن ، لكل ثمن قوس من الرخام متصل بسورها ، داخل كل واحد من الأقواس أربعة صناديق من الرخام ، بعضها فوق بعض وقدر ما بين الصندوق والذي يليه قدر ذراع . وهذه الصناديق مستديرة على كراسي من الرخام . وعلى أطراف الكراسي حمائل من الذهب عرضها دون الشبر بقليل ، وغلظها ما دون الإصبع ، وبعض الصناديق مكتوب عليها ، وجلها من غير كتابة . فسألنا عن ذلك . فإذا هي مقبرة ملوكهم . وقبر الطاغية الموجود الآن مميز عندهم قرب قبر والده . وقد اشغل هذا الموضع لدفن الملك أو زوجته أو أمه . فإذا مات أحدمنهم فتحوا أحد الصناديق وحشروه فيه وأغلقوا عليه وكتبوا على الصندوق : هذا قبر فلان .

والقبة استوعبت ما يتعجب منه من رقم وتمويه السقف بالذهب والألوان والتصاوير والألوان والصلبان من الذهب المنظم باليواقيت والدر تحمله سلاسل من الذهب .

وقد ألم بنا ألمٌ وضيق في النفس حتى خشيت الفوات ، ولم ندر ما السبب ، فبادرت من الصعود من الهوات وقد سرى عني وذهب في الحال ما كنت أجد من الألم ، فعلمتُ أن موجب ذلك العارض هو نزولنا

وحلولنا في تلك الهوات التي هي حفرة من حفر جهنم ، فجعلت أحمد الله تعالى على نعمة الإسلام .

ومن هنالك ذهبنا لقبة قريبة من أن تكون ستينية وسمكها غير مرتفع جداً ، وفيما أظن أن علوها قدر مساحتها . وقد استقلت بحكمة غريبة ، هي من العجب : يقف الرجل بزاوية من زواياها وصاحبه بالزاوية المقابلة لها بالنظر ، فيمكن من جهته من الزاوية ، وصاحبه كذلك ويتكلم أحدهما مع الآخر بصوت منخفض جداً ، والمساحة التي بينه وبين صاحبه مملوءة بالناس يتجسسون على ما ينطق بـه الرجل المتكلم مع صاحبه ، فلم يسمعوا شيئاً بالكلية ، وصاحبه الذي بينه وبين هذا البعد البائن يسمع جواب صاحبه والآخر جوابه أيضاً . وإنما نفوذ الكلام خاص بآذان المتكلم والمجيب ، ولم يكن في الزوايا ثقب ولا يتوهم أن بباطن سور القبة مسلكاً لصوت الواصل للسامع والمتكلم . ولم آل جهداً في البحث عن ذلك ولم أقف على ما هنالك . وهذا أمر يتعجب منه . » (1) .

وأما دار الطاغية التي بها الكنيسة ، فحكمها حكم دياره الموصوفة من تعدد القباب والغرف والمنازه وغير ذلك ، مما تقدم ذكره مفصلاً في غير موضع ، غير أن هذه مبنية بالحجر المحض ، أرضاً وحيطاناً وسقفاً . وكذا ما بها من التصاوير ، كلها من الحجارة وبجنبها دار مملوءة مقاعدها بأواني الأدوية ومعاجن وأدهان وغير ذلك مما يتعلق بأمور الطب .

ومتصل بدار الطاغية عدة بساتين ذات أشجار من الفواكه والنوار وبها صهاريج وقد أحاط بالجميع من خارج أشجار لا ثمار لها هي في غاية العلو والضخامة مستديرة بها سور من الحجر من غير بنيان ، وإنما هو من

---

(1) إنتهت القطعة المحذوفة في النسخة المطبوعة .

الحجر المسند بعضه على بعض . وداخل هذه الغابة من الغزلان ، ما لا حصر له تسرح هنالك آمنة ومعها الكثير من القنين (؟) والمها ، جميعها تسرح في محل واحد ، فهي الماشية عندنا .

وعلى بعد من المدينة بنحو ميلين ، موضع اصطياد الطاغية . وهنالك ديار لاستراحة الطاغية عند العودة من الإصطياد . وبأرجاء هذه الديار صهاريج عديدة نافذة مياهها بعضاً لبعض .

أقمنا بها بضعة أيام وسافرنا مصاحبين السلامة ، قاصدين مدينة مدريد عن واحد وعشرين ميلاً . وفي أثناء الطريق ، التقينا بإخواننا الأسارى وفرحنا بهم ، وقد أنسنا غربتهم وخبرناهم أن سيدنا ، نصره الله ، مهتم بشأنهم مستعمل البعض والكل ، أعزه الله في السعي في فكاكهم وإنقاذهم من الأسر ، ودفعنا لهم ما أنعم به سيدنا عليهم ، حسبما هي عادته الجميلة معهم في كل سنة . وقد وجد الكثير منهم مثقلاً بالسلاسل والأكبال ، حيث تكرر منهم الفرار ، فكتبت في الحال مستشفعاً في إزالة السلاسل عنهم والأكبال وتسريح رجل منهم أصابه البارود بعينيه فعمي ، فأجاب الطاغية سراح الرجل الأعمى وإزالة السلاسل عن إخواننا المؤمنين ، وقد بالغنا في الإيصاء عليهم للمتولي أمرهم من قبل الطاغية ، وبذلنا المجهود في إكرامه بالأمر المطاع لكي يحصل الرفق بعباد الله .

وقد ظهرت نتيجة ذلك، لأن بصيرة سيدنا، نصره الله منورة . وقد ظهر من اللعين حين أكرم ، الميل إلى المسلمين والشفقة عليهم والرفق بهم ووعدنا بمباشرتهم والإحسان إليهم ، ما دام مولًّى عليهم .

وجملة الأسارى المستعملين الآن في خدمة الطريق الذاهبة من مدريد إلى الاسكوريال، مائتا أسير وأربعة ، وكانوا قبل ثلاثمائة فر منهم البعض واكرم بالشهادة البعض ، وبقي منهم الآن العـــدد المذكور . وهؤلاء

الأسارى جلهم من أهل الجزائر وبعضهم من الترك نسأل الله أن ينقذهم مما هم فيه ويفرج عن جميعهم بمنه وفضله ، إنه على ذلك قدير !

وعند تسرادهم تبين أن ثلاثة عشر منهم يعالجون بالاسبيطال بمدريد ما ألم بهم من الألم .

ومن الغد وصلنا لمدريد وذهبنا لعيادة إخواننا وحملنا لهم ما أنعم به سيدنا عليهم من جملة إخوانهم ، فسلمنا عليهم وفرحنا بهم غاية وحدثناهم بما أنست به نفوسهم من وعد سيدنا ، أيده الله ، بسراحهم ، والكل على اعتقاد واحد من أنهم آيسون من قومهم ، ولا طمع لهم إلا في سيدنا أيده الله ، في إنقاذهم من الأسر .

وقد انصرفنا عنهم ، وهم داعون لسيدنا ، نصره الله ، بكل خير والموكل عليهم في الاسبيطال والمعين في مباشرتهم نصراني فرايلي له عقل راجح وسمعة حسنة في قومه ويحسن مباشرة المرضى في الأكل والشرب وتنقية أثوابهم وتطهير أماكنهم إلى غير ذلك مما يحتاج إليه المرضى . والمعين لمباشرتهم عدد كبير من النصارى ، والكل إلى نظره . وقد أوصيناه بإخواننا ، فأجاب بالسمع والطاعة ، على أنهم حدثوا عنه أنه يحسن إليهم ويقدمهم في المباشرة على أبناء جنسه ، فأكرمناه ، وقد وعد بزيادة الإحسان إليهم لأجل إيصائنا عليهم[1] . وقد بالغ في الترحيب بنا وأبدى من المباشرة ما دل على باطنه ، ومن جملة مباشرته وتأدبه معنا أنه دعانا أن نذهب معه لبيت الأدوية المشتمل على معاجن وأشربة وأدهان وعقاقير وأعشاب ، وطلب منا أن نأخذ منه ما نحتاجه ، حيث ظن أننا نحسن شيئاً من علم الطب ، فجازيناه خيراً واعترفنا له بما هو عليه من الصواب والأدب ، ثم ذهبنا لمقعد آخر ، فإذا به من الحكماء يستعملون الأدوية

---

(١) هذه القطعة غير واردة في النسخة المطبوعة .

الوقتية ، والمباشر لهشم العقاقير ، صبيان صغار بالمهراس ومنهم من يزيل من الأعشاب ما لا فائدة فيه . وهناك قطاطير قدر القامة من النحاس يقطر فيها ماء الأعشاب المحتاج إليها .

وموضع دار طبخ الاسبيطال بصحنها صهريج به ماء جار بها عدة من القوم يباشرون الطبخ لما يزيد على مائة رجل . وقد شاهدنا بهذه المطبخة ما يزيد على ثلاثين شاة من الغنم كل واحد يباشر قطع لحم شاته بيده . والاسبيطال غاية في العلو وله مقاعد عديدة ، والمساحات الدائرة بالصحن محمولة على مائة سارية من الرخام . وقد ذكروا لنا أن هذا الاسبيطال هو واحد من إثني عشر ، الكل في شكله ، بهذه المدينة المادريدية . وقد عبرنا بوسط المدينة أماكن بطرف المدينة ، فلم نجد بدأ من المرور على أسواقها ، فشاهدنا من المدينة ما لم نشاهد قبل في علو ديارها واتساع شوارعها والأسواق التي لا يأتي عليها الحصر ، وقد اجتمع بها من الفواكه الرطبة واليابسة ما لا يكيف ، منها الخريفية والصيفية ، الكل مجتمع في أوان واحد ، والمباشر لبيعها نساؤهم .

وأكداش هذه المدينة لا حصر لها ، وصوتها في العبور بهذه الأزقة كصوت الرعد القاصف ، لا يفتر ليلاً ولا نهاراً ، وبشوارع المدينة فنارات معلقة ، توقد كل ليلة من المغرب إلى الصباح على التأبيد . وقد ذهبنا ليلة لبيت أحد المراكيس الذي بعثه الطاغية لملاقاتنا حين حللنا مدريد ، وهو من خواص الخواص عند عظيمه ، وقد كان في خاطره أن يكرمنا في داره فعاقه عن ذلك تأخير ملاقاتنا بالطاغية ، إذ في أعرافهم أنهم لا يتقدمون على الطاغية في إكرام الوارد عليهم فإذا حصلت الملاقاة بالطاغية ، فحينئذ يسوغ لهم ذلك[1] .

---

(١) إنتهت القطعة المحذوفة في النسخة المطبوعة .

ولما كانت الأوبة لمدريد بعد التشييع مع الطاغية ، كان هذا المركيس بحضرة عظيمة ، وأوصى إبنته على الليلة بالإكرام وإيقاد الشمع وإحضار أهل الموسيقى ، وأن تجمع بنات الأكابر عليها لهذه الضيافة ، ففعلت ما أمرها به والدها ، بعد أن قدمت لنــا الإعلام بذلك وبعثت بأكداش فركبناها وذهبنا مصاحبين الفرايلي الذي يؤم بها في صلاتها مع عدد من الأعيان الذين في طبقة والدها ومرتبته عند الطاغية ، والكثير من خدامها حاملون للشمع أمامنا .

ولما بلغنا الدار تلقينا فيها جماعة من البنات القريبة منها في السن وغيرهن من النسوة ، الكل يرحب ويبجل ، فإذا دارها من خيار الدور ، بهــا مقاعد غير بعيدة من مقاعد ديار الطاغية في البنيان والفرش والستــور والتصاوير وما يضاف لذلك .

ولما استقر بنا المجلس ، أخذ أهل الموسيقى في العمل ، فقامت البنت منشدة فيهم بصوت يذهل العقول ، ولها أخ ما ظننت أنه يحسن الكلام ولا يلفق بين الحروف ، لصغره ، وعليه مخايل البلَه ، فلم أشعر إلا وهو بين أهل الموسيقى ، وبيده رباب وأنامله تدب على أوتاره ، فتعجبت من ذلك وسألت في الحال أهل الموسيقى : هل يحسن شيئاً أو جلوسه معهم من غير فائدة ؟

فكان جوابهم أن تركوه وحده يضرب ، وقد أجاد . فلما سمعت أخته تعجّبي من أخيها ، نهضت في الحال لصندوق الموسيقى وقد كان يباشره شيخ كبير ، فجلست محل الشيخ وجعلت تحرك ما به من الأوتار وتجيب عنها بصوت رخيم بعد أن أسكتتْ المعلمين الحاضرين . وقد رأينا منها ومن أخيها ما فيه العجب ، ثم بعد ذلك ، قامت ترقص ثم اقتفــى أثرها في الرقص من حضر بالمجلس من بنات الأكابر ، على الصفة المعهودة منهم في رقص الذكر مع الأنثى وقــد استبعدت لك

من بنات الأعيان وأولادهم ، فكشف الغيب أن علم الموسيقى هو شعار الأعيان منهم وذوي الأقدار ، وآلة الموسيقى الحاضرة هي لوالد البنت والشيخ الذي يباشر ما بالصندوق [1] من النغمات ، هو المعلم للبنت ولأخيها وهذه البنت صغيرة لم تبلغ الحلم ، وأخوها دونها في السن .

ولما فات النصف من الليل تشيعنا مع البنت وأخيها ومن حضر مع الجماعة وأظهر الكل من الأدب حال التشييع ما لا يكيف ، وبعثت عدة من الخدم حاملين للشمع أمامنا إلى محلنا وانصرفوا عنا مكرمين .

ومن غداة الليلة ، كتبت البنت لوالدها تخبره كيف كانت الليلة إجمالاً وتفصيلاً ، فأجاب والدها بما فيه مجازاة لها ، وتمنى لو حضر بنفسه ، وأكد عليها أن تطلب منا العودة ، فاعتذرنا لها بعذر مقبول ، وما زالت تتعهدنا وتعيد الطلب إلى أن سافرنا .

وكانت إقامتنا بمدريد ، بعد التشييع من الطاغية مـا يقرب من الشهر في انتظار ما وعد به من كتب الإسلام التي كانت بالمدينة المادريدية ولم يكن الطاغية بالمدينة حال التشييع ، فأمر بإخراج الكتب من المحـل الذي كانت به ودفعت لنا ، وزدنا عليها ما صحبناه من الكتب من غرناطة ثم بعث الطاغية لقالص بعد سفرنا من مادريد واصلاً لدينا ، وقد كان وعد بذلك حيث لم يمكنه التوصل قبل السفر ، وقد وفى بما وعد .

ثم استعملنا السير من مادريد مصاحبين للشلاظاظ والفسيان المعينين من قبل طاغيته لمصاحبتنا في طريقنا ، في الثامن والعشرين من جمادي الأول من عام تاريخه ، قاصدين أحد ديار الطاغية من الديار الأربعة المعهودة

---

(١) المقصود هنا البيانة .

لسكناه في الفصلين المذكورين ، وهي المسماة بارانخديس [1] عبرناها عن واحد وعشرين ميلاً بين صفوف الأشجار التي لا ثمار لمـا استوعبت الطريق يمينـاً وشمالاً خارجة عن سواري من الرخام علوّها نصف قامة . وفيما بين السارية والتي تليها عشر خطوات صاعدات من صفائح الحجر الذي كالرخام بحاشيتي الطريق » [2] . وعند كمال كل مسافة سارية مربعة مرشوم عليها بالغباري المسافة الأولى . فإذا انقضت المسافة الثانية يجد بالسارية شكل الإثنين بالقلم الغباري أيضاً .

وهكذا في كل مسافة . وفي خلال هـذه المسافات لحقنا بالوادي المسمى وادي الرمل [3] عليه قنطرة لم يكن مثلها في البلاد الاصبنيولية فيما رأيت ولا ما حدثت به ، أقواسها خمس وعشرون ، والسواري التي بين الأقواس من الجهتين كالشواهق ، كل قوس فوقه قادوس من الرخام من أعلى القنطرة يلفظ الماء عن بسيط القنطرة من الجهتين حال نزول المطر . والقوادس قدر المدافع وتتصل بمحفظات القنطرة يمينة وشمالاً مسطبات من الرخام . وبناء القنطرة من الحجر الذي هو في البياض والصفاء كالرخام .

قيل إن أخا الطاغية الموجود الآن ، هو الذي شيدها منذ عشرين سنة . وهذا الوادي يتصل بالوادي الكبير المسمى بطاخو (تاجه) على قرب من أرنخويس بثلاثة أميال ، وهو المار بطليطلة المحيط بسبعة أثمانها .

---

(١) Aranjuez ، بلدة من عمل مدريد على نهر تاجه .

(٢) هذه الفقرة محذوفة في النسخة المطبوعة .

(٣) وردت هذه الكلمة محرفة في جميع النسخ ووادي الرمل (Guadarrama) يتجه إلى الجنوب ماراً بضاحية الأسكوريال وينصب في نهر تاجه شرقي طليطلة . وهذا النهر يكون جافاً معظم فصول السنة ولا يجري إلا في مواسم المطر .

الخبر عن مدينة ارنخوس

هي إحدى ديار الطاغية المعدة لاستراحته من المصيف لطيب هوائها ، حسبما تقدم ذكره ، وقد بنى بازائها أعيان دولته من الديار المعتبرة حتى صارت من جملة المدن . وقد اجتمع فيها ما افترق في غيرها مما يأتي ذكره: فنقول :

دار الطاغية هي كدياره الموصوفة في أيّما موضع ، من تعدد القباب والمقاعد والغرف والمناره والتصاوير وما يضاف لذلك من نقش ونحت في الحجارة وتمويه السقف بالذهب والفضة وغــير ذلك مما هو مقرر وموصوف . غير أن هذه الدار تزيد على غيرها بمسائل مستحسنه ، منهــا جريان الوادي بجدراتها . الثانية: بسط أرجائها واستيعاب نواحيها بالأغراس، الثالث : ما أبدعه المهندسون في القباب ، منها الأولى ، هي قبة بالودع الشديد البياض حيطاناً وسقفاً . وقد استوعبها تصاوير آدمي وحيوان ووحش وطير وحشرات من ذوات السموم ، وغيرها : الكل ناتى « من نفس الودع . كل صورة على شكل خلقتها في تغيير الألوان والشكل ، كالسواد في العين والشعر ، وبياض الاسنان وغير ذلك ، ولا عجب من كون ذلك من نفس الودع ولم يخالطه غيره .

ولاتصال هذه الصور بسيط لوح الودع والألواح الودعية المشتملة على هذه التصاوير ، لا يشاكل بعضها بعضاً في الحرم ، وحال انفصالهــا منها ما قدره ذراع في الطول ، والعرض مثله ، ومنها أكبر . وموضع كل لوح من الودع مرسوم بخطة على شكله في لوح القبة التي تكتسي بالودع ، وداخل الخطة علامة بالقلم الغباري المسمى عندهم بالنومرو ثم علامة مثلها بجانب ألواح الودع ، فيهتدي بالعلامتين لوضع كل لوح بمحله حال إتلافها ، وإثبات هذه الألواح الوداعية على ألواح

الخشب بلوالب من ظاهر الودع . والطراشة التي تقابلها هي في الخشب، فيتصل كل لوح بلوح على الصفة حتى يستوعب القبة المذكورة بنشر ألواح الودع عليها في قائمها والمبسوط. » ومن العجيب ألا يميز اتصال اللوح من الودع بالذي يليه بالكلية ، وكذا رأس اللواليب، لا تميز إلا بعد التأمل وإمعان النظر ، هذا إذا أخبر الإنسان بما هنالك ، فيجتهد في البحث عن هذه اللواليب والفحص عنها لأنها مموهة باللون الذي حلت به . وأما من لم يسبقه إعلام بذلك فلا يهتدي للواليب بالكلية لشدة أخفائها بالتمويه . وهذه القبة إن أراد صاحبها نقلها لمحل آخر ، لا تعب عليه في ذلك ، وإنما تنقض ألواحها الوداعية بحل اللواليب الثابتة لها على ألواح الخشب ثم ينقل القبة الأصلية التي هي من العود ، ثم يضربها في أي محل شاء . وتكتسي بألواح الودع على الصفة ، ومساحتها سبع وعشرون قدماً ، وطولها كالعرض [1] ثم قبة أخرى من المرايا ، ثلاث مرايا في كل جهة من الجهات الأربع ، طولها ستة عشر شبراً وعرضها ثمانية أشبار ، تشتمل على إثني عشر لوحاً من المرايا . والرابط بين المرآة والتي تليها ، قضيب من الذهب قدر الإبهام عرضاً . وسقفها شبكة من قضب الذهب ، وداخل الشبكة رقم بألوان عديدة ، والباب الذي يدخل منه لهذه القبة هو واحد من المرايا . فإذا سُد شاكل غيره من المرايا ولم يدر العابر من أي موضع كان عبوره .

والمرايا تمثل من القبة التي فوقها عدة قباب خارجة عنها ، والناظر لأحد المرايا التي بالزوايا يشاهد طريقاً في غاية الطول وعرضها عرض المرآة تماثلها التي تقابلها . فإذا أرسل طرفه يميناً وشمالاً وأماماً وخلفاً تعددت الطرق التي بزوايا القبة ، وهذا يدرك عقلاً من مقابلة المرآة للمرآة على الصفة .

---

(١) هذه القطعة محذوفة في النسخة المطبوعة .

وبناء هذه الدار قرب شط الوادي المذكور المسمى بطاخو وهو واد كبير جداً قريب من واد سبو المهدية . أخذ منه الطاغية نحو ربعه وجعله محيطاً بداره وبستانه بعد أن بنى سوراً بمجراه يميناً وشمالاً بالحجر المنجور . والعرض منه ستة أذرع ، أي عرض الوادي . وطول السور من مجرى الماء إلى الدرابيز المضروبة بأقصاه داخلاً وخارجاً قدر قامة . والدرابيز من الحديد المموه بالذهب . وداخلها أرض في غاية البسط . مساحتها طولاً وعرضاً نحو أربعمائة خطوة تنتهي إلى الوادي الكبير المأخوذ منه ما ذكر . وقد اشتملت هذه الأرض على خصص يصعد الماء من أنابيبها للهواء بما يزيد على مائة ذراع . وبها بعض الأغراس لم نر مثلها قط ، إذ خلقتها لم تعهد عندنا ، علوها قدر قامة . وساعدها قدر الساعد ليس به نبات ولا أغصان وبأعلا ساعدها كرة من النبات ملتف بعضها في بعض يانعة جداً لا ثمار لها » . والماء الصاعد من الخصص المذكورة وغيرها مما شاهدناه في رياضها على شكلها . ينحدر من صهريج بأعلى جبل ، شرقي المدينة في قوادس من الحديد طولها عشرة أشبار وعرضها في الإستدارة أربعة أشبار . هي على شكل مدفع . وبطرفي القادوس لوحة من الحديد مبسوطة دائرة على فمه من الجهتين . فيتصل كل قادوس بالذي يليه : بطراشه ولواليب من اللوحة المتصلة به القادوس ثم الذي يليه وهكذا وبين الصهريج المذكور ودار الطاغية ثلاثة أميال . وبإزاء الوادي الكبير بنيقة عريضة جداً داخلها سفينة مموهة بالذهب وقامرتها لها شبه بالكدش في الشكل . وبين البنيقة والوادي ثلاثون خطوة . والسفينة يركبها الطاغية مع زوجته وخواصه في زمن مخصوص للنزهة ثم تعود لترسي بالموضع المذكور . ثم بنيقة أخرى أكبر منها . وبها سفينتان قريبتان من الأولى قيل إنهما كانتا لوالده . والبنيان المحدق بهذه الدار هو في غاية الطول والعرض يشقه الوادي الكبير . وهناك يتصل به الوادي المأخوذ منه المحيط

بالدار المذكورة ، له خمس قناطر . ثلاث داخل البستان وإثنان خارجتان عنه يعبر عنهما للمدينة »[1] .

وبالرياض قباب ومنارة وأشجار في غلاظ الأرزات العظام وطولها غير أنها لا ثمار لها . وبوسط هذه الأشجار المذكورة ، أشجار الفواكه التي لا تحد . ثم بستان آخر استقل بالفواكه الصيفية والخريفية وقد عثرنا على دار داخل أحد أغراسه . فوجدنا بها مقعداً طوله مائة خطوة وعرضه ثلاثون ، أحاطت به مرابع بعضها فوق بعض . والفرجة التي بين الطبقة والتي فوقها قدر ذراع وعرضها أربعة أشبار حاملة الفواكه الرطبة مثل الكمثري والتفاح . والتفريق بين كل ثمرة والتي تليها حال وضعها قدر إصبع معين على الحفظ وعدم الفساد . والفراش التي تحط عليه هذه الفواكه ربيع كالفضة ، وكذا أرض المقعد استوعبها فرش من النبات المذكور وقد علاه من الفواكه ما يعجز عن حمله .

ذكر القيم على ذلك أن هذه الثمار تمكث بقية السنة ولا يدركها تغير . فهي مدخرة لأكل الطاغية يبعث له في كل ثمانيةأيام ماهو كاف له في المدة المذكورة . إذ عادة الطغاة الروم إحضار الفواكه الرطبة واليابسة في أوان واحد . وقدر التفاح والكمثري قدر الاترجّة ، وطعمها طيب جداً وكذا السفرجل نسمة وطعماً .

أقمنا بهذه المدينة يومين وسافرنا قاصدين مدينة طليطلة عن واحد وعشرين ميلاً . وقد كنا في غاية الإهتمام بها . ومنها في الخاطر شيء كثير . حيث عرجنا عليها حال العبور لمادريد ولم يساعدنا الوقت في الدخول [إليها] . وكان القصد منا بالوصول إلى طليطلة أن نتعاهد الأماكن

---

(١) هذه القطعة محذوفة في النسخة المطبوعة . وقد اعتمدنا في تحقيقها على المخطوطتين [illegible] باقي المخطوطات ففيها كثير من الحذف والتشويش .

التي كانت للمسلمين ونحيي معاهدهم ونقف على مقابرهم ونترحم عليهم ونخبر جامعها الأعظم ونبحث عما هنالك من الكتب العربية وما نجـــده بالموضع الذي لا يناسبه ننقله للموضع اللائق به الحافظ له من لمس الكفرة فضلاً عن أن يطئوه . لأن الطاغية فوض الأمر في ذلك واستحسن منا ما فعلناه بقرطبة من قلع اللوحتين من الرخام اللتين كانتا بالأرض ورفعهما بأعلى سور المسجد. وقد اعتذر بعدم المعرفة بما هنالك من الفرايلية وغيرهم

الخبر عن مدينة طليطلة :

هي مدينة مشيدة على ربوة في غاية الصعود وقد أحاط بسبعة أثمانها الوادي الكبير المعروف بطاخو ، وديارها من ثلاث طبقات فأقل عـــلى البناء الإسلامي ، فهي بين خفض ورفع ، وأزقتها ضيقة جداً . والمدينة في نفسها غير بعيدة من فاس ، تشاكلها في البيوت والغرف واستـــدارة الطبقة العليا بالدرابيز من الخشب . وسور المدينة لم يغير منه القوم شيئاً يصعد بصعود الربوة ، وينحدر بانحدارها وللوادي قنطرتان إحداهمـــا من ثلاثة أقواس ، والأخرى من أربعة . من عمل الروم . وأماالقنطرة الإسلامية فقد هدها السيل . على ما قيل . ولم يبق منها إلا الجدار وبخارج القنطرتين قصبة من عمل المسلمين رحمهم الله . لها أربعة أبراج مثمنة في البنيان في غاية الإتقان. يحسبها الناظر أنها بنيت في الحال لجودتها وجدتها .

ولما قربنا من المدينة خرج أهلها لملاقاتنا بجمع عظيم وفعلوا مافعل من قبلهم من المدن من الترحيب والإجلال . ونزلنا بدار هي من خير دور المدينة .

فلما كان من الغد ذهبنا إلى الجامع . فإذا هو من أعظم المساجد اجتمع فيه ما افترق في غيره ، فهو أعـــلى من مسجـــد قرطبة ، وقريب منه في طوله وعرضـــه ، إذا أضيف إليـــه البيوت والمقاعـــد والمخـــازن

المتصلة من نواحيه الأربع . وسواريه ليست كغيرها من السواري التي بالمسجد ، كل سارية محيطة بها ثمان سواري متصلة بها متقدمة عليها أقواس في غاية العلو .

وبناء الجامع وسواريه من الرخام . وقد جعلوا بين كل حجر والذي يليه في القائم والمقبى لوحة من الحجر الأسود عرضها كعرضه وعلوها قدر الإصبع . زيادة في الحسن والنظارة . وبوسط المسجد قبة طولها إثنان وسبعون قدماً والعرض مثله ، أحاط بها شباك من النحاس المذهب واسترعبها تصاوير عديدة حيطاناً وسقفاً . ومساحات مستديرة بنصف علو القبة حاملة لصناديق الموسيقى «على الكيفية المقررة في غير ما محل من أماكن متعبدهم المشتملة على عدة من الصلبان وغيرها . وبطرفي الجامع مع مثلها ، ثم أبهاء عديدة خارجة عن المسجد متصلة به يدخل لها من الجامع . وليس لها أبواب من خارج ، منها ما اشتمل على خزائن مملوءة بالذخائر المعهود استعمالها من ملوكهم بكنائسهم من قديم . وكل من تولى منهم يزيد على من قبله » [1] .

وقد اجتمع في هذه الخزائن ما لم يكن في غيرها مما شاهدنا من التيجان العديدة والأساور والقلائد والخواتم والمنارات والحسك والكيسان والصور من الصلبان وما لا يعبر عنه ولا ندري ما نسميه . الكل من الذهب المنظم بحجر اليمنط وغيره على ألوان عديدة ومنها ما خالطه زمرد وجواهر نفيسة . وأما ما هنالك من أواني الفضة . فلا ينحصر عدداً . ثم بإحدى الخزائن ماس على شكل منار الجامع . قدره ما دون قامتين بيسير محمولة على ظهر صور آدميين يحسبهم الناظر أنهم أحياء ، وذواتهم

---

(١) هذه القطعة محذوفة في النسخة المطبوعة .

من الفضة ولباسهم من الذهب . وقد استوعب المنارة تنبيت من أصناف اليواقيت . وبإزاء هذه المنارات سوران دائرتهما من خمسة أسابيع ، وبوسطهما من أربعة وغلظهما من إصبع ، وبها تنبيت من اليمنط وغيره من جنس اليقوت وبعض الجواهر النفيسة ، ثم كتاب مرشوم بالذهب هو عندهم بمكانة مكينة لا يطلع عليه إلا من بذل المال للفرايلية ، قيل إن فيه بعض التورية . وبالجملة : إن الذخائر التي بالمسجد الطليطلي ، فيه زيادة على ما بأشكوريال ، على أن اشكوريال هو أعظم الآثار في البنيان والذخائر ، ولا خفاء أن طليطلة هي دار ملك قديم ومرت عليه دول كثيرة مسلمة وكافرة . وجامعها هو العتيق بالبلاد ، والذخائر التي كانت به لم يحدث بها تفويت حال الأخذ لنقلها إلى محل آخر حين حاصرهم المسلمون وبقيت عندهم محفوظة حتى عادت لمحلها على ما حدث به أحد الفرايلية . ثم هناك أبهاء عديدة يسكنها الفرايلية . وبأعلى سور هذا المسجد من أحد نواحيه ، سبعون طاقة من الزجاج الملون المسمى بالزجاج العراقي .

وأبواب الجامع إحدى عشر ، منها ثمانية من الجهات الثلاث ، والجهة الرابعة استقلت بثلاثة أبواب متصل بعضها ببعض ، الوسطى في غاية العلو واليمنى واليسرى دونها بنحو الثلث . وفوق السواري الحاملة لأقواس الأبواب ، سواري أخرى صاعدات في الجو حاملة للتصاوير من نفس الحجر الذي هو في صفاته كالرخام . وبإزاء أحد الأبواب الثلاثة منار المسجد ، وهو في غاية العلو ، مدارجه ثلاثمائة وتسع وخمسون درجة والعرض منه إثنان وثلاثون ذراعاً في أحد الوجوه الأربعة ، وبه النواقيس إثنا عشر ، أحدهما كبير جداً ، قيل لم يكن مثله في البلاد الاسبنيولية يسمع صوته مسيرة يوم ، وزنه ثلاثمائة وأربع وتسعون رطلاً . وقد نقروا عليه ونحن بالصومعة ، فبقي دويه نحو الساعة حتى خشينا على أنفسنا الصمم عند نقره ، وأخبرنا الموكل به عن العود إليه بالمضرب ، ومن البر

ما يكون عقد قاً . ولسان هذا الناقوس المعلق بوسطه المستعمل لنقره . هو قدر المدفع . والمحرك له حال الضرب : سلسلة متصلة وطرفها ممكسن بناعورة فإذا حركوها بما لها من الحركات ، اتصل لسانه بجنبه بعنف فيصوت صوتاً لم يعهد من صوت مدافع ولا من البنب . وبالصومعة جبٌ يجتمع فيه ماء المطر . وبصحن الجامع أشجار النارنج وأشجار البلنز بما يزيد على العشرين وبأحد الأبهاء المذكورة خمس صور قائمة على أقدامها ، إثنان من وحش الرقيق ذكر وأنثى ، وإثنان من الترك ، رجل وزوجته ، وواحد من الشلظاظ كل على خلقته وهيئته من الحلية في اللباس المعهود له ، غير أن طول كل واحد منهم ستة عشر ذراعاً . والرأس والأيدي والأرجل وما بقي من الجوارح في خلقة هائلة مناسبة لطول القامة المذكورة .

فلما أقبلنا عليهم بديهة فزعنا وجزعنا ، سيما وقد استعملتْ الخطى نحونا ، لا يتمارى فيها الذكي الفطن ، إنها ذوات من غير روح بالكلية ! ثم كشف الغيب أنها صور وقد جعل أشباحها النصارى ، وهم المحركون لذواتها ؛ جعلوا ذلك فرجة لنا ثم صورة رجل داخل الجامع أعظم خلقة من الصور المذكورة في الطول والعرض ، وقد عبر بعض أصحابنا ما بين كعبتيه إلى الإبهام أربعة أشبار . فانسُبْ بقية جوارحه لقدميه يتبين لك قدر هذا الشخص الهائل وبيده نخلة يتكىء عليها ، وكأنه عابر سبيل . وهذا لا غرابة فيه ، لاقتدارهم على التصوير وإنما أدرجناه هنا من جملة ما شاهدناه بالجامع .

ومن غداة يوم العبور بالمسجد ألزمت حاكم البلد أن يصحبني للأماكن التي كانت لملوك المسلمين وأن يرشدنا لمقابرهم ، وكذا ديار الأكابر من المسلمين كالقضاة والوزراء والقواد ، ومن في معناهم لأن الكثير منهم يستعملون الكتابة في ديارهم حيطاناً وسقفاً ، وقد كنت أخبرت بشيء

من ذلك . فأطرق الحاكم شيئاً استأذن علي أن يذهب ويرجع في الحين فلم يلبث إلا وهو مقبل برجل مسن جداً غير أنه ثابت الذهن صحيح التمييز له خبرة في البلاد من ذلك وطعنه في السن ، ثم جعل الحاكم يسأله بسؤالنا حتى استوعب ما عنده من الخبرة . فكتب الحاكم جميع ما تعلق بعلم الشيخ . وركبت في الحال مع الحاكم للمواضع التي أرشدنا إليها الشيخ : فإذا بمقبرة للمسلمين رحمهم الله ، وهي سارية من الرخام مكتوب عليها بخط كوفي :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، يأيها الناس إن وعدالله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور ، هذا قبر الإمام أحمد بن أحمد ابن مغيث كان يشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » توفي رحمه الله ليلة الأحد لثمان بقين من ربيع الثاني سنة تسع وأربعين وأربعمائة .

ثم سارية أخرى مكتوب في أولها ما في الأولى ، غير أن صاحب القبر لم يعرف من هو لمحو المحل الذي هو مكتوب به ، ولم يبق من الحروف إلا لفظ أربع وأربعين في محل التاريخ . ولا يقرأ ما بعده ولا ما قبله ، ثم مواضع أخرى هي جميعها وبقي آثار بعض الحروف ، إلا ما كان من ديار الملوك وأعيان الدولة من الإسلام ، فقد وجدنا بها بعض الكتابة اشتملت على لفظ « العافية الباقية » ! ثم « العز لله » ! ثم « الملك لله ! » ثم « السعادة الكاملة والنعمة الشاملة » ! الكل مكتوب في الجبص قرب السقف . وهذه الديار هي في المدينة ما زالت على حالها من بنيانها الإسلامي القديم .

وأما القصبة التي بقنة الربوة : فقد استولى عليها الخراب من داخلها وأما سورها فباق على حاله . وما زالت القباب والمقاعد والغرف والمناره

مشيدة الأركان منهدة السقف . والبعض منها على حاله القديم « غايته مقعدان . أحدهما به تصاوير قائمة الذوات . لم نسأل عنها في الحال وبقي في الخاطر منها شيء حيث لم نقف على حقيقتها نهياً عن البحث فيها .

والمقعد الآخر يسكنه المتولي آمر القصبة من قبل حاكم البلاد . وبزوايا القصبة منارات أحدها باق على جدته له مدارج يتعجب منها ؛ هي شيء غير معهود ، صعودها في جوف برج مستدير من الحجر المنجور بوسطه سارية من الرخام صاعدة إلى منتهاه . عقد عليها المهندس طريقين كل واحدة لها مدارج بحيث يرتقي العابر من أحد المدارج ويصعد الآخر من المدارج الأخرى ، ولا يلتقي أحدهما بالآخر . حيث ينتهيا بباب المنزه من أعلاه . وكلتا الدرجتين منعقدة على السارية الوسطى . وقبل المنزه براح بطرفة مهتان جنب هذه لهذه . لكل واحدة منها مدارج يصعد منها على الكيفية وينزل منها على الصفة المقررة . والفضاء الذي بنيت فيه هذه المدارج ، قدره من السارية لسور البرج . أربعة أشبار يميناً ومثلها شمالاً . فالعجب كيف أمكن تعدد طرق المدارج في ذلك الضيق البائن »[1] وقد سترت سور القصبة من خارج الأركان ، بل في الوجوه الأربعة سلاسل معلقة وأكبال لا يأتي عليها الحصر ؛ فسألنا عنها ، فإذا هي كانت للمسلمين رحمهم الله ، يقيدون بها الأسارى من الكفار ، أبقوها هنالك تذكرة لهم ، منها ما جاء من غرناطة ، وجلها من طليطلة .

والقصبة مطلة من الجهتين على المدينة ، ومن الجهتين على الوادي .

والعجب في صعود الماء من الوادي للمدينة بهندسة عظيمة ، وهي أن جعلوا ناعورة عظيمة متسعة جداً جنب الوادي ، بعد أن بنوا له سورين

---

(١) هذه القطعة محذوفة في النسخة المطبوعة .

أحدهما داخل الوادي ، والآخر بشطه . ووضعوا مـن جهة المدينة صندوقاً من الحديد ممكناً بالأرض محفور فيه أربعة قواديس ، وجعلوا فوق كل قادوس عموداً في طوله قامتان وغلظه ما يزيد على غلظ الساعد بإصبعين . وبطرفه الأسفل قطعة من الحديد طولها ذراع وغلظها ثلاثة أشبار على الإستدارة ، فهي للقواديس بمنزلة اليد المهراس ترتفع هـذه المرازم وتنخفض بحركة الناعورة المذكورة تدفع الماء من القواديـس المذكورة على الصندوق لجوف القادوس المتصل بها هو على شكل المدفع طولها عشر أشبار وغلظها ثلاثة أشبار .

وهذه القواديس يتصل بعضها ببعض مسندة على سور منحدر من أعلى المدينة إلى الوادي ، وكلما دفعت تلك المرازم الماء من الصندوق للقواديس يتفوه ماء آخر وهكذا ، فهو كالاطرنبه تجعل في السفن على ما قيل ، غير أن هذا أعجب .

والمدينة باقية على ما تركها المسلمون رحمهم الله ، إلا ما أحدثه أعداء الله في المساجد من التصاوير وما هو معروف لهم من حمل النراقيس وما في معنى ذلك .

وبالوادي عدة أرحاء ، وأرجاؤها خارج الوادي مبسوطة لم نر بها أجنة ولا غراساً ، وإنما اشتمل قرب المدينة على بحاير وخضر ، على بعد منها جنة من العنب وشيء من أشجار الزيتون وبين سور المدينة والوادي ديار بوسطها اسبيطال متسع جداً [1]. وأهل المدينة يستعملون نسج الحرير بروكاضه وكمخة وغيرها وجل أهل المدينة ضعفاء ، ولهم ميل للمسلمين وطليطلة هي أول إقليم مانشا [2] من ناحية مادريد ومن ناحية قشتله [3]

(١) هذه القطعة محذوفة في النسخة المطبوعة .

(٢) La Mancha .

(٣) Castilla

أقمنا بها أياماً وسافرنا قاصدين مدينة مورة عن ثمانية عشر ميلا .

الخبر عن مدينة مورة

وقد تقدم الكلام عليها في العبور الأول . أقمنا بها بقية يومنا وسافرنا من الغد قاصدين مدينة ماديخ عن خمسة عشر ميلاً .

الخبر عن مدينة مادريديخوس (١)

هي مدينة بدوية كلها ، وقد برز منهم لملاقاتنا خلق عظيم واقتفوا أثر المدن المعتبرة في إخراج الأكداش وإحضار أهل الموسيقى وإيقاد الشمع وانتخاب الفرش إلى غير ذلك . ولم يصحبهم تقصير فيما يتعلق بأمور الضيافة .

ومن الغد سافرنا قاصدين قرية قريبة من أن تكون مدينة سميت باسم الفرايلي . صاحبها الذي بنيت من أجله . وإسمها : القصر دوسان خوان . لحقنا بها عن خمسة عشر ميلا بين الظهرين .

الخبر عن مدينة القصر دوسان خوان

حكم هذه القرية حكم التي قبلها في البداوة. وقد برز أهلها للملاقاة والإكرام وما يضاف لذلك ، غير أن هذه اختصت بحكمة في صنع البارود المنتخب المشكر عندهم بالبلاد الاصبنيولية . حتى أن صانعه رمى كرة بمهراس وزنها أربعة وستون رطلاً بثلاث أواقي من هذا البارود المذكور من غير دك ولا سجن عليها داخل المهراس ، حسبما شاهدناه

---

(١) Madridejos .

فتصعد الكرة في الجو صعوداً فادحاً وتسقط على بعد من المهراس بمائة وستين خطوة لجودة البارود المصنوع عندهم بتلك القرية . وبها تصنع سيوف كيسوفنا .

أقمنا بها بقية يومنا وسافرنا قاصدين مدينة صكليموس ، عن خمسة أميال .

الخبر عن مدينة صكليموس (١)

مدينة بين الكبر والصغر وديارها أرضية وأهلها للبداوة أميل وقد أحاط بالمدينة عدة أرحاء مسماة أرحاء الريح ، وقد اقتفوا أثر من قبلهم في الترحيب حال بروزهم للملاقاة وعند التشييع . وقد سرنا من غداة ليلتنا ضحوة قاصدين مدينة إسمها مناي ، على خمسة عشر ميلاً .

الخبر عن مدينة مناي (٢)

مدينة غير بعيدة من الأولى في البداوة ومشاكلة من بها خلقاً وخاقاً ولم يأل أحد منهم جهداً في المباشرة وإظهار البشاشة حتى أنهم يسمحون بكل عزيز عندهم ، رغبة فيما يصل لطاغيتهم من المباشرة والإكرام حيث أمروا بذلك . لأن القسيان المصاحب لنا يكتب ما صنع كل واحد من ولاة المدن على حدته ، فينافسون في ذلك .

ومن غداة الليلة سافرنا «لا الرودة» لحقنا بها عشية عن أربعة عشر ميلاً .

الخبر عن مدينة لا الرودة (٣)

مدينة متسعة جداً وديارها شاهقة وأهلها أهل فلاحة غير أنهم بدوٌ

---

(١) Socuéllamos مدينة تقع على نهر زنكار، Zancara .

(٢) Minaya .

(٣) La Roda .

محض . ومع ما هم عليه من البداوة ، فعلوا ما فعله أهل المدن . وقد احتفلوا بنا قبل حلولنا ببلدتهم حيث علموا أن مرورنا عليهم ، فيجاوون ويجتهدون في بروزهم للملاقاة وما بعدها حتى ننصرف عنهم في عـز وكرم .

ومن هذه المدينة كان رواحنا لمدينة لاخينيتا عن تسعة أميال .

الخبر عن مدينة لاخينيتا (١)

مدينة عليها أثر القدم وديارها كديار المدينة التي قبلها في التشييد الذي هو غير شاهق كما حكتها في بداوتها . وبالجملة ، حكمها حكم التي قبلها في الفعل والخلق والأخلاق .

أقمنا بها يومنا ، ومن الغد سرنا قاصدين البسيطي . على تسعة أميال وفي خلال هذه الأميال ، خرجنا عن إقليم مانشا ودخلنا إقليم مرسية . وفيما بين الإقليمين المذكورين علامة . وهي سارية مكتوب عليها : « إقليم مرسية » !

ثم بعد العلامة بقليل عثرنا على مدينة كبيرة على يسار عبورنا في حجر جبل شاهق ، وبقنة الجبل قصبة لها إثنا عشر برجاً من عمل المسلمـين رحمهم الله لم يحدث بها تغيير . وللمدينة سور في غاية الإتقان محيـط بجميعها ، فسألنا عنها ، فإذا هي مدينة شيتينية وقد رغبنا في الدخول إليها واشتقنا للحلول بها لنستوعب أخبارها ونقف على ما فيها . وقد عاقنا عن ذلك تراكم الأمطار وعدم إمكان الصعود إليها بالأكداش ، إذ هي بقنة الجبل ، ومنها كان رواحنا للبسيطي المذكورة .

---

(١) La Jineta .

الخبر عن مدينة البسيطي (١)

مدينة بين الحضارة والبداوة وأهلها أقل فلاحة ، وبها عدد من الشلطاظ ، فهي كغيرها من المتقدم ذكرها من نزول الشلطاظ بها مدينة مدينة .

وكلما حللنا مدينة يأتي المتولي أمر الشلطاظ بعدد منهم للدار التي نحن بها فيمكثون بالباب مدة إقامتنا زيادة في التعظيم والتنويه بنا ولا ينصرف أحد منهم إلا بعد سيرنا ، فنكرمهم بما يناسب وتقتضيه المروءة الإسلامية وننصرف عنهم . ومن عادتهم أنهم يتحدثون بما أكرموا به ولهم في ذلك فخر وعظمة من إكرام الباشدور إياهم . وهكذا في كل مدينة . وأهل هذه المدينة لم يصحبهم تقصير في اقتفاء من تقدمهم فيما يرجع للضيافة .

ومنها كان رواحنا لمدينة منط ألكرة عن أربعة وعشرين ميلاً .

الخبر عن مدينة منط الكرة :

مدينة بدوية وديارها غير منتخبة في البنيان وأهلها ضعفاء جداً . ومع ما هم عليه من الضعف هيّؤا لنا منزلاً حسناً وجعلوا فيه فرشاً على قدر طاقتهم واعتذروا عن إيقاد الشمع لعدم وجوده عندهم . وكثيراً ما رحبوا بنا وجميعهم يعتذرون على أداء الواجب . وقد حللنا مدينتهم بعد المغرب بيوم شديد المطر مع مكابدة الوحل ولم يسعنا إلا الإقامة بهذه المدينة لتتابع السيل الفادح .

وباليوم الثالث انجلى الغيم وسافرنا قاصدين مدينة إيكلا عن إثني عشر ميلاً في وحل عظيم .

---

(١) Albaceta قاعدة ولاية تحمل نفس الاسم تبعد عن مدريد بنحو ٢٧٩ كيلومتراً .

الخبر عن مدينة ايكلا (١)

مدينة حكمها حكم ما تقدم من المدن البدوية على الإجمال والتفصيل وهي آخر إقليم مرسية من الناحية المتصلة بإقليم بلنسية « والطريق الجادة لمدينة مرسية التي هي في طريقنا عند عبورنا لها من الدار التي فيها مبيتنا على يسار القبلة ، وبينها وبين موسية مرحلتان . غير أنها لم تكن بها مدن للمبيت ، فلذلك غبن الطاغية المدن التي نمر بها ، وإن كانت مخالفة للجادة لهذا الغرض ، فتيامننا عن الجادة »[٢] ودخلنا إقليم بلنسية فكان رواحنا لمدينة المنور ، وهي أول مدينة من إقليم بلنسية على إثني عشر ميلاً .

الخبر عن مدينة المنور (٣)

هي بين الحضارة والبداوة . ومن أعجب ما رأيت عندهم بنية ما ظننت في عمرها تسعة أعوام ، وقد أحيت الليل كله بالغناء بين أهل الموسيقى ، ثم أخذت في الرقص بطريقة غير معهودة عندهم ، ثم باشرت عود الطرب بيدها ، ولما قضت منه الغرض ، اسكتت المعلمين ثم قامت على قدميها خاطبة في القوم والكل في غاية الانصات لها ، وجعلت تارة تدمع عينها ، وتارة تضرب بيدها على صدرها ، وتارة تقبض وتارة تنبسط . ومما يستغرب منه أيضاً أنها تسرد ما تمليه على القوم بسرعة ولم يصحبها توقف ولا تلجلج . واستمرت على تلك الحالة ما يقرب من ساعة ، فكشف الغيب أن ما كانت تحدث به . هو محفوظ من كتاب عندهم كالعنترية وهم يسمونه بالكوميديا . والكوميديا عبارة عن دار هي محل جمعهم للنزهة والفرجة ، يجتمع فيها الرفيع والوضيع

---

(١) Yecla

(٢) هذه القطعة محذوفة في النسخة المطبوعة .

(٣) Manouar

من قرب المغرب إلى نصف الليل على التأبيد . وللدار طبقات عديدة ومقاعد مطلة على صحن الدار ، ولا تجد المرأة ولا بنية بهذا المحل إلا وبيدها كراسة من الخرافة التي هي على ظهر قلب هذه المحدث عنها .

ومن غداة ليلتنا سافرنا قاصدين مدينة ، ايلشى ، عبرنا اليها عن اثني عشر ميلاً .

الخبر عن مدينة ايلشي (١)

هي مدينة أحسن من التي قبلها بكثير في الحضارة وسعة أهلها في المال ، وقد اجتمع فيها ما افترق في غيرها من عدة وجوه : أحدها ميلهم للمسلمين بالقلب والقالب ، والظاهر دال على الباطن ، ولا شك أن فيهم عرقاً عريقاً في الإسلام ، حيث كان أسلافهم على الدين القويم فهم يستأنسون بذلك ويقرون بأن الدين الإسلامي أشرف الأديان ، وأن المسلمين هم على الحق ومن سواهم على الباطل . لكن لم تصلهم الدعوة وعلى تقدير وصولها إليهم الآن لم يمكنهم حفظها والعمل بها ، هذا في مقام العسر ، واما إن جهر أحد بذلك ، فلا يستتاب عندهم ولا يحكم عليه إلا بالقتل .

وقد استوعب هذه المدينة نخيل من الجهات الأربع ، مما يزيد على الأربعين ألفاً . غير أن طعمه وطعم نخيل مراكش واحد لا يدخر . وأهل المدينة غلب عليهم الحسن والنظافة .

أقمنا بها يوماً وليلة ، ومنها كان رواحنا لمدينة أرويلا عن خمسة عشر ميلاً .

---

(١) Elche مدينة تقع على نهر الفينالوبو Vinalopo .

الخبر عن مدينة اورويلا (١)

مدينة حضرية كأهلها ، فهي أكثر مما قبلها مالا ورجالا ، وقد شق المدينة نهر كبير جداً اسمه سكورة (٢) عليه قناطر يعبر عليها الذاهب والآيب من الجهتين ، والديار مشيدة على شطه يميناً وشمالاً مطلة عليه بشراجيب متقنة . ويتصل بدور المدينة أغراس وأجنة . وقد أحـــاط بالمدينة سور من عمل المسلمين رحمهم الله من الجهات الثلاث ينتهي من طرفيه بجبل شاهق عليه قصبة للمسلمين أيضاً . وقد برز منهم لملاقاتنا خلق كثير بأكداش لا تبعد في الجودة عن أكداش الطاغية .

« وكان نزولنا بدار هي من خيار الديار المعتبرة وأما الفرش والستور وايقاد الشموع فشيء كثير إلى غير ذلك . مما يدل على رفاهيته القوم . وقد اجتمع بنا من نسائهم ليلاً ما ضاق عنه المكان مع سعته . وأهل الموسيقى قد أحيوا ليلهم في استعمال الموسيقى والرقص . ثم لما حان وقت انصرافهم أقبلت علينا عدة من النسوة يطلبن الإقامة عندهن من الغد . فاعتذرنا لهن بما لم يسعهن إلا قبوله . وقد حضر لتشييعنا من الغد أكثر من حضر عند الملاقاة » (٣) وكان رواحنا لمدينة مرسية على إثني عشر ميلاً . وفي خلال هذه الأميال لحقنا العلامة المميز بين إقليم بلنسيه وإقليم مرسية .

الخبر عن مدينة مرسية (٤)

هي من المدن العظام مشيدة في بسيط من الأرض . وقد استوعـــب أرجاءها أشجار التوت من الجهات الأربع ، قيل أن سعة أرجائها إثني

(١) Orihuela ، مدينة تقع على نهر شقوره .

(٢) Rio Segura هو نهر مرسية الذي ينصب في البحر الأبيض المتوسط بعدما يمر بأويلـــة .

(٣) هذه القطعة محذوفة من النسخة المطبوعة .

(٤) Murcie .

عشر ميلاً ، وجميعها سقي ، وقد مر بوسط المدينة نهر عليه قناطر عديدة وهذا الوادي هو المار بالمدينة التي قبلها . وديارها عليها أثر القدم والكثير من أهلها يصنعون نسج الحرير على أنواع . والغالب أنهم فقراء . وفيهم جفاوة في الطبع لا يألفون ولا يأتلفون ، حتى يظن مباشرهم أنهم ليسوا من الاصبنيول لغلظ طباعهم وتباينهم عن الجنس .

والمدينة لا يعبرها عابر إلا بعد الكد والتعب من الوحل في طرقها وجميع أرجائها وقت الصيف فضلاً عن زمن الشتاء . حتى قيل إذا اطلق الماء نواحيها منع القاصد لها حال الحرب ولا يمكنه أن يصل إليها بالكلية بخيل ولا رجل وقد شاهدنا مصداق ذلك حال العبور إليها .

أقمنا بها نحو الساعتين وسافرنا منها قاصدين قرية على بعد منها بثلاثة أميال ، والقرية سميت باسم صاحبها . سان خوان [1] من كبار الفرايلية ثم ، بعد إكرام أهلها إيانا بما يقتضيه جهدهم سرنا منها بالثلث الآخر من الليل قاصدين مدينة قرطنجة عن أربعة وعشرين ميلاً في أرض مبسوطة وبها ديار لا تنحصر عدداً متفرقة يسكنها الحراثة والعزابة . فلو انضمت الديار بعضها إلى بعض لكانت من المدن العظام .

الخبر عن مدينة قرطجنة (٢)

لما قربنا منها ولم يبق بيننا وبينها إلا قدر مسافة، برز لملاقاتنا جماعة من المسلمين رجالاً ونساء وصبياناً ولهم ضجيج يعلنون بكلمة الإخلاص ثم يتبعونها بقولهم : « الله ينصر ولد سيدي رسول الله ، سيد محمد بن عبدالله ! » ، فسلمنا عليهم ورحبنا بهم وسألنا عن حالهم ، فإذا هم مسرحون وحكمهم حكم الأسير . لا يستطيعون الخروج من البلاد إلا

---

(١) San Juan

(٢) Carthagéne

إذا أدوا ما أوجبه النصارى على المُسرّح ما لم يكن في قيد أسر الطاغية وجعلوا ذلك من جملة الأوقاف يفرق على ضعفائهم فلا يمكن التساهل فيه ولا التسامح . وهؤلاء الأسارى ضعفاء مساكين ، ومستفاد ما يخدمون به غير كاف لهم بما يقوتون به أولادهم لغلاء الأسعار . ومكثوا مدة من السنين في الوهن ، وهم في أشد تعب وضنك من الأسر المحض ، إذ الأسير تجري عليه نفقة مالكه ، خشية عليه من الضياع . وهؤلاء لا معين لهم ولا نصير إلا الله سبحانه . ومن جملة ما قطع أكبادهم الخوف على صبيانهم بعدهم وتركهم في بلاد الكفار . وقد طال وقوفنا معهم . وهم يبكون ويتضرعون . ونحن أكثر منهم بكاء وحسرة عليهم ، فسكنا روعهم ووعدناهم بخير من سيدنا أيده الله وبشرناهم بأن يؤدي عنهم ما هم مطالبون به وأن نحملهم لبر الإسلام ، إن شاء الله ، فإن سيدنا ، نصره الله ما بعث بنا إلا لأمثالكم ، فطيبوا نفساً وقروا عيناً ! فانطلقت النساء بالزغاريد والصبيان يفرحن ويرقصون ، وآباؤهم يعفرون وجوههم في التراب ساجدين لله شكراً حامدين الله تعالى . داعين لسيدنا المنصور بالله بما نرجو من الله قبوله . وكان يوماً لم نر مثله بكاء وفرحاً حيث أعتق الله هؤلاء القوم وأنقذ صبيانهم من بلاد الكفر على يدي سيدنا الكريمتين . وانفصلوا عنا فرحين مسرورين .

ثم برز لملاقاتنا قرب المدينة خلق كثير بأكداش عديدة : حاكم البلاد وأمراء البحر وأعيان القوم . وأما مطلق الناس ، فلا يأتي عليهم حصر فرحبوا بنا كثيراً وركبنا أكداشهم وساروا أمامنا راجلين من غير شمارير كأنهم ذاهبون أمام عظيمهم ، كل ذلك تعظيم لجانب سيدنا المؤيد بالله . وقد عبرنا المدينة في ازدحام عظيم . والشلطاظ والحاكم والأعيان محدقة بنا يردون عنا القوم ، وشرجيب الديار والسطوح مملوءة نساء وصبياناً .

ومنذ أشرفنا على القوم ، وهم يضجون ، ثم يسكتون ، ثم يضجون ومعنى لفظهم في ضجيجهم : « الله ينصر سلطان مراكش ! » .

ولما حللنا الدار المعينة لنزولنا ، وهي من أحسن دور المدينة ، جعل الحاكم عدداً من الشلظاظ بالباب وأمرهم بمنع من يريد الدخول علينا إلا بعد المشورة والإستئذان . وما زالت الأعيان تتردد إلينا بقصد السلام والترحيب بنـا وقد ظهر منهم في المباشرة ما فيه زيادة على غيرهم ممن تقدمهم . وقد كان تقدمهم بأمر من طاغيتهم بمباشرتنا والفرح بنا وبما يكون عليه العمل في شأن الأسارى من تسريح الطاعنين في السـن والمبطول والأعرج والأعمى ومن في معناهم والرفق بهم وبمن بقي منهم في الأسر من غير إيالة سيدنا ومن كان من الإيالة المولوية يسرح ثم يميز الحامل لكتاب الله وأن يعظم ويحترم . وحيث كانت هذه الأوامر بعثت من طاغيتهم ولم ندر هل استوعب جميعها كاتب الطاغية أم ترك منها شيئاً نسياناً ، أو بقي منها شيء في النفس ، حيث لم نطلع عـلى الكتاب المتضمن لهذه الأشياء ، فاقتضى النظر أن نؤخر الملاقاة بإخواننا المؤمنين ثلاثة أيام ، لنطلب الأخبار بما كتب به الطاغية في ذلك لئلا نقول مسألة ونجاب بقولهم . لم تكن في كتاب عظيمنا .

وحيث حصلت على اليقين من طريق أحد الأسارى . وله مروءة وعقل ، أخبر بأن « الطاغية كتب لأمراء البحر بسراح الطاعنين في السن ومن في معناهم من الذين لم تبق فيهم فائدة ولا مصلحة ، وكذلك كل من ثبت أنه من الإيالة المولوية .

ومصداق ذلك أنهم ميزوا من الشيوخ ستة عشر ، ومن المنتسبين لإيالة سيدنا ، نصره الله مثلهافي العددعلى أنالشيوخ أكثر من ذلك ولا من هو من أيالة سيدنا . المؤيد بالله . ظناً منهم أنك لا تفتش فيهم ولا

تناقشهم في البحث عن الأسارى، حيث امتثلوا أمر طاغيتهم وقضوا هذا الغرض قبل أن تحل بلدتهم، وإنما فعلوا ذلك من أنفسهم» فشبعت الأسير الخبر بذلك وبقيت مفكرا في المسألة، وكنت قد وعدت قائد البحر الذي إلى نظره الأسارى، وهو المخاطب في شأنهم من طاغيته بملاقاة إخواننا المؤمنين من الغد، فبعثت إليه عند إقبال الليل من يوم وعده بذلك بأن يؤخر الملاقاة بالأسارى إلى بعد غد إن شاء الله لأمر عرض. فأجاب لذلك وأصبحت ملازماً للفراش وكل من يرى من الكفرة أن يدخل بقصد السلام علينا من التعاهد الواجب عليهم صباحاً ومساء يرده من الباب فيقول إن الباشدور مشتكي فيقنع ويذهب لحال سبيله. ثم ناديت كبير الأطباء وباشرته كثيراً ورحبت به، وقد اختبر من حالي ما اختبر. فقال: «لا بأس، وأن ما تجده إنما هو من تعب الطريق فقط». وجعلت أتحدث معه في الأمور الطبية. واعترف له بمزية الحكماء وما هم عليه من الصدق والثقة والأمانة لتصرفهم في ذوات الخلق وأن أمرهم ممتثل عند الملوك والرعية، فهم ملوك على الأبدان. فانشرح لذلك غاية واستحسن مخاطبتنا إياه وقال: «هذا الخطاب لم نسمع مثله قط. وأنتم المسلمون لكم عقول وبصيرة منورة». وقد غلب على ظنه أنني من أكابر الحكماء. على أني لا أفقه شيئاً. وإنما خطابي كله جعجعة وسفسطة لأمر أوجبه الوقت وأخذ معي في السؤال عن بر الإسلام وعمن به من الحكماء إلى ان أنجر الحديث لإخبار المملكة وما هو عليه سيدنا نصره الله، من العظمة والجلال والنصر والعز والتأييد وما لديه. لايده الله من العساكر والجنود في البر مما لا يأتي عليه الحصر، ومنها بالبحر العدد الكثير، وجعل يسأل عن المهادنة التي أنعم بها سيدنا أيده الله، على عظيمه، هل هي كمهادنة من تقدمهم من الأجناس؟ فقد قيل إن لهم مزيد حظوة على غيرهم من الأجناس المصالحين، فقلت: «قد كان ذلك. وموجبه امتثال الأمر

من طاغيتكم لما أمر به سيدنا ، نصره الله ، من تسريح الأسارى من إيالته المباركة ، ثم الرفق بالأسارى الذين هم من غير أيالته ، لأن المسلم عنده أيده الله ، واحد .

« وحيث ما فعل ما أمره به ، قابله سيدنا ، أيده الله ، بما اقتضتـــه همته العالية بأن سرح العدد الكثير من الأسارى من جنس الصبنيـــول ثم شفعه بسراح جنس آخر ، ثم بعد بشيوخ لم تبق فيهم فائدة ولا مصلحة وكتب أيده الله للوالي (الملك) كارلوس يحضه على سراح الطاعنين في السن الذين لم تبق فيه مصلحة لمـــا في ذلك من الأجر ، فأجاب الطاغية . وها نحن وردنا عليكم لهذا الغرض ، لكن نقص عليك مسألة غريبة لا يهتدي إليها إلا ذو بصيرة من الملوك :

« وذلك أننا لما أمرنا بتمييز العجائز من الأسارى ومن لا قدرة له على الخدمة حصل لنا توقف ، لأن البنية منها صحيحة ومنها عليلة ، فلا نخص العلة الطاعنين في السن [1] التي صاحبته علة أسقطت قوته ، والشرط في سراح هؤلاء الأسارى ، هو العجز عن الخدمة ، إما بكبر السن أو بمرض مزمن ، وكذا المبطون والمقعد والأعمى ، وذكرهم هنا عـــلى التفصيل من الأطناب الحسن زيادة في التشبيه عليهم على أنهم ملحقـــون بالعاجزين » [2] فأشار لي مولانا المؤيد بالله تعالى بأن يسند أمرهم حال التمييز على إخوانهم للأطباء ، فحصلنا على المؤمل في أيسر وقت وأزيلت عنا غمة التوقف في المسألة . وقد تذكرت هذه القصة عند مشاهدتـــك واختبار ما أنت عليه من المهارة والفعل والصواب ، وما كرهن حضوره معنا حالة استفسار القوم ، وكل شيخ كان أو أعمى أو مبطوناً أو مقعداً أو من يدعي ألماً يختبر حاله ويستوعب بالنظر جوارحه . فمن كانت فيه

---

(١) القطعة التالية غير واردة في النسخة المطبوعة .

(٢) نهاية القطعة المحذوفة .

بقية الخدمة . فما علينا فيه ولم تبق فيه مصلحة يسرح بحكم اجتهادك في الصحيح والعليل . فهش لذلك غاية وقال : جزاك الله خيراً . فطب نفساً من ذلك ، ولا لك إلا ما يعجبك ، فاطلب أنت حضوري معكم حال التسراد تنال المؤمل ، وانصرف عني مكرماً .

ومن الغد ذهبنا لإخواننا المؤمنين بخمسة اغرباء مشحونة بأسارى المؤمنين . فلما أقبلنا عليهم ، ضجوا ضجة واحدة معلنين بالشهادة ناصرين مولانا المؤيد بالله تعالى ، فنزل من الغراب الأول من فيه من المسلمين فسلمنا عليهم ورحبنا بهم ، وأخبرناهم بأن سيدنا مجتهد في خلاصهم من الأسر ، وقد أمر أيده الله إحضار الجميع منكم وقد بعث لكم بصلة مباركة لكم فيها وأنتم إخواننا المؤمنون ، اعتنوا بصلاتكم وعضوا على دينكم بالنواجذ واصبروا ، فإن الصبر مقرون بالفرج ، وعما قريب يفرج الله عنكم وقد أمر الطاغية بالرفق بكم وبعث بالكسوة لجميعكم والكل لوصية سيدنا ، نصره الله » .

وجعلت أقيد كل واحد باسمه ولقبه وكل شيخ يمر بين ايدينا تحصل فيه المماراة ، هو يدعي أنه ساقط القوة لا عبرة به ، وأهل البحر يعارضونه في قوله ، فاختليت بالمولى على أسارى المسلمين المسمى عندهم « التنينط [1] » وأشرتُ عليه بإحضار الأطباء وما حكموا به نحن نتبع له ويخرج جميعنا من العهدة مع الأسارى وغيرهم .

فبعث للأطباء في الوقت وقرأ عليهم كتاب طاغيته المتضمن للأمر بسراح الطاعن في السن والمبطول والمقعد والأعمى ، بعد أن استحسن ما أشرت به وتيقن أن ذلك هو عين الصواب في النازلة .

---

(1) El - Tenient رتبة عسكرية تساوي ملازم أول .

وقد حصلنا على المؤمل والحمدلله ثم من بركة سيدنا المؤيد بالله ومن غير لجاج ولا مناقشة .

فكان جملة ما سرح من الشيوخ اثنين وستين نسمة ثم لما سمع مطلق الأسارى أن من هو من أيالة سيدنا ، نصره الله ، مسرح ، انتسب جميعهم للمغرب . وقد ضاقت نفوسنا من ذلك . وحصل لنا ذهول في العقـــل حتى أني وددت لم أكن . فإن قلت إنهم من إيالتنا يعارضني في ذلك ما انتسبوا إليه قبل وشهدوا على أنفسهم أنهم من غير الغرب ، مع عدم اليقين من أي إيالة هم ، وإن تركتهم تعارضني أيضاً حرمة الإسلام ، لأن المسلم واحد . فلم يسع العبد الفقير بعد أن تأملت ما يكون فيه الفصل في النازلة إلا أن أخرتُ التسراد إلى الغد من يومه وألزمت من بيده زمامات الطاغية المتضمنة أسماء الأسارى وما ينتسبون إليه أن يطالع جميعها بداره من غير حضوري . لأنه عندي مصدق في ذلك . فمن وجده بالزمامات سلوياً أو فنجياً أو غيرهما من المدن الغربية ، يجعله في زمام مستقل ثم يسرح من غير استفسار ومن انتسب للإيالة المولوية ينظر فيه . فمن ثبتت نسبته يسرح وإن كان ادّعى من قبل أنه من أهل الجزائر وغيرها ومن لم تثبت نسبته جعل في زمام ويؤخذ للإستفسار » [1] فكان جملة ما وجدوه بالزمامات المذكورة من أيالة سيدنا ، نصره الله تعالى ، أربعين نسمة ولم يخطروا منا على بال ، وإنما كان انتسابهم للإيالة المولوية في زمن أسرهم حتى قيدوا منها ، وهي سعادتهم السابقة وسعادة سيدنا ، أيده الله ، كانت بهم لاحقة . ولولا هذا البحث المقرر ما عرفوا ولا سئل عنهم ، وإنما ذلك إلهام من الله تعالى وتيسير لإنقاذهم من الأسر ؛ فقد كان البحث عن شيء

---

(١) هذه القطعة محذوفة في النسخة المطبوعة ، وقد اعتمدنا في تحقيقها على المخطوطتين « ب » و « س » ، وقد وردت في المخطوطات الأخرى بتشويش .

فأبرزت القدرة ما فيه من العجب من فكاك عدة من الإسلام من قيد الأسر فسرحوا في الحال ، وأخذنا في تسراد القوم . فكان قدر ما ثبت لدينا من المنتسبين للمغرب واحداً وعشرين لحقوا بإخوانهم المسرحين . وبقي من المنتسبين عدد آخر للإستفسار . لأن الروم عادتهم يصدقون المحدث لهم ما لم تظهر عليهم مخايل الكذب . أو يصدر منهم ما يؤذن بانحراف عن الجادة ولو نسياناً أو خطأ ، فلم تقبل لهم كلمة قط بعد .

وقد أحضر الكفار حال التسراد رقباء من المسلمين الذين لهم بهم اتصال باطني بحيث إذا صدقنا أحداً في نسبته لايالتنا ، وهو من أيالة الغير يخبرونهم بذلك ، فيتبين لهم عدم صدقنا وتحصل المماراة فيمن سرح من قبل .

وقد اختبرت هذا حال التسراد الأول . فلم يسع العبد الفقير إلا تأخير من يثبت نسبه لأي أيالة هو إلى الإستفسار ، ثم بعد ذلك فرقنا عليهم المال المنعم عليهم به من سيدنا أيده الله وقد حصل لهم الرفق في الخدمة والإعتناء بهم لوصية سيدنا ، أيده الله ، عليهم . وقد كسا الطاغية جميعهم وحض على الإحسان إليهم ، حيث أمره سيدنا ، أيده الله بذلك ، وتمييز ثلاثة من الطلبة الحاضرين في الوقت وتعظيمهم واحترامهم بحيث لا يكلفون بخدمة ولا تهضم لهم حرمة .

ثم شرعنا في الكلام مع حاكم البلاد على الأسارى المسرحين المرهونين فيما هو موظف على أمثالهم من واجب الأبواب ، وقد حضر القاضي وغيره من الفرايلية وتصفحوا ما بأيديهم من الرسوم المتضمنة سراحهم فوجدوها صحيحة تامة ، فأدينا عنهم الواجب .

وقد وجدنا امرأة منهم مسرحة ولها بنتان وأبوهما في قيد الأسر ، وجعلت المرأة وبنتاها يترددون علينا ويستشفعون بسيد الشفعاء في فداء

زوجها . فإن لم يسرح بفضل مولانا المنصور بالله ، فلا سبيل لها لمرافقة القرم لبر الإسلام . وقد تعاظم علينا الأمر حيث تعين سفر من عداها من النسوة والبنين ، فلم يسعنا إلا استخلاصه من الأسر وجمعت الأصل بالفرع .

وقد كان مولانا المؤيد بالله أمر بفداء من نجده بيد غير الطاغية من المسنين ، ومثل هؤلاء القوم ، وأذن لخديمه ، إن لم يكف المال المصحوب معه للغرض الذي يظهر في الوقت زيادة على ما هو معين يأخذه من تجار النصارى وأداؤه على فضل سيدنا ، نصره الله ، في سراح المسلمين وفدائهم من بلاد الكفار ، حيث لم يكبر في عينه خديمه من المال ، وقد حصلت البركة وقضينا جميع الأغراض ، وبقي الوفر من فضل الله تعالى وبركة مولانا المؤيد بالله . تقبل الله من سيدنا عمله وبلغه في الدارين أمنيته وأمله .

وبعد الفراغ من قضية الأسرى المرهونين ، جعلت أسأل عمن بقرطجنة من المسلمين الذين تحت أسر مطاق النصارى لنواصلهم من إكرام سيدنا أعزه الله حتى لا يبقى أحد ممن يقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى عليه وسلم من غير مواصلة سيدنا ، أيده الله ، لأنه أمر خديمه بذلك وحتم علينا فيه فكان من جملة من ورد فيهم بنية بلغت الحلم ملكها رجل مسن يخدم الجير منعها الوصول إلينا قبل أن يسمع أن البحث عنها بقصد قبض الصدقة . فلما أقبلت علينا ، جعلت تبكي وتطلب العتق وذكرت أن أحد النصارى يريد شراءها من ضيفها ويذهب بها لبلاد بعيدة ، وقد دعتها ربتها للدخول في دينها ، فأبت . وما زالت تراودها فلم تحصل منها على طائل . فشكرت فعلها غاية ، وجعلت أذكرها أمر دينها ، فوجدتها شادة على دين الإسلام لا تنخدع ولا ترتاب . وأكثر جوابها : « إني لا أريد إلا دين حبيبي محمد صلى الله عليه وسلم » وهي

تبكي . وكل من بالدار من إخواننا المؤمنين يبكي لبكائها وقد انتسبت لزاوية من ناحية تلمسان . فبعثت في الحال لحاكم البلاد واستخبرته مع أحد الفرايلية في مخاطبة النصراني التي هي تحت أسره في فدائها . فأجاب على مشورة زوجته . ثم ذهبوا للزوجة يطلبون مساعفتها لزوجها في فداء البنت ، وقد أجابت لذلك مع المشقة الفادحة . فحصلنا والحمدلله على المقصود من سراحها وأضيفت للنسوة وأجريت عليها النفقة .

وكان الطاغية أمر بحمل الأسارى في مركب الكرة [1] الحاضر بالوقت بمرسى قرطجنة المعين للسفر عند هبوب الريح المشرقية ؛ وإيصالهم لقالص. فذهبنا لقائد المرسى عند تعيين سفرنا وأكدنا عليه في الاعتناء بالأسارى وحملهم على الفور . لأن باشدورهم في غاية الإنتظار لقدومنا لقالص ، ولا يمكننا الذهاب معه قبل أن يصل الأسارى لهنالك . فقال حباً وكرامة . فالأمر سهل والأشياء مقضية ؛ وما نحن إلا في انتظار الريح الشرقية . فلتطب نفساً من ذلك : فإننا مأمورون من عظيمنا ببعث الأسارى على الفور ثم أخذنا في استنجاده في حمل النساء من الأسارى بأولادهم مع إخوانهم المؤمنين وإن لم يأمر الطاغية بحملهم لعدم علمه بهم فقال :

« لا سبيل إلى ذلك . لأن مركب الكرة مشحون بالشلطاظ لا يمكن حمل النسوة معهم بالكلية ؛ لأن الشلطاظ لا يفعلون خيراً قط ، فإن ركبوا معهم ، فعلى كل يحدث في المركب بينهم وبين أزواج النساء فتنة وعيب » .

فاستحسنت كلامه وقبلت عذره وألححت عليه في كراء مركب يحمل فيه هؤلاء القوم ويسافرون تحت سنجق مركب الكرة الحامل للأسارى ليسافر في أمن وأمان ؛ فأجاب لذلك وبعث في الحال لصاحب مركب كان حاضراً بالمرسى واكتراه بمائتين وخمسين ريالا .

---

(١) سفينة حربية .

فلما بعثت له بالمال رده علينا وأقسم بدينه المعوج لا يؤدي واجب الكراء الا من ماله ، فكثرت خيره ودعوت له بالهداية ، ثم أمرت على الاسارى وزوجاتهم رجلا من الشرفاء صاحب مروءة وعقل ودين له خبرة بأمور البحر ، وجعلت له ثمانية بعد أن استقريت أحوالهم في الملبوس وجعلت لاضعفهم ما يستر به عورته ودفعت للقيم عليهم ما يستعين به على أمورهم وتركت الجميع في انتظار الهواء المساعد لهم في العبور .

وهنالك شرعت في الكلام على المدينة وما هي عليه إجمالاً وتفصيلاً فنقول :

هي مدينة في حجر جبل وقد استدار الجبل يميناً وشمالاً بمرساها والمرسى متصل بديار المدينة ، وحكمها في البنيان حكم غيرها من المدن الاصبنيولية ، غير أن أزقتها ضيقة وبنيانها غير شاهق . وقد اتصل بها من البر رباط يشاكلها في الطول والعرض ، لأن ديارها دونه في العلو وبطرفي المدينة اسبيطال لم يكن مثله في الكبر ، ثم الإتقان في البنيان بالحجر الذي يضاهي الرخام ، هو على شاطىء البحر ، والدار التي نزلنا بها هي لأحد التجار ، لم نر مثله في قومه قط في اللين والبشاشة وحسن الخلق والأخلاق ، نسأل الله تعالى أن يهديه للإسلام ، فقد تكرر منه الإكرام .

ومن بعض إكرامه (أنه) ترك أسيراً له يخدمنا ويباشرنا . ومنذ حللنا داره والأسير لم تفتر عبراته للإجتماع بإخوانه المؤمنين . فقد تجدد عليه من الشوق لأهله وبلاده ما كاد يتقطر منه قلبه . وقد انتقل من اليأس للطمع ، فجعل يلح في الطلب ويتشفع بسيد الخلق في عتقه وفدائه من قيد الأسر . ولم أزل أواعده وأمنيه بأن يكون فداؤه على يد سيدنا المنصور بالله ، وعن قريب يفرج الله عنه ، مثل عدة من أمثاله هم منا على بال فلم ينصت لحديثنا ولم تطمئن نفسه بوعد ، وقد كبر عليَّ أن أخاطب

النصراني بهذا مع ما له من الغبطة ، والبيع مبني عـلى المناقشة ، وفي مخاطبة ضيفه بالبيع مع ما تقدم من إكرامه ذلك قلة مروءة . ولو أنني بذلت له من الثمن ضعف ما يفتدي به غيره كانت منقصة له وتغطية على إكرامه إيانا ، وجزمت أني لا أخاطبه بذلك .

فلما بلغ النصراني ما حدثت به في نازلة الأسير وتأخري عن الكلام فيه لهذا الأمر المذكور ، جاء بالأسير وقال : « هو مني هدية » .

وأقسم بدينه أنه لا يقبض فيه درهماً واحداً . فأبيت ذلك وقلت له لا أقبله إلا إذا أرضيتك في الثمن الذي تطلبه . فقال : «إني أريد الوصول لبلدك وهناك تحصل المكافأة بالوقوف معنا في المسائل التي تعرض لنـا بالبربرية » . فهناك قبلت هديته ووعدته خيراً .

واسم هذا النصراني : « ضن اسروكن صلص » . ومن الغد جاء أحد الفسيان بأسير تونسي ، وهو مسن جداً ، وقال هو أيضاً هدية واسم النصراني « بشكيلط » ، فجازيته بما يناسب من القول الحسن وانصرف مجبور الخاطر . وقد هيأ صاحب المرسى بعض الفلائك وجعل فيها بسطاً من القماش المرقوم والستور التي تظللها من البروكاضو الأبيض المرقوم بالذهب ، وشحن بالشلطاظ من البحرية خمسة مراكب ، جميعها في غاية الضخامة ولقنهم ما يقولون حال ركوبنا في البحر ومرورنا عـلى قراصينهم واحداً واحداً .

ولما قضى وطره من ذلك ورد علينا يطلب منا المساعدة لعبور المرسى لنستوعب أخبارها ونعلم ما هي عليه وننظر قراصين الطاغية وما بها من العجب ، لأن طاغيتهم أمرهم بذلك فرجة لنا وفرحاً ، كما أمرهم بالعبور لمخازنه المشتملة على آلة السفن وما يتعلق بأمور البحر ، فأجبناه لـما طلب وركبنا معه في الحال وعبرنا المرسى الأولى المتصلة بالبر

المستديرة بسور صاعد من قعر البحر إلى فوق الماء بقامة ، والباب الذي يخرج منه للمرسى الثانية بين جبلين سدوا بطرفي المضيق برجين بهما العسة على التأبيد . فإذا جن الليل يحملون سلسلة من أحد البرجين في فلك البحر المقابل له . فتمكن منا بما لها من الحركات . فتصير السلسلة مضروبة من البرج إلى البرج الذي يقابله زيادة في الحفظ والصون للمرسى . بحيث إذا جاءت سفينة ليلاً ، لا يمكنها الدخول مع وجود السلسلة ، فهي بمنزلة السور في البحر . وبعد عبور هذا الباب المذكور انتهينا إلى المرسى الكبرى ، فإذا هي كالصهريج قد أحاط بها الجبل . والفم الذي يخرج منه البحر يقابله جبل في وسط الماء يحجبها من الريح ، فهي في جو آمنة من الفراتين في الفصول الأربعة . ولها العدد الكثير من المراكب مرساة وكلما عرّجنا على مركب من المراكب المذكورة وجدنا بها من البحرية منظمة بحبال متصلة بصواريه ما سترت أشباحهم فضاء المركب وبسيطه ، الكل يقولون : « فيفا رّايْ مراكش ! » ، يضجون بهذه الكلمة عشر مرات ثم يطلقون في إثرها العدد الكثير من المدافع ، وهكذا في كل مركب . ومعنى هذا بالعربية : « ألله ينصر سلطان مراكش ! »

وعند الأوبة صعدنا للسفن المذكورة . فإذا هي من الدواهي العظام وقد احتفل أحد الرياس لضيافتنا بحلاوى وأشربة ومعاجن وبالغ في الترحيب والمباشرة .

ولما نزلنا إلى البر ذهبوا بنا لمخازن هي على شاطىء البحر ، وقد استقل كل مخزن بنوع من آلات السفن كل على حدته كمن (؟) وصواري ولانطينات وقلوع وكراشطة . ثم بنيقة في غاية العلو والطول والعرض ، وبها من المعلمين النجارة ما يزيد على المائة . ومخازن أخر ما يزيد على المائة . وقد أبد الطاغية مخازن أخر أضخم منها وأصعد بكثير فهي إلى الآن لم تكمل بالبنيان . لأن المخازن القديمة ضاقت عليهم .

« وهناك دار ذات مقاعد وغرف استقلت بخزن العدة : مكاحل وكوابس وسيوف ، ثم في بعض الغرف منها براميل لا تحصى داخلها المسامير التي طولها ذراع فأقل . وقدر البرميل الواحد قامة في الطول والعرض مناسب لطوله . ثم مقعد فيه آلة المدافع أمداك وجلود الغنم المعدة لتنظيف المدافع عند إخراجها بالبارود ، ثم العدد الكثير من الفنارات وغير ذلك مما يحتاج إليه من أمور المراكب ، بحيث إذا صنع مركب يجد صانعه إقامته حاضرة ولا يتوقف على مسألة خارجة عن المحل الذي صنعت فيه السفينة قلّت أو جلّتْ ، وأما المدافع فلا يأتي عليها الحصر »[1] .

وهناك صهاريج تصنع داخلها السفن الهائلة ، وعند كمالها ، يدخل عليها البحر وتخرج من الصهريج الذي صنعت فيه . وكذا إذا انصدع أحد المراكب وأرادوا إصلاحه ، يدخل لهذا الصهريج بالمادة ، فإذا حصل به يسد بعده باب البحر بحركات معينة على سده وتبقى السفينة داخل الصهريج عائمة ثم يستعملون الاطرنيات لإفراغ الماء من الصهريج . وكلما نزل الماء نزلت معه السفينة حتى تصل للفراش المعد لها ، فيأخذ المعلم في علاج ما انصدع منها ، وعند الفراغ من عمله ، تُفتح طاقات من صدر الدفتين بحركات هندسية فيدخل منها الماء للصهريج ، فيعم منه الثلث ، ثم بعد ذلك تفتح الدفتان بهندسة فتقوم السفينة وتخرج للمرسى عائمة آمنة على ما ينبغي .

« وهذه المواضع كلها متصلة بشط المرسى الأولى بسائرها سور ممتد من البحر وشكله في البنيان مستدير تابع للجبل في الإستدارة والمساحة التي بين السور والشط شيء كثير اشتملت على ما ذكر من مخازن وصهاريج للرفع وبنائق مملوءة بكراشطات وحبال وكمن وقلوع وصواري وعدد غير ذلك مما قرر متصلاً »[2] .

---

(١) هذه القطعة محذوفة من النسخة المطبوعة .

(٢) هذه القطعة محذوفة من النسخة المطبوعة .

وللمدينة قصبة من الشق الآخر ،شيدة على قنة الجبل مطلة علـــى المرسى الخارجة عن الأولى .

وعند انقضاء الغرض مما كنا بصدده من أمور إخواننا المؤمنـــين استعملنا السير بعد التشييع معهم والوعد بما أنسنا بــه أنفسهم من فضل سيدنا : نصره الله تعالى . وإمداده عليهم وذكرناهم أمور دينهم ووعظناهم وأرشدناهم لتحسين ظنهم بالله ولا ييأسوا من روح الله والفرج مقرون بالصبر . وعما قريب يفرج الله عنكم! وانصرفنا عنهم قاصدين قرية بنيلية عن خمسة عشر ميلاً .

الخبر عن قرية بنيلية (١)

قرية صغيرة يسكنها الفلاحة ، من قرطجنة ، حراثة وغيرهم من رعاة ماشيتهم، وليس لها ما يدل على ان لها بالاً في البناءات ولا في غير ذلك . والنصراني الذي كنا نزولاً بداره بقرطجنة له دار هنالك معـــدة لنزوله حين يرد عليها ليتعهد ماشيته وحرثه لأنه من أعيان الفلاحة زيادة على التجارة المعروفة له . فقدم الإعلام لأصحابه وأمرهم أن يحتفلـــوا بالملاقاة ويهيئوا داره التي هنالك ينقل ما فيها لمحل آخر واستصحبنا للقرية المذكورة ما يستحسن ويستطاب من الحلاوى والفواكه المستعملة مـــن السكر . وشفع كرامته بالثانية .

ومن الغد تشيع معنا وانصرف وكان رواحنا من القرية لمدينة لوركة عن إثني عشر ميلاً .

---

(١) Penilla

الخبر عن مدينة لوركة (١)

مدينة حضرية كأهلها وقد أعطوا نصيبهم من الحسن واليسار ولهم محبة كبيرة في الإسلام . والمدينة يشقهـا نهر زادها حسناً وبهجة . والديار صاعدة من مجرى الوادي في غاية الإتقان في البنيان . وللغرف شراجيب مطلة على النهر من الجهتين . وهذه المدينة مشيدة في حجر جبل شاهق وقد صعدت الديار بصعوده بنحو الثلث من صعوده . ثم بقنته قصبـة للمسلمين لها أبراج عديدة متلاشية ولم يبق منها إلا الجدار . غير أن بوسط القصبة برجاً لم يحدث به تغيير ، مدارجه أربع وستون ينتهي في علو القباب أربعة ما زالت على ما تركها المسلمون رحمهم الله . وبقي أيضاً أثر الديار التي كانت بها إلى الآن وكذا المطافي التي تجتمع فيها ماء المطر في غاية الطول والعرض . والوادي المذكور محيط بالجبل من ثلاثة أرباعه ، على الإستدارة . قيل إنها بقيت بيد المسلمين بعد استيلاء الكفرة على المدينة مدة لحصنها ، وقضاء الله لا يرد !

أقمنا بهذه المدينة يومين لتراكم المطر وتتابع السيل وفي اليوم الثالث سرنا قاصدين مدينة بليس الروبيو ، عن أربعة عشر ميلاً .

الخبر عن مدينة بليس الروبيو (٢)

مدينة بقنة جبل عبرنا أميالها بطريق جميعها أودية وشعاب بين شعاب في غاية العلو وقد استوعبها أشجار من الصنوبر : قيل إن الكراسطة التي بهذه الجبال هي كافية لأهل قرطجنة فيما يتوقفون عليه من اللوح : لحقنا بها بين الظهرين ، وحكمها حكم التي قبلها في الحضارة وإكرام الوارد عليهم من ذوي الأقدار .

أقمنا بها بقية يومنا ومن الغد كان رواحنا لمدينة شربال على تسعة أميال .

---

(١) Larca

(٢) Velez - Rulio

الخبر عن مدينة شربال (١)

مدينة صغيرة بالنسبة لما قبلها ، ديارها غير شاهقة البنيان وأهلها للبادية أميل . والمدينة قد استوعب نواحيها أجنة نزلنا بخيار ديارها وحضر لملاقاتنا حال الورود عليها ووقت التشييع خلق كثير ، الكل يظهر من البشاشة والمباشر ما فيه زيادة على ما تقدم .

ومن الغد سرنا قاصدين كلين دِبَاصَا عن إثني عشر ميلاً .

الخبر عن مدينة كلين دباصا (٢)

مدينة أصغر من التي قبلها غير أنها حضرية وعلى قرب منها وادي وأرجاؤها أرض سقي ، وبها أجنة عديدة مختلفة المطاعم .

لحقنا بها بين الظهرين على إثني عشر ميلاً ثم رحلنا عنها إلى مدينة باصا .

الخبر عن مدينة باصا (٣)

هي مدينة كبيرة جداً وبها عيون عديدة ، كثيرة الأشجار أجنتها لا تحصى ولا تحصر ، أكثرها بعد العنب أشجار التفاح ، والمدينة في بسيط من الأرض ، وأهلها بين الحضارة والبداوة . ومنها كان رواحنا لمدينة وادي آش عن واحد وعشرين ميلاً .

الخبر عن مدينة وادي آش (٤)

مدينة مشيدة بين جبال ، فهي في عمق من الأرض وقد أحاطت بها زياتين وكروم لا تنحصر عدداً وأهلها أهل بادية محض . وبلادهم جميعاً

---

(١) Chirrival

(٢) Cullar de Baza

(٣) Baza

(٤) وادي آش Guadix

سقي لأن الأرجاء التي بقيت فيها هذه المدينة متسعة غير أنها أحاطت بها جبال شواهق ، ومنها كان رواحنا لمدينة أزناليوص لحقنا بها عن واحد وعشرين ميلاً .

الخبر عن مدينة ازناليوص (١)

مدينة صغيرة مشيدة على ربوة وحكمها حكم التي قبلها غير أن هذه مشيدة قبلها . وبعدها في جميع أرجائها عدة أبراج للمسلمين لحراسة غرناطة ، عبرناها بين جبال وخنادق .

ومن الغد سرنا لحاضرة الحواضر ، مدينة غرناطة أعادها الله وغيرها دار إسلام ، عن ثمانية عشر ميلاً .

الخبر عن مدينة غرناطة (٢)

لما قربنا منها ولم يبق بيننا وبينها إلا نحو مسافتين لحقنا بأرض منبسطة حسنة استوعبها أجنة وأغراس زياتين وكروم وجميع الفواكه على اختلافها ، كل بستان له دار ذات منازه ومقاعد وبها وردت علينا خيول أعيان المدينة بعث بها الحاكم للملاقاة . وعند الإشراف على المدينة برز لملاقاتنا خلق كثير لا يأتي عليهم الحصر ، كأنهم جراد منتشر خاصة وعامة وكان يوماً مشهوداً ، وقدموا لنا أكداشاً ركبناها وأحدق بنا القوم وذهبنا معهم في ازدحام عظيم ، جميعهم معلن بنصر سيدنا ، أيده الله تعالى ، وعبرنا المدينة في هيئة لم تعهد قبلنا قط ، فإذا بشراجيب الديار مملوءة بالنساء والصبيان ولهم ضجيج فمنهم من يشير بيده ، ومنهم من يطأطىء برأسه

---

(١) Iznalloz

(٢) Grenada

ثم بوسط أحد الشوارع خصتّان واحدة فوق أخرى ، وقد استدار بها شباك من الحديد وبأعلى قوائمه فنارات من الزجاج تزيد على الأربعين وقد انتهينا إلى باب كبير جداً مشيد من الحجر في غاية الإتقان فسألنا عن هذا الباب الذي هو بطرف المدينة وما وجه خروجنا عنه ، فكشف الغيب أنه باب المدينة الغرناطية ، الحاضرة الحسنة المستحسنة الغنية لشهرتها في بر العجم والعرب عن التعريف وذكر بعض أوصافها ، فإذاً :

هي من المدن العظام لم نر مثلها في جميع ما رأيت في بلاد الاصبنيول إذ حليتها مخالفة لحلية غيرها في بنيان الديار ولا في الشوارع ، إذ بنيانهـا باق على حاله الإسلامي ، لم يحدث به تغيير كغيرها من المـدن ، فهي أقرب شبهاً بفاس في بنيانها وجريان الأودية بجداراتها ، ثم القناطـر المضروبة عليها ، وما اشتملت عليه من الديار والخصص والزّليج والدرابيز من اللوح المستدير بمساحات الطبقة الثانية المشرفة على صحن الدار والبيوت والغرف والسقوف والأبواب ، والكل مشاكل لمدينة فاس .. وكان بنيان بعض الدور منها على ربوة وجلها على بسيط من الأرض . فبنيان الديار بين خفض ورفع ، كما شاكلتها أيضاً في الهرم . ولا شك أن أهلها لا يعتنون بتمويه الديار بالجير لا داخلاً ولا خارجاً ، ولا يستعملون الجبص المبهج للبنيان . ومع ذلك ، فهي في نفسها بالخصوصية أفضل وأحسن وأبهى وأبهج من غيرها المشتمل على النقش والنحت في الحجارة والتمويه بالذهب والألوان . وفي مثلها يستشهد ذو الإنصاف بقول من قال :

إن المليحة من تزين حليها لا من غدت بحليها تتزين وقد شقها نهران أحدهما دارو[1] والآخر شنيل[2] غير أن شنيل أُخذ منه ساقيتان من

---

(١) Darro

(٢) Genil

أعلا مجراه قرب اتصاله بالمدينة ، كل ساقية قدر الوادي المتوسط ، ثم ساقية عن يمين مجراه ، والساقية الأخرى شماله ، فالناظر إليه يشاهد ثلاثة أودية ، وقد ضربت على الوادي الأصلي الذي هو الوسط قنطرة من خمسة أقواس في غاية الحسن ، إلا أن علو الأقواس متوسط ليس بعلو فادح ولا بخفض منبسط .

وفيما بين الوادي والساقية التي من ناحية المدينة مساحة طولها نحو الألفي خطوة، وعرضها ما تمر به عشرون من الأكداش في صف واحد . وبوسط هذه المساحة عدة خصص استوعب طول المساحة المذكورة يصعد الماء من جميعها قدر ثلاث قامات ، علوها من الأرض ثلاث قامات أيضاً . بطرفي عرض المساحة مسطبات من الحجر يميناً وشمالاً مسندة على ستائر الواديين من أولها إلى آخرها يجلس عليها أهل المدينة كل عشية ، نساء ورجالاً للإستراحة والنزهة ممن لا قدرة له على جعل الأكداش .

وأما أهل الرفاهية فيركبون الأكداش رجالاً ونساء وصبياناً يعبرون عليها تلك المساحة من إحدى الجهتين ، حتى إذا انتهت المساحة بالعبور يرجعون بأكداشهم من الجهة الأخرى . والخصص المذكورة حائلة بين الطرفين يميناً وشمالاً حال العبور ، ويستمرون على ذلك إلى الغروب ويذهب حينئذ كل لسبيله غنياً كان أو فقيراً . هذا دأبهم وديدانهم كل عشية في الفصول الأربعة ، ما لم يمنعهم المطر من الخروج لهذا المحل .

والوادي المسمى بشنيل يجد فيه الإنسان نشاطاً وبسطاً بالخاصية ، وقد حاز من الحسن ما لم يكن بغيره لعذوبة مائه وطيب هوائــه وبسط أرجائه المستوي مع الأرض من غير حافة ولا جرف في جميعه ، وقد شاهدنا بشطه من المنازه والمقاعد مــا لا يأتي عليه الحصر . وبالقرب منه ديار يعمل فيها الكاغد لافتقار صانعه لنواعير تدور بحركات الماء

إذ هي أكبر آلة معتبرة في عمله . والدار المتصلة بالوادي خارج منه صارية تدور بدور الناعورة المذكورة وبها أرياش ترفع مرازم وتنحط بعنف داخل مهراس من الحجر ، لكل مهراس ثلاثة مرازم لهشم قطع من خرق الكتان البالي الذي لا بال له ، بعد قرضه بالمقراض وتنقيعه بالماء يستمر عليه العمل ، فإذا تلاشى يلقي عليه شيء من الجير ويمكث في مائة نحو نصف شهر ثم ينقل لصهريج ثان متوسط وقد كمل عمله فهنالك يؤتى بالقوالب ولا يدخل القالب للصهريج إلا بعد تحريكه بعصي ليقع المزج بين أجزاء ما في الصهريج ، لأن الماء هو المعين لجريان ما خالطه على بسيط القالب .

وكيفية القالب : أربع مسطرات قدرها في الطول والعرض قدر الورقة من أي نوع كان . والمسطرات غلظها ما دون الإصبع متصلة الأطراف من الجهات الأربع ، والفرجة داخلها سلك رقيق جداً وممكن بطرفي المسطرتين سلك إلى جانب سلك حتى استوعب الفرجة المذكورة ثم أربع مساطر أخرى متصلة بأطرافها الأربع ، تمكن بالتي تحتها بتحكيم متقن هي مرتفعة عنها بقدر نصف الإصبع جعلت لإمساك ما وضع في القالب على بسيطه ليأخذ منه القدر المحتاج ، تلقى على القالب بسهولة وتنزع منه بلا تعب ، ومدة إقامته بها شيء يسير بحيث تمكن منه ثم يدخل القالب في الصهريج ، وعند خروجه تقلع وتلقى على قالب آخر ثم تزال عنه وتركب بقالب آخر ، وهكذا .

والسر في نسج بسيط القالب بالسلك لإنفاذ الماء منه لأسفل القالب ولا يبقى على وجه القالب إلا ما خالطه الماء . وكيفية إزالة الورقة عن القالب ، إلقاؤه على زيوف غليظة ، ثم يرفع القالب بهون فتبقى الورقة مبسوطة على الزيف ، ثم يلقى فوقها زيف آخر ، وهكذا ، فتنشف الزيوف ما بالورق من البلل ، ثم يلقى على حبال في الظل يوماً أو يومين

ويضم بعضه لبعض ، ثم يغمس في ماء طبخ فيه آذان البقر ، فهو بمنزلة
التغرية له ، وتنشر كل ورقة على حدتها ، ثم بعد يبسها يمر عليها بحجر
مبسوط يصقلها ويطلق منها بغير التكميش الصادر من تكرار العمل عليها .

ومن هذه الدار ، كان عبورنا لعدة مساجد : فالأول منها ، وهو
الأكبر ، وله خمس بلاطات من كل جهة من الجهات الأربع ، وبوسطه
براح بنيت فيه قبة مثمنة ، محمولة على سواري ثمانية ، وبين كل سارية
والتي تليها قوس في غاية العلو . وما تحت الأقواس شباك مستدير بالسواري
الثمانية . والسارية الواحدة من الثمانية عرضها ستة عشر شبراً من كل
وجوهها الأربعة . وما بين السارية والتي تقابلها المنعقد عليها القوس المذكور
ثلاثة وأربعون قوساً . وأما الطول بالتقريب ، فخمس قامات ، والأقواس
والبلاطات وسواريها الخارجة عن القبة المذكورة في العلو والضخامة
واحدة غير أن سواري البلاطات مما يلي الأرض قدر قامة على الصفة في
التربيعة . ومن أعلا القامة سواري أربعة ملوية متصل بعضها ببعض .
والقبة الموصوفة هي محل مصلاهم ، وقد استوعبها تصاوير وصلبان
وصناديق الموسيقى » وما هو معلوم عندهم في جوامعهم . وبطرف هذه
البلاطات قبة محمولة على أربع سواري من المرمر ، والمساحات الدائرة
بها بكل مساحة ثلاثة قباب ، جملتها ثلاث عشرة قبة ، الوسطى هي
الغاية في العلو ، وعرضها كطولها . وقباب المساحات مثلها في العلو
ودونها في الإستدارة . ثم بطرف الجامع تقابلها قبة أخرى بها عدة صناديق
من الرخام بعضها بجنب بعض ، هي مقابر ملوكهم ، وبجنب الصناديق
تصاوير عديدة وصاحب كل صندوق منهم مستلق على قفاه من أعلى
الصندوق . وبصدر هذه القبة ، مقعد يصعد له بدرجات فيه تصاوير
وصلبان شيء كثير . وللمقعد الحامل لذلك أقواس محمولة على سواري

في غاية الرقم » وقد موهوا جميعاً بالذهب وبه من الحساك الفضية عدد كثير مع مـــا اشتمل عليه من الثريات والمصابيح الفضيـــة والبلورية .

ثم عبرنا مساجد أخرى على الصفة في بعضها ، وبعضها باق على البناء الإسلامي . وكذلك الديار جلها لم يحدث بها تغيير ، بل كلها وواديها المار بوسطها بعضه مستتر بالبناءات التي فوقه ، ديار وحوانيت وأزقة وبعضه منكشف له محفظات قدر القامة فما دون . فمن أحد جدور نواحيه الدور صاعدات من مجراه ، لها شراجيب وبروز خارجة من أسوار الديار عليها أبهاء كالصقالة مطلة على الوادي لها درابيز .

وهذه الصقالة استوعبها قطاع مغروس فيها أصناف النوار ؛ فالناظر لسور الديار يشاهد بستاناً في قائم السور ويقابله من الديار مثله ، والوادي بينهما . وفي مجرى الوادي جعلوا دار الدبغ للجلد ، هي من عهد الإسلام ثم بالقرب منها موضع مستقل لصنع الحرير. وأهل المدينة جلهم يستعملون نسج الحرير بركاضو ، فما دونه .

والمدينة هي في نفسها مستندة على جبل ، وبقنة الجبة القصبة التي كانت لملوك المسلمين رحمهم الله ، وهي في غاية العلو والضخامة ، مكتوب في قوس الباب بخط مشرقي في غاية الحسن والإتقان « بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ! أمر ببناء هذا البناء المسمى بباب الشريعة ، أسعد الله به شريعة الإسلام ، كما جعلها باقية على الأيام ، مولانا أمير المسلمين السلطان المجاهد أبو الحجاج يوسف بن السلطان المقدس ، أبي الوليد بن نصر ، أدام الله نصره وخلد

---

(١) هذه القطعة محذوفة في النسخة المطبوعة .

في المجاهدين جلالته وفخره . وكان الفراغ من بنائها بشهر رمضان عام تسعة وأربعين وسبعمائة » .

ثم بعد هذا طريق مرصفة بين سورين نافذة مثل الأول في العلو والضخامة والجدة والخط المرسوم فوقه ، غير أن الكتابة افتتحها بأعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وسلم تسليماً . إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر إلى عزيز ، ثم يتلوه ما بالأولى حرفاً حرفاً ، والتاريخ واحد .

وبعد الباب براح في غاية البسط ينتهي إلى سور أبراجه في غاية الضخامة وهذا السور ينحدر بانحدار الجبل ، ويصعد بصعوده . وعن يمين هذا البراح سور مستدير من الحجر المنجور ، وبجنبه ديار ملوك الإسلام رحمهم الله [1] « غير أن باب هذه الديار نقبت من سور الديار يصعد لها بدرجات وينحط بدرجات نافذة لمقعد في غاية الطول ، فكشف الغيب أن باب ديار الملوك هدها الكافر مع قبة من أحد القصور وما استقام به بنيانه ، وقد عجل الله به للسعير قبل أن يحصل مراده ، ولم يعتن بعده أحد من الطغاة بإتمامها ، وكأنهم تشاءموا منها ، وصار بباب ديار ملوك الإسلام لهد بابها المعلوم هي القبة المذكورة ، وطول هذا المقعد خمس وستون خطوة ، له ستة أقواس نافذة لصحن القصر ، ويقابله مثله بالأقواس الثلاثة ، يحسبها الناظر من داخل القصر أبواب البيوت ، يقابل بعضها بعضاً ، وهي في نفسها مقاعد على الطول فقط ، منها الضيق من أن تكون بيوتاً على ما تقتضيه الهندسة . وهذا القصر له قبتان إحداهما باقية على حالها طولها خمس وأربعون خطوة ولها من الأبواب ثلاثة

---

(١) القطعة التالية غير واردة في النسخة المطبوعة .

الوسطى في غاية العلو ، والآخران دونهما . وفيما بين القبة والصحن بلاط طوله كطول القبة ، وعرضه عشر خطورت ، وسقفه كالجفنة بالتسطير الرائق المعجب المموه بالذهب والحنيات يميناً وشمالاً من عمل الجباص المكتسي بالذهب . وبصدر القبة ثلاثة أبهاء .

وسقف هذه القبة مشتمل على سبع قباب ، الوسطى في غاية العلو وثلاثة قباب عن اليمين دونها في العلو ، ومثلها عن اليسار . وهذه المقاعد والقباب والأبهاء استوعب القائم والمبسوط حيطاناً وسقفاً داخلاً وخارجاً بعد الأرز من الزليج بالتسطير والقضيب ما يكل الواصف على تكييفه والخطوط المشرقية والكوفية والتشجير والتوريق والتسطير الكل من تحمل الجباس الشبيه بالرخام . وقد اشتملت الخطوط على آيات وأشجاع وأشعار . كالآيات « فالله خير حفظا [1] وهو أرحم الراحمين » ثم : وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ، ثم : فتح من الله ونصر قريب وبشر المؤمنين ثم : وما النصر إلا من عندالله العزيز الحكيم ، ثم : إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً إلى عزيز ، ونحو ذلك من الآيات العديدة ثم الأشجاع مثل النصر والتكميل والفتح المبين لمولانا الحاج ، أمير المؤمنين ثم عن شرف الأعصار وفاتح الأمصار ، مولانا عبدالله ، نجل بني النجار . « والغالب في الكتابة حيطاناً وسقفاً من عمل النجار والجباص » ، لا غالب إلا الله » [2] وعن يمين داخل القبة من ناحية الصحن رخامة مرقومة تقابلها مكتوب بأعلى الأولى :

كل صنع أهدى إليّ جمالـــه

وحبـــاني بهاءه وكمالـــه

(1) نهاية القطعة المحذوفة .

(2) هذه القطعة محذوفة في النسخة المطبوعة .

فإذا مبصر تأمل حسني
أكذب الحسن بالعين خياله

ثم في مقابلها :

شيدتني يد الإمام ابن نصر
حرّس الله في الملوك جلاله

ودام علاه في العز ما اطلع
الأفْق شمسَه وهلاله

ثم بمقدم الأبواب الثلاثة النافذة للقبة الثانية رخامات أيضاً اشتملت على رقم ونقش بالذهب ثم الخط أيضاً بالذهب لفظه .

رقمتْ أنامل صانعي ديباجي
من بعدما نظمت جواهر تاجي

وحكيت كرسي العروس وزدته
أني ضمنت سعادة الأزواج

من جاءني يشكو الظمأ فموْردي
صرف الزلال العذب دون مزاج

فكأنني قوس الغمَام إذا بدا
والشمسُ مولانا أبو الحجاج

ملك تدفق بالمواهب كفهُ
للسائلين تدفق الأمواج

لا زال محروسَ المهابة ما غدا
بيتُ الإله مَثَابة الحجاج

ثم القبة المقابلة لها ، وهي التي هدها الكافر ولم يبق لها إلا الباب المقابل للصحن .

وطول صحن القصر خمس وستون خطوة والصهريج الذي به دونه في الطول بيسير . ومن الجهتين خريجان من الرخام طولهما كطوله ، وعمقهما دون شبر ، يغرس فيهما أصناف النوار ، ثم بجنب هذا القصر قصر ثان اشتمل على ثلاثة قباب . والمساحات الدائرة بالقبة محمولة على مائة وثمانية وعشرين سارية من الرخام . ثم بطرفي صحن القصر قبتان كل واحدة منها محمولة على إثنتي عشرة سارية من جنسها طول كل سارية قدر ذراع ، والسواري محمولة على ظهر أسد من الرخام وكل سارية حاملها أسد ، وعدد الأسود إثنا عشر يتدفق الماء من فيها بساقية من الرخام دائرة بالحصة ويتصل بها مجرى المياه من الحصص اللواتي بأبواب القبة [1] وصفة القبة الواحدة من الثلاثة هي في نفسها ستينية ، غلظ سورها تسعة أقدام ولها ثلاثة أبهاء في كل جهة من الجهات الثلاث [2] كل بهو له ثلاثة شراجيب يميناً وشمالاً وصدراً مطلة على البستان المحيط بالدار من خارج بثلاثة أرباعها الشاملة للفواكه وأصناف النوار .

وهذه البساتين فيها مقاعد عديدة وصهاريج وخصص يصعد الماء فيها من الأنابيب للهواء بعلو فادح . وقد استوعب الأبهاء التسعة داخلا وخارجاً ودائرة القبة من أرضيتها إلى السقف ما تحار فيه العقول من عمل الجباص والنجار والرخام المشتمل على التشجير والتسطير . « وقد شاهدنا من بياض الجبص ولمعانه ما يغلب على الظن أنه من الرخام المحض وهناك أزر من الزليج بالتسطير والقضيب في غاية الرقة . فلو أُلزم المهندس في وقتنا هذا أن يخط مثله بقرطاس لعجز ، فأحرى تخليطه بالآلة المعدة لتمويهه بعنف على اختلاف أنواعه من قضب وألواح وخواتم وغير ذلك

---

(١) هذه القطعة محذوفة في النسخة المطبوعة .

(٢) سقطت هذه الجملة في النسخة المطبوعة .

مما اشتمل عليه التسطير [1] .

وأما الخطوط المشرقية والكوفية فوق هذه الأزر إلى السقف ، فشيء يكلّ الوصف عن بعض بعضه . « منها ما هو منبسط ، ومنها ما هو مرتفع ثم بخواتم التسطير الجبصي في الأبهاء وخارجها آيات وأشجاع وأشعار ، كل بهو استقل بنوع مخصوص » [2] الأول عن يمين الداخل : « النصر والتمكين والفتح المبين لمولانا ابن الحجاج ، أمير المؤمنين ! » مكرر ثلاث مرات ، ثم البهو الثاني : « عز لشرف الأعصار وفاتح الأمصار ، لمولانا أبي الله ، فخر بني النجار » أيضاً ثلاث مرات ، ثم البهو الثالث: « النصر والظهور على أمد الدهور لمولانا أبي الحجاج المؤيد المنصور » مكرراً أيضاً ثلاث مرات ، ثم الأبهاء الثلاثة التي بصدر القبة :

تحييك مني حين تصبح أو تمسي
ثغورُ المنى باليمن والعز والأنس

هي القبة العليــا ونحــنُ بناتهــا
ولكن لي التفضيل والسعد في جنسي

كساني مولاي المؤيــد يوســف
ملابس فخر واصطناع بلا لبس

ثم في الثاني :

فقتُ الحسان بحليتي وبتــاجــي
فهوتْ إلى الشهب في الأبراج

يبدو إنــاء المــاء في كعابــد
في قبلة المحراب قام يناج

---

(1) هذه القطعة محذوفة في النسخة المطبوعة .

(2) هذه القطعة محذوفة في النسخة المطبوعة .

ضمِنتْ على مر الزمان مكارمي

ري الإمــام وحجة المحتاجِ

ثم بالثالث :

فكأني استقريت آثــار النــدى

من كف مولاي أبي الحجاج

لا زال بدراً في سمــاء لائحــاً

ما لاح بدر في ظلام الدّاج

وبه مدى الأيام أشدو في الورى

فتقتُ الحســان بحليتي وبتاج

ثم بالأبهاء الثلاثة التي عن يسار الداخل بالأبهاء المقابلة لها يميناً وشمالاً المتضمنة الأشجاع المذكورة ، وفيما بين البهو والبهو صدر القبة :

لقد حزْتُ من كل المحاسن غاية

تفوق عليّ الشهب في الأفق الأعلى

ولِمْ لا ، وقد شيدت عن أمر مالك

مآثره تجــلى وأخبــاره تتلى

محمد المحمود في البأس والنــدا

وذو الصيت ما أعلى وذو الهدي ما أجلا

وما هو إلا البــدر حل بمنــزلي

أفيء عليه كل حين به ظلا

مناره عندي للعيــون منــازه

تقيد فيه الطرف أو تفعل الفعلا

---

(1) القطعة التالية غير واردة في النسخة المطبوعة .

وحل بها برد الهـواء نسيمهـا
فَصَحتْ هواء والنسيم قد اعتلا

ثم استوعب هذه القبة من الآيات القرآنية شيء كثير حيطاناً وسقفاً بحيث لا تجد لوحاً من ألواح التسطير وخاتماً من خواتمه من غير كتابة ، هذا في نفس التسطير ، وما خرج عن التسطير فبالا حروية ، فتحصل من هذا أن القبة استوعبتها الكتابة ، وأكثرها كلام الله تعالى ، منها : « وما بكم من نعمة فمن الله » ثم : « فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم » : « فالله خير حفظاً وهو أرحم الراحمين » : « الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل » : فسيكفيهم الله وهو السميع العليم » : « وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين » ، ثم آية الكرسي ، ثم أول سورة الفتح إلى عزيز ، ثم سورة الإخلاص والمعوذتين ثم الحمد لله وحده والشكر لله بعده ، ثم في الفاصل بين التفصيل التسطير الجبصي والذي يليه فوقاً وتحتاً لتغيير أساوب العمل ، خط مشرقي إشتمل على لفظ « لا غالب إلا الله » . وهذه الكلمة هي المستعملة عندهم في جميع ما يكتبون في بناءاتهم وفي بعض الأواني وصانع الزليج ينحتها في عمله قبل طبخه ، فنجد كل أجرة من الزليج مكتوب عليها « لا غالب إلا الله » . وعاقبة ذلك ، والعياذ بالله ما آل إليه الأمر المشاهد عياناً . فإن إسم الله تعالى وكلامه القديم ينزه عن المواضع التي هي معرض لتناول الأيدي من البار والفاجر وجعلها في الأماكن غير اللائقة بها . وقد عبرنا أجرة بباب عتبة بعض المقاعد يسكنها الكفار ومكتوب فيها : « لا غالب إلا الله » ، فلم نبرح من هنالك إلا أن قلعت وألقيت بأعلى موضع بسقف المقعد الذي وجدت فيه . وأما ما كان من الأشعار ، فشيء قريب بالنسبة للآيات وإسم الله تعالى وإسم نبيه عليه الصلاة والسلام . على أن حرمة الحروم لا تهمل

ولا تهضم حرمتها ، بل يجب تعظيمها واحترامها على كل مؤمن ، نسأل الله تعالى أن يرشدنا لما فيه رضاه ، آمين .

وفيما بين هذه القبة الموصوفة وصحن القصر قبة على شكلها ، غير أن عابرها يشاهد أربعة أبواب حال حلولها إياها في غاية العلو ، والنقش المعجب الباب الأول هو الذي يدخل منه من ناحية الصحن الثاني ، دو الذي يقابله والمجعول باباً للقبة الموصوفة . والبابان الآخران يميناً وشمالا هما أبهاء هنالك وعملها في الرقم والكتابة واحد مع القبة المتقدم ذكرها إجمالا وتفصيلا وبدائرة صحنها [1] :

أنا الروض قد أصبحتُ بالحسن كاسيا
تأملْ جمالي تستفد شرح حاليا
فلله مبنــاه الجميــل فإنــه
يفوق على حكم السعود المبانيا
به القبة الغراء عــز نظــيرهــا
ترى الحسن فيها مكتسياً وعاريا
تمد لهــا الجوزاء كف مصافح
ويدنو لها بدر السماء مناجيا
ولوْ مثلت في ساحتيها لسابقت
إلى ضرمة ترضيه منها الجواريا
ولا عجب إن فاتَت الشهب في العلى
وإن جاوزتْ فيها المدى المتناهيا
بها البهو قد حاز إليها وقد غدا
بها القصر قد فاق المباني مباهيا

---

(1) انتهت القطعة المحذوفة في النسخة المطبوعة .

« وكم حلية جللتها بحليها
فضلَ عقود الصبح إن لاح باديا»[1]

سواري قد جاءت بكل غريبة
فصارتْ بها الأمثال تجري سواريا

« إذا ما أضاءت بالشعاع تخالها
على عظم الإجرام فيها لآليا »

والمساحة التي بصحن القصر من ناحية هذه القبة سقفه بالجفنة بالتسطير المموَّه بالذهب والألوان ، ويقابله مثله أمام القبه المقابلة للقبة الموصوفة وهي قبة مثمنة في البنيان وبوسطها خصة كبيرة جداً ولها ثلاثة أبهاء ولم يكن يجمعها إلا عمل الجباص حيطاناً وسقفاً ، الكل على الصفة المتقدم ذكرها من رقم وكتابة ، ثم القبة التي بأقصى القصر غير بعيدة من القبة الموصوفة وهي على شكلها في العلو والضخامة والوشي إلى غير ذلك من النقش الذي بعضه بالذهب وبعضه بالألوان، فهي في غاية الحسن والإتقان غير أن الأولى فاقتها بمسائل منها: إحاطة البساتين بثلاثة أرباعها ، والأبهاء المطلق عليها من الشراجيب المذهبة ، فهي أحسن منها نظرة وأبهى وأبهج ومنها تشاهد مدينة غرناطة من الأرض وجريان الوادي الشاق للمدينة بجدرانها والهوات بين هذه القبة وبين مجراه ما يزيد عن الستين قامة ، لأن بناء هذه القصبة على ربوة ، مع إنها في غاية الإرتفاع المضاهي للشواهق والبسط الذي بها ، وإن كان غير متسع جداً ، به ديار عديدة [2] وما فضل على البنيان ، فهو مجمع القوم للفصل لدى الملوك المسمى بالمشور والمعهود من البناءات فيما صعد كالجبل والربوة ، عدم وجود الماء الكثير وعلى تقدير وجوده ، فهو قليل .

---

(١) هذه الابيات غير واردة في النسخة المطبوعة .

(٢) هذه القطعة محذوفة من النسخة المطبوعة .

وقد اجتمع في هذا الجبل ما افترق في غيره من جريان الوادي بقنته فكان قريباً لهذه البناءات السلطانية وقد استوعب جميعها خصص وصهاريج وجداول ، وما فضل عن المحتاج من هذا الوادي ينحدر للمدينـــة . « والوادي غير بعيد من وادي فاس وهو المسمى بدارّو » [1] .

وهذه الديار الملوكية ضاق براحها عن تعدد الديار والقصور فجعلوا غرفاً من غرف ومقاعد بعضها فوق بعض . وأخرجوا الوسع مـــن الضيق وما فاتهم من بسيط الأرض تداركوه بالجو . وجميع بناءاتهم محمول على سواري ونجاريات وأقواس ضخام . وقدر الفضاء منها قامة استعدوا هذه المواضع للخزين وبعض ما يرتفق به كالحمام ومحل الإستراحة وغير ذلك [2] وبشرقي هذه القصبة ربوة أرفع من القصبة بكثير ،بني فيها قصر في غاية الحسن ، وسور القصبة محيط بالجميع ، يصعد بصعود الجبل وينحدر بانحداره . و هذا القصر بين أشجار الفواكه ثم أشجار خارجة عنها لا ثمار لهـــا . وللقصر من الجهتين انحدار بائن تداركوه بأسوار مدرجة بمحل بسيط بين السور والذي تحته. جميعهاستوعبه أغراس: فصارت البساتين مدرجة بعضها فوق بعض. كل بستان استقل بخصص يصعد الماء من أنابيبها الجو صعوداً فادحاً. ومن الجهتين الأخريين أسوار صاعدات مدرجة أيضاً استوعبها أغراس مثل الذي تحت القصر . ومن بسيط أرض القصر مدارج يصعد منها لقنة الجبل بين سورين يميناً وشمالا وبناؤهما منحدر وساقيتان تنحدران من أصل السور في قرمود مستدير الطرفين من عمل الفخار ومزدج من خارج سواري المدارج وادي منحدر أخذ من أعلاه ما هو جار بمتن سور المدارج وما ينفذ للخصص

---

(1) هذه القطعة محذوفة في النسخة المطبوعة .

(2) القطعة التالية غير واردة في النسخة المطبوعة .

ذوات الأنابيب الصاعدات للجو وباقية يشق القصر على طوله ، فهو بمثابة الصهريج ، لأن مجراه داخل القصر مبني يميناً وشمالا حواشيه من ألواح الرخام استوعبه ثقب تصعد منها الأنابيب معرجة لداخل الصهريج من الجهتين ، كل أنبوب يقابله مثله . وبطرفي الصهريج خصتان يصعد الماء على الصفة في العلو ، إحداهما ببكب قصبة القصر ، والأخرى تقابلها من جهة الباب الذي يدخل منه للقصر . وللقصر ثلاثة مقاعد . الأوسط هو المقابل للصهريج في غاية الطول والعرض ، له بهو وشراجيب مطلة على المدينة ، وبوسط أرجائها . ثم مقعد يميناً قدره في الطول والعرض يقابله من الجهة اليسرى . ومثله ثم غرف فوق المقاعد الثلاثة على الصفة في النقش [1] والكتابة في جميعها لفظ « لا غالب إلا الله » إلا ما كان بقوس باب المقعد المقابل للصهريج مكتوب فيه :

قصر بديــع الحسن والإحسان
لاحت عليه جلالــة السلطان

رقــت محاسنه وأشرق نــورهُ
وهامتْ سحائب جوده الهتان

رقمتْ يــدُ الإبداع في أرجائه
وشيــاً كمثل أزاهر البستان

فكأن مجلسه العروس تبرّزت
عند الزفاف بحسنها الفتّــان

وكفاه من شرف بديع القدر أن
نال اعتنــاء خليفة الرحمن

خيرُ الملوك أبو الوليد المنتقي
من نخبة الأملاك من قحطان

---

(١) انتهت القطعة المحذوفة في النسخة المطبوعة .

« المقتدى بالطاهرين جدوده
أنصار خير الخلق من عدنان »
« لحقته منه عناية قد جردت
منه جمال مصانع ومبان » [1]
في عام نصر الله والفتح الذي
هو الحقيقة آية الإيمان
لا زال معمور السعادة خالداً
في نور إرشاد وظل أمـــان

وبدائرة البراح الذي يدخل منه للمقعد المذكور يتصل بالسقف بالجهات الأربع قوله تعالى :

«بسم الله الرحمن الرحيم إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً » وبجنب المقعد منزه يصعد له بمدارج عديدة يستوعب أرجاء المدينة يشاهد منه إثنتا عشرة مدينة دائرة بغرناطة على مرأى العين ، والأولى سنطفي [2] على بعد من ستة أميال ، ثم طريانة [3] على أربعة أميال ، ثم الندبة على ثلاثة أميال ، ثم كرابي الكبير على ثلاثة أميال ، ثم كرابي الصغير على ثلاثة أميال ، ثم أطر على ثلاثة أميال ، ثم كسَخر على أربعة أميال ، ثم أككرع عن ثلاثة أميال ثم أطرافي ، عن ستة أميال ، ثم البوطيء عن ثلاثة أميال ، ثم مصلين عن أربعة أميال ، ثم ماصير عن أربعة أميال ، ثم لوصابا ، عن أربعة أميال ، ثم بأرجاء غرناطة أيضاً الأودية المتصلة بها والخارجة عنها ، خمسة أودية ، يظهر جميعها من هذا المنزه المتصل بها دارو وشنيل والخارجة عن مدينة هنتيل ديار بين جميع هذه الأودية تتصل بشنيل .

---

(1) هذان البيتان غير واردان في النسخة المطبوعة .
(2) Sanfe
(3) Triana

وقد سافرنا من مدينة غرناطة بعد الإقامة بها إثني عشر يوماً لتراكم المطر وتتابعه إلى قرية اسمها شما على مسيرة إثني عشر ميلا . ومن خلال الأميال : عبرنا مدينة اسمها سنطفي .

الخبر عن مدينة سنطفي

مدينة ذات أغراس وأجنة وعن يسار الوادي المنحدر من غرناطة بنحو المسافتين ، وهي الآن بدوية محض . وبنيانها غير شاهق باق على حاله الاسلامي ، والقرية المذكورة بدوية أيضاً . وكان مبيتنا بـدار حاكمها ، وقد هيأ لنا مقعداً هو أحسن مقاعد ديار القرية . وقد استوعب فضاؤه بطيخاً وتفاحاً وعنباً معلقاً جميعه في فضاء المقعد، وقال إنه يمكث بقية السنة ولا يعتريه تغيير ، وقدم لنا من الفواكه ما جعله لنا قرى ، فإذا طعم جميعه في المذاق في أبانه وغير إبّانه واحد ، ولا فرق فيه بـين الوقتي والمؤخر ، وبتنا في كرامة .

ومن الغد ، قصدنا مدينة لوخه عن اثني عشر ميلا جميعاً في وحل وطين وغدران وخنادق .

الخبر عن مدينة لوخة (١)

مدينة حضرية قريبة من أن تكون قطعة من غرناطة لاستيعاب ديارها الماء الجاري ، وقد شقها الوادي المسمى بشنيل ، عليه قنطرة غير بعيدة في العلو من قنطرة سبو بفاس ، لها أربعة أقواس من عمل المسلمين رحمهم الله . والمدينة في حجر جبل شاهق محيط بثلاثة أرباعها . وبقنته قصبة هدها القدم باقية أبراجها . وقد فعل أهل المدينة ما فعله من قبلهم مـن

---

(١) لوشه : Loja

الترحيب والبروز للملاقاة بالأكداش وآلة الطرب ، فهم على قدم غرناطة في الميل للمسلمين والمحبة الدالة على أن فيهم عرقاً يهشم للإسلام بالخصوصية رجالاً ونساء وصبياناً بزيادة على غيرهم ، والكثير من ألقابهم موجود عندنا في الإسلام . فمنهم من يشير إشارة خفية ، ومنهم من يجهر بذلك ولا مرية في أنهم من بقايا الأندلس ، وقد طال عليهم العهد وغلبت عليهم الشقاوة والعياذ بالله .

أقمنا هناك بقية يومنا وسافرنا من الغد قاصدين مدينة أرشادون على ستة أميال .

الخبر عن مدينة ارشادون (١)

مدينة بدوية وهي في حجر جبل شاهق تحت قنته بيسير قصبة ما رأيت أكبر منها في جميع ما رأيت من حصون الأندلس اشتملتْ على أربعة وستين بُرْجاً . يقابل الجبل الذي بنيت فيه القصبة جبل مثله جعل فيه أعداء الله مدافع حال محاربتهم مع المسلمين بعد أخذ المدينة ورموا على القصبة من المدافع ما هدوا بها جميعها ، وبقي أثر الأبراج وجدار السور قدر نصف قامة . وقد أبقوا بالجبل بعض المدافع علامة على أخذ القصبة من الجبل المقابل لها .

وكان رواحنا لمدينة أسونة عن واحد وعشرين ميلاً وصلنا إليها قرب الغروب .

---

(١) Archdona

الخبر عن مدينة أسونة (١)

مدينة حضرية وأهلها أهل رفاهية وسعة من المال . وقد برز أهلها لملاقاتنا بأكداش وخيول وبالغوا في الإكرام والترحيب ما زاد على من تقدمهم .

وديار المدينة مسامة محض مشيدة بالأجر « والطابية ، والمقاعد والغرف والبيوت والسقوف والأبواب » (٢) الكل على ما هو معهود من بنـاء المسلمين رحمهم الله . ومنها كان رواحنا لمدينة اطريرة عبرنا إليها عن اثني عشر ميلاً بين زياتين وكروم وبعض أغراس الفواكه متصلة بسورها ، وهنالك دواليب تسقى منها الأغراس المذكورة .

الخبر عن مدينة أطريرة (٣)

مدينة من المدن الحواضر ، غير أن بنيانها غير شاهق . نزلنا في أحسن دورها « لضخامة بنيانها وتعدد القباب والمقاعد ، وقد استدار بثلاثـة أرباعها بستان في غاية النظارة شامل لأشجار الفواكه وأصناف النوار . وللبستان مقاعد مستديرة به ، وقد بالغوا في تزيين المقاعد بالفرش المنتخبة » (٤) وإيقاد الشموع الكثيرة وإحضار أهل الموسيقى . والمباشرون لهم هم الفرايلية .

ومن أعجب ما رأيت بها رجلاً قامته أربعة أشبار ، والوجه والصدر من الذوات الضخام ، قيل إنه مضى له من العمر ثلاثون سنة ، وفيما بين

---

(١) أشونه Osuna

(٢) هذه الفقرة محذوفة من النسخة المطبوعة .

(٣) Utrera

(٤) هذه الفقرة محذوفة في النسخة المطبوعة .

ركبتيه وكعبتيه أربعة أصابع واليدان كذلك . وله في الغناء القدم الراسخ بين أهل الموسيقى . فتعجبت منه غاية ، ثم ناديتُه وأجلستُه بين يدي وأكرمته وجعلت أتحدث معه وأسأله عن أشياء تقتضي المداعبة والمباسطة منها السؤال عن موجب تعاطيه علم الموسيقى وما الحامل له على ذلك ، ثم الرقص الذي هو من توابعه وكيف يمكنه النصر في آلة الطرب مع قصر أنامله وساعده ، ففكر هنيهة وقال : « الحامل على تعلم ما سألت هو ما أعانيه من العشق والميل للمحاسن والملازمة للصبوة » . وجعل يتكلم تارة بالجهر ، وتارة بخفض صوته ، وأكثر من الالتفات ، فسألته عن جهره في بعض الكلام وسره في بعض ، وما وجه التفاته حال السر ، فقال :

« محبوبتي معكم في الحضرة وخشيت أن تسمع بعض كلامي فتظن أنني أبوح بسرها ، فإذا بمحبوبتي في الطول هي كالأرزة ، فزدت من ذلك تعجباً . ولما قامت النسوة للرقص ، قامت هي من جملتهن . ومن عادتهم في الرقص أن يجعل الذكر مع الأنثى ، وقد أدركته من الغيرة عليها . ما لم يكن في غيره من الكفار ، فندبه بعض الحاضرين للرقص فأجاب ، فذهب لمحبوبته يطلب مساعدتها للرقص معه ، فلم تقبل عليه بالكلية ، ثم ذهب لغيرها فلم تجبه ، ثم إن القيم على الليلة قدم له بنيــة للرقص فرقصت معه ، وعاد إلينا شاكياً يتلهف ويعاني من الوجد ما كادت حشاشته تذوب (معه) من عدم قبول محبوبته عليه في الوقت : فأبديت له عنها من العذر ما أنست به نفسه ووجد بعض الراحة . وعند انصراف القوم جاء للتشييع معنا وبيده عصا ، فسألته عما يفعل بالعصا فقال : « هي معدة لطرد الكلاب ، والآن أضرب بها المحبوبة عــلى الرأس ، فأقتلها ! » ، فقلت له :

« كيف يمكنك اللحاق برأسها مع قصرك وما هي عليه من الطول ؟ »

فسكت ثم أخرج من جيبه مدية قدر شبر وقال : « الضربة بهذه تقضي الغرض أكثر من العصا . » فقلت : « الآن اهتديت إلى ما تحصل به على الإرب ، لكن إن كانت الضربة من اليد الكاملة الحلقة في بسط الراحة وطول الأصابع لتتمكن من المدية حال الطعن ، وأنت ، فيما أظن ، لا تساعدك أناملك ولا راحتك لذلك ، مع ما يدركك من الشفقة على محبوبتك . وهذا الأمر الذي عزمت عليه حملك عليه الغيظ فقط ، وستندم إن فعلت . فإن كنت تقبل النصيحة ، فسامحها وساعدها في مرادها لعلك تحصل منها على الخاطر وتدرك ما تريد ! » فتأمل فيما أقوله لك واعمل به ! » فقال : « الخير كله فيما أشرت به عليّ » وانصرف عنا ، وقد استوعبنا الليل بحديثه والتعجب من أمره .

ومن الغد سافرنا لمدينة اسمها لاص كبلسصت عن أربعة أميال في وحل عظيم بين أودية وشعب وخنادق وغدران بحيث تهوي نواعير الأكداش والكراريس في عمق الطين ويعجز عن إخراج الكدش الواحد باثني عشر بغلة من البغال المعتبرة في الجودة ولا يخلصه من الوحل إلا العدد الكثير من الثيران .

الخبر عن مدينة لاص كبلسصت (١)

« مدينة بقنّة الجبل وقد اتصل الوحل بديارها مع أن الجبال تدفع عن نفسها السيل . وهذه المدينة لم يغن عنها العلوّ من الوحل شيئاً . والمدينة بدوية بأهلها . لحقنا بها عشية وارتحلنا عنها بين الظهرين من غداة ليلتنا لقرب المسافة لدار مبيتنا بمدينة لابرنجة عبرنا عن تسعة أميال » (٢) .

---

(١) Las Cablas

(٢) وصف هذه المدينة محذوف في النسخة المطبوعة .

الخبر عن مدينة لابرنجه

وقد تقدم ذكرها في العبور الأول . ومن الغد لحقنا بمدينة خريز[1] .

الخبر عن مدينة خريز (٢)

« تقدم الكلام عليها ، غير أن أهلها زادوا في الإكرام والبر على ما تقدم منهم في العبور الأول ، وكانت إقامتنا بمدينتهم للإستراحة يومين وفي اليوم الثالث استعملنا المسير قاصدين مدينة لأيزلة ذا اليون ، ومعناها بالعربية « جزيرة السبع » عن إثني عشر ميلا [٣] » .

الخبر عن مدينة لايزلة ذا اليون (٤)

« مدينة[٥] من المدن المعتبرة التي لهـــا بال في ضخامة البنيان واتساع الرحاب ، وكل دار بجنبها بستان بمقاعد وخصص وصهاريج ، الكل مشتمل على التلاعب بالمياه وتعدد الأنابيب ، منها ما هو معرج عـــلى الإستدارة ، ومنها ما هو صاعد للجو : غير أن بنيانها غير شاهق . وقبل الوصول إلى هذه المدينة بما يزيد على عبورنا طريقاً مرتفعة عن بسيط من الأرض لها احتفاظات من الجهتين والخارج عن الطريق يميناً وشمالا في جميع أرجائها خلجان تستمد من ماء البحر فتجد ملحاً . وقرب باب المدينة قنطرة مضروبة على وادي يتصل به البحر حال الزيادة ، فهو من

---

(١) هذه الفقرة محذوفة في النسخة المطبوعة .

(٢) Keres

(٣) هذه الفقرة محذوفة في النسخة المطبوعة .

(٤) La Isla de aleon

(٥) القطعة التالية غير واردة في النسخة المطبوعة .

أعظم الأودية وأكبرها . وأقواس القنطرة ثلاثة ، فالأوسط من الثلاثة تجوز فيه السفن بصواريها لطوله وعرضه ، والقوســـان الآخران دون الوسط في الطول والعرض . (و) هي من عمل المسلمين . مع برج قريب منها ، على ما حدث به سكانها من الكفرة ، وقد برز لملاقاتنا من المدينة خلق كثير جاؤا بأكداش وخيول ، فرحبوا بنا غاية وذهبنا في جمع عظيم إلى أن انتهينا إلى الدار المعينة لنزولنا ، وهي من خيار الديار : لأن ديار المدينة لها بساتين على الصفة التي ذكرناها ، وجل سكانها تجار قالــص وأعيان المراكيس والفسيان يبنون بهذه الجزيرة لوسعها وبسط أرجائها وأماكن جعل البستان بها ، فهي عندهم معدة للنزهة والإستراحة ، لأن قالص بنيت بجزيرة ، وقد أحدق به البحر من الجهات الأربع ، وقد ضاق على سكانه مع وسعه . ولما كانت هذه الجزيرة قريبة منها جداً بنوا بها هذه الديار وغرسوا بها أشجاراً عديدة ، فهي الآن من جملة المنتزهات التي لها بال عندهم لغرابة الأغراس ببلادهم . وبينها وبين قالص ستة أميال ، عبرناها من غداة ليلتنا بين الظهرين . وهذه الأميال بين شاطىء البحر وعرضها شيء يسير ، وليس للمدينة القالصية انصال بالبر إلا طريق غير عريضة نافذة للجزيرة مرصوفة بالحجر مرتفعة على الشطين ، وقد هدّ منها البحر ما يزيد على مسافة على عهد الزلزلة لفيضان البحر وخروجه على الحد . ومن ذلك الزمن وهم يعالجون ما انصدع منها ولم يحصلوا على طائل »[1] .

مدينة قالص (٢)

لما قربنا من المدينة برز لملاقاتنا خلق كثير ، خاصة وعامة رجالا

---

(١) نهاية القطعة المحذوفة من النسخة المطبوعة .

(٢) كذا في جميع النسخ . والمقصود قادس (Cadix) وربمـــا كان هذا التحريف وارد في النسخة الأصلية بحيث حولت الدال إلى لام ، بسبب التقارب في رسم الحرفين .

ونساء بالأكداش والخيول وآلة الطارب ، فكان أول من لقينا الباشدور [1] المعين من طاغيته لمصاحبتنا للحضرة العالية ، فرحب بنا وأظهر من الأدب وحسن الخطاب ما دل على أهليته بالمنصب الذي قدمه إليه طاغيته ، فقدم لنا كدشاً فركبناه وألزمناه الركوب معنا ، ففعل ، وصارت الجموع تتوارد علينا في أثناء طريقنا ، بعضهم بالأكداش المشحونة ببنات الأكابر وأزواجهن ، وبعضهم فرساناً ،والجل راجلون ، رجالا ونساء وصبياناً واجتمع من الخلق ما ضاقت عنهم الأرض ، فسيانا ومراكيس وشلطاطاً ومطلق العامة . اجتمعوا من المدن القريبة من قالص ، زيادة على ما بقالص من القوم ، قيل إن عددهم من المتأهلين خمسة وسبعون ألفـــاً . وغير المتأهلين شيء كثير .

ولما قربنا من المدينة جعلوا يخرجون المدافع التي لا حصر لها ودخلنا في زي لم يعهد مثله قط لغيرنا ، والشلطاظ محدقة بنا يردون عنا القوم وحاكم البلادوالأعيان من قومه منكشفة رؤوسهم أمامنا بأمر طاغيتهم تعظيماً لجانب سيدنا المنصور بالله .

وبداخل المدينة كانت ملاقاتنا بإخواننا المؤمنين المسرّحين لتقدمهم أمامنا في البحر الواردين من قرطجنة ، وقد انضم إليهم إخوانهم الواردون من برشلونة ومن الكراكة ، فكان جملة المؤمنين حينئذ ثلاثمائة نسمة تنقص عشرة كلها في صحيفة سيدنا ، أيده الله ، ومن مدخراته عندالله وقد بالغ أهل قالص في إكرام الأسارى ولم يضيعوا من حقهم شيئاً في المأكل والمشرب فاعترفنا لهم بالخدمة والمحبة ووعدناهم بإعلام طاغيتهم بأداء الواجب .

---

(١) السفير الذي بعث به كارلوس الثالث لمرافقة الغزال لحمل الهدايا إلى السلطان عبد الله ، هو جوج خوان (gorge juin)

وكان نزولنا بدار هي من خير دور المدينة وما زالت الجموع تتردد علينا على قدر طبقاتهم ، الكل يبدي من البشاشة والترحيب ما فيه زيادة على غيرهم . وقد تعينت الإقامة بقالص لانتظار هدية الطاغية المصاحبة لبشادورهم للحضرة العلية .

ولنذكر صفة المدينة في البناء وما هي عليه من الأشياء المؤكد ذكرها كغيرها ممن تقدمها من المدن ، فنقول :

هي مدينة في غاية الطول والعرض وديارها مستوية في البنيان وكان المهندس خط جميعها في وقت واحد ، قسمها أرباعاً وبنى بكل ربع عدة ديار ، الفاصل بين كل تربيعة طريق محيطة بها نافذة بعضها لبعض واتصال الديار بها ، أي التي تليها من أحد جهاتها الأربع والثلاث جهات من كل دار موالية للأزقة استوعبها شراجيب وشبابيك . وهذه الديار جميعها من الحجر المنجور والطين الذي بين الحجر شيء قليل بحيث إذا هدت الدار لا يوجد بها من التراب قدر ما يحمله الحمل ولا تجد داراً إلا وبها منزه في غاية العلوّ .

وسور المدينة غير شاهق . وبين السور والديار على الإستدارة براح يزيد على المائة خطوة في بعضه مخازن البارود ثم قباب لأهل العسة . وخارج الباب الموالية للبر يميناً وشمالا بساتين في غاية العلوّ حاملة للعدد الكثير من المدافع . وفي مقابلة الباب ثلاث قناطر مضروبة على حفير في غاية العمق ترفع وتنحط بحركات زيادة في التحصين ، وبهذه المدينة من التجار ما لا يأتي عليه الحصر من سائر الأجناس ، ترد عليه من المراكب في اليوم الواحد العدد الكثير وتسافر منها كذلك ، فهي محل التجار من سائر الأجناس بالبلاد الاصبنيولية . ومرساها تزيد عن مرسى قرطجنة في الطول والعرض إذ كانت منبسطة مستوية من غير جبل ولا جرف .

وبساحلها الشرقي مدينة بنط سنطمرية (١). وبغربها مدينة قالص، وأسواقها عامرة بالفواكه الصيفية والخريفية في آن واحد، تأتي بها المراكب في كل صباح من المدينة القريبة منها.

وعن يمين سنطمرية مدينة اسمها بنط ريال(١)، ثم عن اليمن بقليل أيضا مدينة الكراكة(٢)، وهي عدة ديار مشيدة ببسط من الارض تصنع بها السفن، وهي عندهم بمثابة السجن لأهل الجنايات، وبقي بها من أسارى المسلمين في القوت سبعة عشر، وقد سرح من اعداهم على يد سيدنا الكريمة، وقد وعد أيده الله بسراح من بقي بها، تقبل الله من سيدنا!

أقمنا بها ما يزيد عن الشهر وسافرنا مصاحبين السلامة قاصدين تطوان.

فلما عبرنا المرسى هبت علينا ريح شرقية مخالفة لعبورنا، ومكثنا في البحر ثلاثة ايام، وقد اضر بنا الميد المحروق للمزاج. فلم يسعنا الا الرجوع لقالص من فم البوغاز ونزلنا البر واقمنا ثلاثة ايام بالدار التي كنا بها أولا ولما هبت ريح غربية على قلتها، اتكلنا على الله تعالى وربنا بين الضاءين، فما فاتت علينا اربع وعشرون ساعة حتى رسينا بمرسى تطوان في امن وامان.

وكان سيدنا نصره الله امر حاكم تطوان ان يقف منعا على قدم في عمارة البساتين الموالية لناحية البحر بالبارود واحضار ما هو معين لاخراج المدافع بها حيث اذا حللنا المرسى يطلق العدد الكثير ثم نتبعها مدافع اخر من القراصين المرساة بمرتسل فتهيأ الحاكم لذلك وشحن البساتين بما امره به مولانا المنصور بالله وعين دارا لنزول الباشدور المصاحب لنا وهي دار من خيار ديار تطوان وجعل باحد الابراج من يترقب مراكبنا حيث تتقدمها الاعلام.

---

(١) Puerto de Santa Maria

(٢) Puerto Real

(٣) Crraca

إننا ركبنا من قالص قاصدين تطوان وقد مكثنا في البحر أياماً لهبوب رياح مخالفة لعبورنا ، ولما يسر الله تعالى بريح طيبة عبرنا البوغاز . فما قربنا المرسى إلا والمدافع تخرج علينا من البساتين وبساحل البحر خلق لا يأتي عايه الحصر ، فتعجب الباشدور من إحضار القوم للملاقاة قبل الترسية، ولم يدر من أين اتصل بهم الخبر على بعد المدينة ، وقد صاحب القوم النوبة وآلة الطارب ، وانتشروا من مرتيل إلى شط البحر ، خيولا وبغالا وراجلين ، فأمرت صاحب المركب أن ينزل الفلوكة لننزل بها في الحال لأغراض عديدة اقتضاها الوقت وتعينت في الحال ، منها أن نهيىء ما لا بد منه مما هو مناسب لابهة المسلمين عند ملاقاة الباشدور بالقوم ، وأن نحتفل بما فيه زيادة على ما شاهدناه ببرهم عند ملاقاتهم إيانا ومنها تقديم نزول الأسارى من المسلمين البر وأن تريحهم مما هم فيه من الميد والتعب الفادح ، لأن غالبهم (من) الشيوخ والعجزة والنساء والبنين .

وكان الباشدور طلب منا أن نمهله بقية يومه بالمركب ولا ينزل إلى البر إلا في الغد ، فأظهرت له اباية ولم ننصت لكلامه وألزمت النزول إلى البر في الحال وبينت له ما الحامل على ذلك : وذلك أنني خشيتُ ريحاً شرقية لا يمكنه المكث معها بالمحل المرسى به الآن ، فتعلل بأمور تقتضي مقامه بالمركب بقية يومه لا مندوحة له عنها في أعرافهم وهي إخراج صناديقهم من المحل التي هي به وفتحها لإلحاق الكسوة التي هي معدة عندهم للتجمل عند ملاقاتهم بأعيان القوم مع ما يضاف لذلك من تحسين لحالهم ومشط الشعر الذي على رؤوسهم ، فلم يسعنا إلا الإيجاب وتجملنا عليهم بذلك .

وقد نزلنا البر في تلك الساعة ، وبعد الملاقاة بالقوم والتسليم عليهم

هيأنا عدة قوارب وبعثنا بها للمراكب الحاملة لإخواننا المسرحين على يدي سيدنا الكريمتين ، رجالا ونساء وصبياناً وعددهم ثلاثمائة تنقص عشرة جلهم من أهل الجزائر ، والبعض من المنتسبين إلى إيالة سيدنا أسماه الله فلم نلبث إلا وجميعهم في البر ، وقد أحدق بهم إخوانهم المسلمون ، كل واحد يعانق لآخر وهم يبكرن من شدة الفرح وقد أطلقت النسوة بالزغاريد والأطفال يرقصون وآباؤهم يمرغون وجوههم في التراب شاكرين لله معانين بنصر سيدنا ، أيده الله ؛ وكان يوماً لا يوازيه بالفرح عيد من الأعياد ولا موسم من المواسم ، وأخذنا في إنزال الوسق بقية اليوم .

ولما جن الليل حملتُ من الفريشك ما هو كاف للمراكب الثلاثة بقراً وغنماً ودجاجاً وما يضاف إلى ذلك من الخضر الوقتية والطعام وقصدنا المركب الذي به الباشادور وتولى تفريق ذلك الفريشك على المراكب بيده ، وقد رأى من ذلك ما سره، وقد ضرب حاكم البلاد ومن انضم إليه من أمناء المرسى وأعيان القوم من الخزائن بساحل البحر العدد الكثير حتى إلى مرتيل ، فانضمت كوانين الخزائن بكوانين الأسارى . فالناظر لإتقاد الكوانين من الجفن الذي نحن به يشاهد نجوماً في السماء ومثلها في الأرض . ولا مرية أن ذلك سر من أسرار الله تعالى .

وقد أيقظتُ الباشادور والفسيان المصاحبين له وأخرجت جميعهم من القامرة ليشاهد جميعهم ما شاهدناه من ذلك ؛ وقد تعجب مما شاهده عياناً ، هو وقومه وأظهرت ، والحمد لله ، أبهة الإسلام عظمته في تلك الليلة وغيرها .

ومن الغد نزلنا معاً البر وركبنا الفلوكة، وأهل مركبة يخرجون المدافع ، وأبراجنا تجيبهم بإخراج مدافعها إلى أن نزلنا إلى البر ؛ وقد

خرج لملاقاتنا قائد البلاد وأعيان القوم ورحبوا كثيراً وجاء الحاكم بعدة من الخيل ، فركبها الباشادور والأعيان من قومه وضربت علينا النوبة وأخذ المجاهدون في اللعب بالبارود على خيولهم واستمر إخراج البارود من الرماة إلى المدينة ، وذهبنا في جمع عظيم من الخلق . فلما قربنا من المدينة أطاقت القصبة من المدافع ما يشفي الغليل .

ودخلنا المدينة في هيئة عظيمة ، فإذا بالدار المعينة لنزول الباشادور بالأمر المطاع من خيار الديار وأحسنها ، استوعب قبابها فرش منتخب ودفعنا في الحال للقيم على طعام الباشادور ما هو كاف لضعف قومه من الحاضرين ، مما فيه زيادة على ما شاهدناه من طعام طاغيتهم ، مما يدل على خصب بلاد الإسلام وما هي عليه من بسط النعم والخيرات التي لا حد لها ولا نهاية . ولم تزل الأعيان تتردد علينا بقصد مباشرة الباشادور وإكرامه في مقابلة ما صنعوه معنا ببلادهم ، ونحن المسلمون أحق بالفضل والمجازاة ومقابلة الخير بمثله ، وإن كان وقوعه من غير أهله !

وجعلنا لأسارى المسلمين أماكن تليق بهم وأجرينا عليهم الخراج الكافي لهم بالأمر المطاع ونقينا أثوابهم ، ومن كان مفتقراً للكسوة جددناها له ، ومن ألم به ألم عينا له حكيماً يعالجه وأنزلنا النسوة بالمحل المناسب لهن ، الكل عن الأمر المولوي ، أسماه الله .

وقد أقمنا بتطوان ما يزيد على الشهر لتراكم المطار وتتابع السيل الخارج عن الحد . ولم يزل سيدنا ، أيده الله ، يجدد الإيصاء على الأسارى بالرفق بهم والإحسان إليهم ، رحمة بهم وشفقة عليهم . وأكثر إيصائه أبقاه الله تعالى ، على النساء والبنين والطاعنين في السن ، تقبل الله من سيدنا عمله !

ولما انجلى الغيم استعملنا السير ، وقد كان سيدنا ، نصره الله ، بعث

العدد الكثير من البغال لحمل الأسارى ، وأمر بحمل ثقلة الباشادور من غير أن يدفع درهماً واحداً في شيء من الأشياء ، جلَّت أو قلت فقام بجميع ذلك حاكم تطوان بالأمر المطاع ، وقد تقدم من سيدنا الاعلام لعمال إيالته المحروسة بالله ، وأمر أن ينتشر الناس في الأرض خيلا ورماة من باب تطوان إلى حضرة مراكش حفظها الله ، فانتشرت العساكر التي لا يأتي الحصر عليها ، خيلا ورماة ، وذهبنا في هذا الجمع العظيم .

فأول من لاقينا بعد استعمال السير من تطوان ، صحبة حاكمها والأعيان من المجاهدين(من) القبائل الحوزية ، وارداس وبني مصور وانجده وغيرهم من القبائل ، وأخذوا في اللعب بالبارود ، زبهت الباشادور مما شاهد حتى أننا طلبنا منهم أن يكفوا عن إخراج البارود ، فلم ينصتوا وتمادوا على ذلك إلى محل المبيت وقد بالغوا في الإكرام .

ومن الغد تعرض لنا أهل الريف خيلا ورماة بعدد كثير وقد اصطفوا صفوفاً وضربت النوبة بين صفوف عسكرهم ، وأخذت الخيالة في اللعب بالبارود ثم بالمزارق ، وذهبنا على هذه الحال إلى أن أقبل الليل وقد هيأ الحاكم ضيافة لها بال ، وأتى بطعام منتخب كاف لهذه الجموع الوافرة .

ومن الغد ، قدم للباشادور فرس من عتاق الخيل كان يركبه حيث أعجبه ، فاستحسنه وذهب معنا إلى أن قربنا الغربية فتشيع معنا ولده بمائة من خيل المجاهدين من أهل الريف ، فلم نشعر إلا وأهل الغربية وغيرهم من القبائل الموالية أهم في عدد كثير وفعلوا ما فعله من قبلهم إجمالا وتفصيلا . وفي أثناء طريقنا من الغد ، لحقت بنا خيل طليق والخلط [1]

---

(١) طليق والخلط من القبائل المنتشرة في نواحي القصر الكبير .

وقد اقتفوا أثر من تقدمهم في الترحيب والفرح بأسارى المسلمين .

ولما وصلنا القصر وجدنا به من الخيل والخلق ما لا حصر له وقـد جالت الخيل بين صفوف الرماة ومطلق القوم ، وقد أبلوا بلاء حسناً في اللعب بالبارود بقية يومهم .

ولما جن الليل أقبل أهل القصر بالطعام الكثير على اختلاف أنواعه وقد فضل منه أكثر مما أكل ، وبقيت القصع والموائد العديدة فاضلة بعد إطعام العساكر المذكورة ، وشاهد الكافر من ذلك ما أذهله .

ومن هناك كان رواحنا لثغر العشائر ، وعلى قرب منها تلقانا حاكمها في خيول عديدة وترك الرماة في ثلاثة صفوف . فلما أقبلنا عليهم جالت الخيول بين صفوف الرماة تخرج ما لديها من البارود ، وقد اقتفاها إخراج المدافع من الأبراج ومن ساحل البحر ثم من المراكب القرصانية المرساة داخل الوادي وخارجه ، حتى أن بارود المدافع والرماة ووقع حوافر الخيل ستر نور الشمس ، وكان يوماً مشهوداً وقد دخلنـا المدينة على حال حسنة .

ومن ذلك اليوم ، إستعمل الباشادور الكتابة في كل ما شاهده ببرنا وصار يقيد ما يتعجب منه مما هم عاجزون عن بعض بعضه من حركات الخيل وجولاتها في ميدان العساكر وتلاعب فرسانها على قدر إرادتهـم بحيث يتصرف الفارس في مركبه كما شاء من فرّ وكرّ ولا قدرة للفارس من الكفرة على قهر فرسه ورد الجموع من الخيل بما هو معلوم مـن الفرسان وإنما هو ركوبهم فيما شاهدنا تارة بلائظ السرج أماماً وتارة خلفاً وهو فيما بين ذلك مشفق يترقب الوقوف .

ولم يزل الباشادور يتحدث هو وقومه عما شاهدوه ، وكل واحد

يزيد عن الآخر في الحديث ، وقالوا : « لو سمعنا أن المسلمين على هذه الحالة ما صدقناه ، ولا شيء أقوى من المشاهدة والعيان » .

أقمنا بالمدينة يومين ، وفي اليوم الثالث سافرنا مصاحبين لمائة من خيل سيدنا ، نصره الله ، بعد أن تشيعنا مع أهل الريف ، فما عبرنا من طريقنا نحو المدافتين إلا وخيل سفيان وبني مالك اصطفت ببسيط من الأرض ، وقد لبست أفخر الثياب وركب العتاق من الخيل ، فما قربنا منهم إلا وشنوا الغارات ، قاصدين نحونا حتى أن بارودهم يشبه صوت الرعد ، وما زالوا على ذلك إلى محل المبيت وقد زادوا على غيرهم في الضيافة والإكرام من غير القصر ، وكان رواحهم معنا من الغد لشط وادي مهدية .

وعند الصباح أخذنا في تقطيع القوم في عدة قوارب وتشيعنا مع سفيان وبني مالك .

وبالساحل من ناحية مهدية وجدنا جماعة من أعيان أهل سلا ، فرحبوا بنا وقدموا الأعلام لمدينتهم بأن رواحنا إليهم ليومنا ليتأهبوا لملاقاتنا ، وقد اجتمع عليهم خلق كثير من رباط الفتح وغيرها واستعملوا إخراج المدافع والرماة داخل المدينة وخارجها ، يخرجون البارود على صفة لم تعهد عند الروم[1] ومنها تعجبهم حيث لم يشاهدوا مثل ذلك قط . وعبرنا المدينة بين صفوف من الخلق مع النوبة وغيرها من آلة الطرب . وكل مدينة مررنا بها وكل قبيلة من القبائل إلا وتنسى التي قبلها لكثرة الخلق وقدرتهم على الأشياء التي هي مفقودة عند الكفرة في الحراثة والخصب وكثرة النعم مع النورانية الإسلامية التي تلقى في نفوس

---

(١) القطعة التالية غير واردة في النسخة المطبوعة ، وهي محذوفة كذلك في أصلها نسخة مدريد (م) .

في نفوس الكفرة من الروع والجزع ما يستصغرون به كل عظيم من عدد وعدد عند مشاهدتهم عندما ألقى الله تعالى لأهل توحيده من الهيبة والعظمة والنصر والتأييد ، وما بسط عليهم من النعم . وقد شاهد هذا الكافر ما لم يشاهده غيره من الباشادورات من المباشرة التي في طيها قمع الكفرة والغلظة عليهم وإظهار قوة الاسلام ، وإنما الأعمال بالنيات . وكانت إقامتنا بمدينة سلا يومين . وفي اليوم الثالث أخذنا في العبور في البحر قاصدين رباط الفتح ، وقد هيأ أهل العدوتين قوارب مزينـــة بالقماش المرقوم وجعلوا بها ستوراً عجيبة ، فلما ركب الكافر البحر ، جعلت المدافع تخرج من العدوتين وبارود الرماة أمامه وخلفه بالساحل لا يفتر ، واجتمع من الخلق بالشطين ما لا يأتي عليه الحصر ، وقد شاهدنا في ذلك اليوم ما لم نشاهد في غيره .

أقمنا بقية يومنا برباط الفتح في عز وإكرام ، وبه التقينا بجمع وافر من بني حسن ، ولم يصحب أحداً تقصير في البر والإكرام .

ومن الغد تعرض لنا وفد من أصحاب عامل دكالة بالأمر المطاع ليتقدم أمامنا للمحل الذي يكون به مبيتنا ليهيىء ما نحتاج إليه من المؤن المناسبة ، بحيث إذا وصلنا نجد الأشياء حاضرة موجودة بالمحل . ولما انتهى بنا السير إلى وادي الربيع ، لحقت بنا خيل عامل دكالة وقد كست السهل والوعر وفعات زيادة على من تقدمهم من العساكر وكان مبيتنا بقصبة رئيسهم في عز وإكرام . أقمنا بها يوماً للإستراحة وفي اليوم التالي استعملنا السير صحبتهم لحضرة مراكش ، وكان رواحنا إليها ثالث عيد الأضحى من عامنا . فلما قربنا المدينة ، وردت علينا رسل سيدنا ، نصره الله تعالى مسلمين ومهنين بقدوم الأسارى المسلمين وأصحبهم مولانا المؤيد بالله تعالى ، أمره المطاع بأن نقصر في السير من يومنا على بستانه الأبهج الذكي العرف والأرج ، المشتمل على الفواكه المختلفة المطاعم وأصناف النوار

المؤسسة البناءات والجدار المسماة بالشمالية الغربية من الحضرة العالية ، وفي أثناء العبور لما برز من الخاق لملاقاتنا ضعف ما شاهدناه من قبل ، ولم نخلص من القوم إلا بعد جهد جهيد لازدحام القوم وكثرة المخلوقات التي لا يأتي عليها الحصر[1] .

ولما استقر المجلس في البستان المذكور ، ورد علينا عدد من أعيان الدولة الشريفة ، وفي أثرهم من الطعام ما يكل الواصف عن تكييفه وحصر بعض بعضه ، الكل من الدار العالية بالأمر المطاع وقدم للباشادور من الأطعمة ما يتعجب منه ما لم يشاهده عند عظيمه ولا يوجد ببلاده .

ومن الغد ، اجتمع من العساكر العربية والسوسية والحوزية ما ضاقت عنهم الأرض. وقد كان ورودهم على الحضرة العالية بحضور العيد المبارك مع مولانا المنصور بالله ، وقد أضيف لهم من عساكر مولانا المؤيد الملازمين لأعتابه الشريفة أحراراً ووصفاناً عدد كبير ، وذهبنا في هذه الجموع بعد أن قدمنا الثلاثمائة إلا عشرة من الأسارى المسرحين على يد سيدنـا الكريمة رجالاً ونساء وجعلنا على رأس كل واحد من الأسارى كتاباً من كتب الإسلام التي أنقذها الله من بلاد الكفار ببركة مولانا المنصور بالله المتخلفة عن عمار العدوة من المسلمين فيما سلف ، مصاحف وكتب الحديث والفقه غير ذلك . وقد أدخر الله تعالى هذه الفضيلة لسيدنـا المويد بالله التي عجز عنها من تقدم مولانا نصلاه الله من ملوك الاسلام والحمد لله على ذلك، وفي إثرهم النسوة والبنين والكل يعلن نصر مولانا، أيده الله، وأطلقت النسوة الزغاريد وقد ضربت عليهن وعلى الجميع النوبة.

---

(١) نهاية القطعة المحذوفة في النسخة المطبوعة .

وسرنا على هذه الحالة الحسنة ، وكل من شاهد أسارى المسلمين وعلى رؤوسهم كتب الإسلام بادرته العبرة من شدة الفرح وصار يحمد الله ويدعو لسيدنا بما نرجو من الله قبوله .

ولما قربنا الدار العالية بالله ، جعلت الأجناد تسرد أمامنا قبيلة قبيلة كل قبيلة تقتفي إثر طوالعها من طلوع الشمس إلى ما بين الظهرين . وعند كمال تسراد القوم ورد علينا الأمر المطاع بأن يكون نزول الباشادور بأحد بساتين سيدنا المنصور بالله المسمى بجنان العافية القريب من ديار سيدنا العالية ، فإذ هو من أشرف البساتين تتخلله جداول من ماء غير آسن . إشتمل على فواكه مختلفة وأزهار متفرقة ومؤتلفة قسمه المهندس حال غراسه أرباعاً وجعل في طوله والعرض ما يزيد على الثلاثين باعاً ، وجعل بكل تربيعة صنفاً من الفواكه على حدته ، وأحاطها بحاجز من أشجار الورد ما يستحسن من نظارته . والفاصل بين هذه التربابيع من الجهات الأربع طرف فيه جداول تشرق بشروق الشمس وتلمع بعين الناظر لما اشتمل عليه هذا البستان البهيج ، والناشق لعرف أزهاره الزكي الأريج يجد في نفسه نشاطاً وتغمر الزهور جوارحه سروراً وانبساطاً .

وقد أمر مولانا المؤيد المنصور بضرب قباب من القماش المرقوم بجواهر مذهبة وشليات وبسط وحسك فضية .

وكان ملاقاة سيدنا ، نصره الله ، بأسارى المسلمين في اليوم الثاني من قدومهم على الحضرة العالية ، فتلقاهم ، أيـــده الله تعالى بالرحب والسعة وفرح بهم كثيراً وحمد الله تعالى وأثنى عليه حيث كان سراحهم على يده الكريمة ووعدهم بكل خير وأمر في الحال بكسوتهم وخيرهم في المقام لدينا ، فله منا ما يسره ، إن شاء الله تعالى ولما تعين منهم القاصد أهله زوده سيدنا بما فيه خير له وإكرام زيادة على الكسوة وأمر بحمـــل

جميعهم ، وكل مدينة يردون عليها وأهلها يبذلون جهدهم في الضيافة والإكرام بالأمر المطاع إلى أن يصلوا بلادهم بسلامة وعافية ، رجالاً ونساء وصبياناً وتشيعوا عن سيدنا أدامه الله ، وهم في نعم وافرة الكل داع لسيدنا نصره الله تعالى بالنصر والتأييد . ومن غداة ملاقاتهم سيدنا نصره الله تعالى ، كانت ملاقاة الباشادور مصاحباً لهدية عظيمة ، فكان خطابه لسيدنا المنصور بالله تعالى على لسان طاغيته « أنه يقبل الأسرى بين يدي سيدنا المؤيد بالله ويطلب قبول هديته ويخبره أنه واحد من خدامه وممتثل أمر سيدنا نصره الله في جميع ما يأمر به وله فرح لهذه المهادنة التي تفضل بها عليهم سيدنا أسماه الله .

فكان جواب سيدنا أعزه الله للباشادور « إن طاغيتك مميز ومقدم على الطغاة من الأجناس المصالحين لامتثال أمرنا في شأن الأسارى المسلمين وهؤلاء الأسارى المصاحبين لخديمنا مع كتب الإسلام ذلك عندنا فيه كفاية عن هديته وإن كان في غرض عظيمك شيء ، وهو جائز في ديننا نقضوه » وانصرف الباشادور مجبور الخاطر ومكث في ضيافة سيدنا أيده الله ما يزيد على الشهر في بسط وسرور يتوارد عليه في اليوم الواحد العدد الكثير من الأطعمة على أصناف وأنواع من الدار العالية كل طعام لا يشبه الآخر في أواني مذهبة لا أظنها عند طاغيته ، هذا زيادة على الطعام الذي يستعملونه للنصارى ، بما هو مرتب من لحوم البقر والغنم والوحش والطير وغير ذلك من الحيتان والخضر والفواكه ، وقد رأى الباشادور من ذلك ما أذهله مما لم يخطر له على بال ولم يسمع بمثله . وقد طلب من سيدنا أيده الله أن يُسَرِّح له عشرة من الخيل ، وقد جاد عليه بذلك وكان مراده أن يركب من ثغر الصويرة لما له من الغبطة في الوصول إليها فصار يقدم رجلاً ويؤخر أخرى في طلب ذلك ، فإذا سيدنا أيده الله خيره مراسيه المحروسة بالله وأذن له في الركوب من أي مرسى شاء ، فحصل

على المؤمل ، وأمر ، أيده الله بحمله إلى الصويرة .

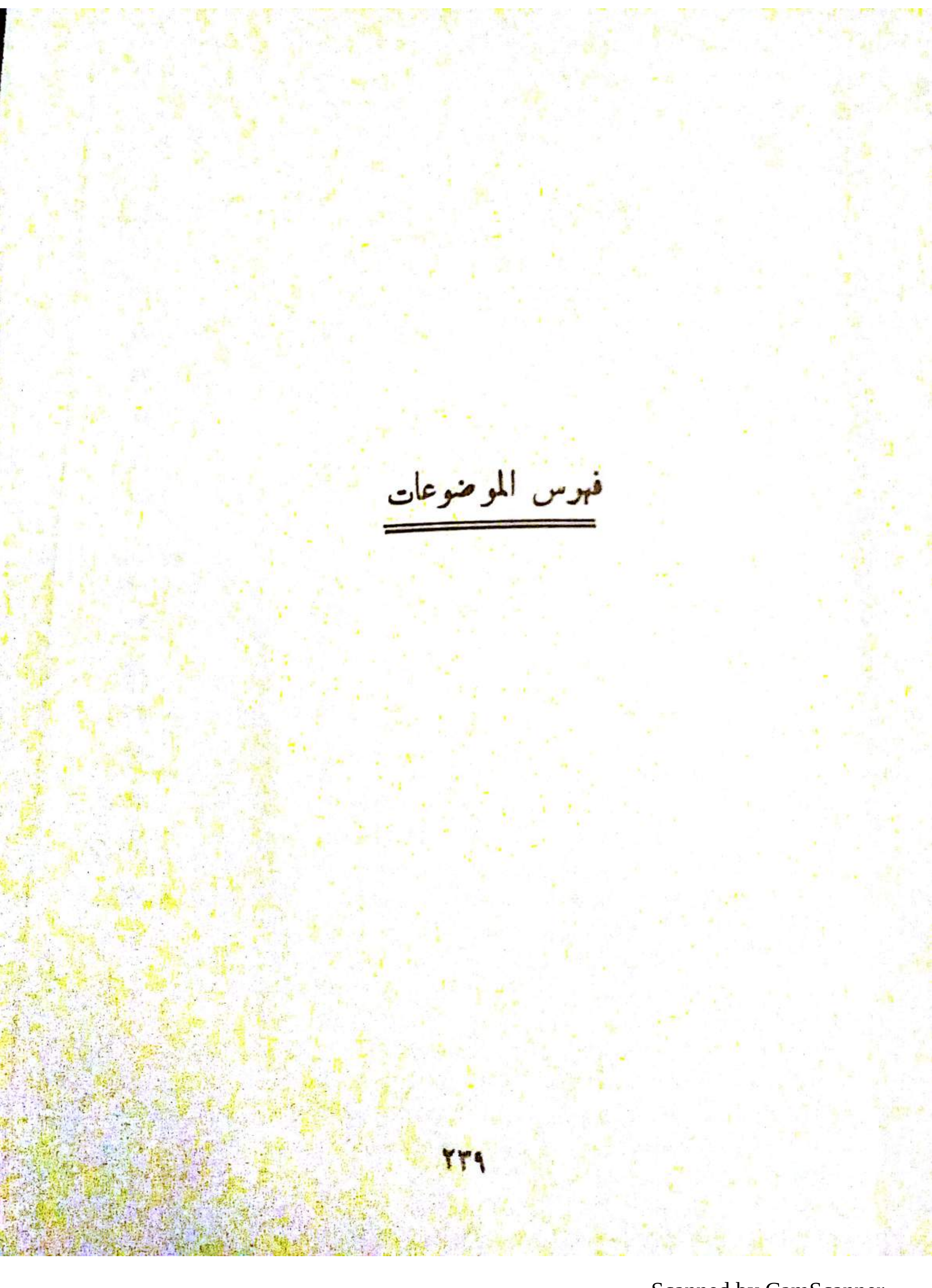
ومن جملة إكرامه إياه أن ألزم خديمه مصاحبته للثغر وإقامته به إلى أن يأتي مركب الباشادور وينصرف في بسط وسرور وإكرام ، فاستعملنا السير بالأمر المطاع فما قربنا من الثغر المذكور إلا وقد برز بساحل البحر من به من العسكر أحراراً ووصفاناً انضم إليهم من القبائل ما لا يأتي عليهم الحصر ، شياضمة أهل حاحة وغيرهم وأخذ الجميع في إخراج البارود وجعلت المدافع تخرج من الجزيرتين ومن القصبة ومن فم الوادي وقد شاهدنا من ذلك العجب ونزلنا بخيار ديار المدينة .

ومن الغد ، ذهب الباشادور للقصبة وطاف بالمدينة وقد استحسن تشييدها ومبانيها وقال : « كم كان أمد بنائها ؟ » قلنا له : « لم تكمل الستين » فاستبعد ذلك ولم يصحّ عنده إلا من طريق اسكانها من النصارى وبقي متعجباً مما شاهده عياناً وما أخبر به بهذا الوقت وغيره .

وكانت إقامتنا في انتظار المركب الذي يحمله شهران ولما ورت سفينة جعلنا له كانية وافرة جامعة لأصناف المأكولات ، مناسبة لأبهة الإسلام وتشييعنا معه آخر ربيع الأول وما زال سيدنا ، أدامه الله ، يباشر هذا الجنس دون غيره من الأجناس المصالحين وقصده بذلك ، أسماه الله تعالى ، أولا وثانياً ، إنقاذ من بقي من المسلمين ببلادهم وفكاك جميعهم من الأسر .

وقد وعدهم أيده الله بذلك ولم تزل رسائلهم تتردد على حضرته العالية مستشفعين بسيد الشفعاء له في إنقاذهم مما هم فيه من الأسر ، ولم يكن أعزه الله بغافل عنهم ، والأشياء موقوتة إلى أجلها ، ولكل أجل كتاب !

إنتهى



فهرس الموضوعات

	صفحة
مقدمة المحقق	٥
تمهيد المؤلف	٣١
الخبر عن مدينة سبتة	٤٧
الخبر عن مدينة الجزيرات	٥٥
الخبر عن مدينة طريفة	٥٨
الخبر عن مدينة « مدينة »	٦٠
كيفية مبارزتهم للثيران	٦٥
الخبر عن مدينة خريز ...	٦٦
الخبر عن مدينة لابريخة	٧١
الخبر عن المدينتين بلافرنكا وبلاصيوص	٧٢
الخبر عن مدينة اشبيلية ...	٧٤
الخبر عن مدينة قرمونة	٩١
الخبر عن مدينة الفوينطي	٩٢
الخبر عن مدينة اسيخا ...	٩٢
الخبر عن مدينة الراملة	٩٣
الخبر عن مدينة قرطبة	٩٥
الخبر عن مدينة الكرايي ...	١٠٣
الخبر عن مدينة اندوخر	١٠٤
الخبر عن مدينة بايلان	١٠٥
الخبر عن مدينة البيسيو	١٠٦

	صفحة
الخبر عن مدينة بلقابينيس	١٠٧
الخبر عن مدينة منساريس	١٠٧
الخبر عن مدينة ارنيسيا	١٠٨
الخبر عن مدينة طنبليكي	١٠٨
الخبر عن مدينة مورة	١٠٩
الخبر عن مدينة بلاصيك لاصكي	١٠٩
الخبر عن مدينة ايلاصكاص ...	١١٠
الخبر عن مدينة مدريد ...	١١١
الخبر عن مدينة لاكرانخة ...	١٢٥
الخبر عن مدينة شغوبية ...	١٤٤
الخبر عن مدينة الاسكوريال ...	١٤٧
الخبر عن مدينة أرنخويس	١٥٩
الخبر عن مدينة طليطلة	١٦٣
الخبر عن مدينة مورة ...	١٧٠
الخبر عن مدينة مادريديخوس ...	١٧٠
الخبر عن مدينة القصر دوسان خوان ...	١٧٠
الخبر عن مدينة صكليموص	١٧١
الخبر عن مدينة مناي ...	١٧١
الخبر عن مدينة لا الرود ...	١٧١
الخبر عن مدينة لاخينيتا ...	١٧٢
الخبر عن مدينة البسيطي ...	١٧٣
الخبر عن مدينة منط الكرة ...	١٧٣
الخبر عن مدينة ايكلا ...	١٧٤
الخبر عن مدينة المنوّر ...	١٧٤

	صفحة
الخبر عن مدينة ايلشي ...	١٧٥
الخبر عن مدينة اورويلا ...	١٧٦
الخبر عن مدينة مرسية ...	١٧٦
الخبر عن مدينة قرطاجنة ...	١٧٧
الخبر عن مدينة بنيلية ...	١٩١
الخبر عن مدينة لوركة ...	١٩٢
الخبر عن مدينة بليس الروبيو ...	١٩٢
الخبر عن مدينة شربال ...	١٩٣
الخبر عن مدينة كلين دباصا ...	١٩٣
الخبر عن مدينة باصا ...	١٩٣
الخبر عن مدينة وادي آش	١٩٣
الخبر عن مدينة أزناليوص	١٩٤
الخبر عن مدينة غرناطة ...	١٩٤
الخبر عن مدينة سنطقي ...	٢١٢
الخبر عن مدينة لوخة ...	٢١٢
الخبر عن مدينة ارشادون ...	٢١٣
الخبر عن مدينة اسونة ...	٢١٤
الخبر عن مدينة اطريرة ...	٢١٤
الخبر عن مدينة لاص كبلصت ...	٢١٦
الخبر عن مدينة لابرنجة ...	٢١٧
الخبر عن مدينة خريز ...	٢١٧
الخبر عن مدينة لايزلة ذا اليون ...	٢١٧
الخبر عن مدينة قالص ...	٢١٨
عودة الغزال مع الاسرى المسلمين المحررين	٢٢٣

ثبت الاغلاط المطبعية

صفحة	سطر	غلط	صواب
١١	١٦	مهمة	مهمته
١٦	٣	للجاج	اللجاج
١٦	٢٠	شعور وقلة	شعور بقلة الاهتمام
١٩	١٢	aspagn	Espagne
٢٠	٢	رقد	وقد
٢١	٧	هناك	هنات
٢٢	٨	يحال	يحيل
٢٢	١٨	تكرار كلة« الأصل »	
٣٦	٢	الغرنسيس	الفرنسيس
٤٠	٢	الفرايسليه	الفرايلية
٥٠	١٩	إذ اما	إذ أمر
٥٣	٨	بجناب	أوْبَتَنا بالطريق
٥٣	١٥	بمئون	بشئون
٥٥	١٧	فلم نشعر مالا	فلم نشعر إلاً
٦٢	١٢	على يجلس	على أن يجلس
٦٢	٢٣	سكرناه	شكرناه
٧٧	٤	عظيمة	عظيمه

صفحة	سطر	غلط	صواب
٧٩	٥	الفوم	القوم
٨٠	١٥	بوطه الارض	وبوسطه خصة مرقومة علومها من الأرض
٨٤	٣	ظال	ضلّ
٩٥	١٨	اشبيليق	اشبيلية
١٠٧	١١	فجاربناهم	فجاربناهم
١١١	١١	أحد من أعيانه	أحد أعيانه
١١١	١٣	لا مدريد	لان مدريد
١١٣	١٦	استّرى	استوى
١١٥	١٣	قبل	قبل
١١٦	٣	واو مطموسة	المؤبر
١١٨	٥	مدافله	سافله
١٤٥	١٧	واو مطموسة	الاقواس
١٤٦	١٩	لاكوانخه	لاكرانخه
١٤٧	٤	الا	الآن
١٤٧	١١	ندر	نذر
١٥٠	٢١	واعدة	واحدة
١٥٦	٢٣	بنات الا الاكابر	بنات الاكابر
١٦١	٥	اقامة	قامة
١٧٤		موسية	مرسيه
١٧٥	١	التاييد	التابيد
١٧٩	٥	المشمرة	المشورة
١٨٠	١٠	كثير	كثيرا
١٨١	١٣	الضاعنون	الطاعنون

صفحة	سطر	غلط	صواب
٢٠٠	١٦	المعاوم	المعلوم
٢٠١	٦	المقالد	المقاعد
٢٠١	١١	خير حافظا	خير حفظا
٢٠٤	٣	بكل	يكلّ
٢٠٤	١٠	تحيشك	تحيك
٢٠٤	١١	ثغور المّى	المنى
٢٠٥	١٠	يميزا	يمينا
٢٠٥	١٩	مناره	منازه
٢٠٧	٩	إن الروض	أنا الروض
٢٠٧	١٧	ولو مشلت	ولو مثلت
٢٠٧	٢١	إليها	البهاء
٢١٠	٢٢	المتقى	المنتقى
٢١٢	٢	يهشّم	يهشّهم
٢١٧	١٣	المدينة بما لا يزيد على عبورنا	بما لا يريد على مسافة عبورنا
٢٢٢	١٥	ابانة	إبابة